الأعمال الخاصة

إقبال بركة

المرأة المسلمة

فى صراع الطربوش والقبعة

المرأة المسلمة
فى صراع الطربوش والقبعة

لوحة الغلاف عبارة عن جزء من جدار خزفى. تتوسطاه شجرتان قائمتان على التماثل، كذلك نلاحظ نفس التماثل فى الزهور التى تحد الشكل، وأوراق الأزهار المنتشرة داخل الإطار. هى وحدات زخرفية تضاهى مصادرها فى الطبيعة تمام المضاهاة. وأهم ما يميز اللوحة نصاعة ألوان المينا الزرقاء، حيث استخدم الفنان الدرجة الفاتحة فى علاقتها مع الدرجة الغامقة. وترك اللون الأبيض يفرد كأنه ضوء الصباح المتلألأ، يساعده اللون الوردى.

محمود الهندى

المرأة المسلمة
فى صراع الطربوش والقبعة

إقبـال بـركـة

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

المرأة المسلمة
في صراع الطربوش والقبعة
إقبال بركة

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» في مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

طبعة خاصة تصدرها
دار قباء
بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إهداء

إلى ابنتى الحبيبة نانسى مصطفى سليمان . .

أهدى عصارة فكرى وخلاصة ثقافتى . . ولعلى أجيب على بعض التساؤلات التى كانت تؤرقها . . أو أهدىء القلق الذى مازال يراودها .

إقبال بركة

طبعة خاصة تصدرها
دار قباء
بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إهداء

إلى ابنتى الحبيبة نانسى مصطفى سليمان . .

أهدى عصارة فكرى وخلاصة ثقافتى . . ولعلى أجيب على بعض التساؤلات التى كانت تؤرقها . . أو أهدىء القلق الذى مازال يراودها .

إقبال بركة

هذا الكتاب

منذ سنوات عديدة كنت فى المجلس الأعلى للثقافة والفنون والعلوم الاجتماعية بالزمالك، ودخل الغرفة رجل مسن أنيق المظهر، قدم لى نفسه: مجد الدين حفنى ناصف. وعلى الفور بدأ بيننا حوار طالبنى فيه الأستاذ مجد الدين بالكتابة عن شقيقته: ملك حفنى ناصف. وقد اعترفت للرجل يومها أننى قد سمعت بالاسم، ولكننى لا أعرف شيئا عن صاحبته. ووعدنى الأستاذ مجد الدين بإهدائى كتابا كان قد نشره عام ١٩٦٢م، عن شقيقته، وأعرب عن أسفه لأن الكتاب وموضوعه لم يلقيا الاهتمام الذى كان يتمناه، وقال أن أحدا لن يدرك قيمة ملك حفنى ناصف إلا امرأة مثلها، تسير اليوم على الدرب الذى بدأته هى منذ عشرات السنين، ولعلى أكون هذه المرأة. وبعد أيام زارنى الأستاذ مجد الدين بمكتبى فى مجلة "صباح الخير"، وقدم لى الكتاب الذى نشرته له "الهيئة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر" منذ عدة سنوات، وكتبت مقدمته الدكتورة سهير القلماوى رئيس الهيئة وقت النشر.

قرأت الكتاب وأعجبت به كثيرا وبصاحبته، وأخيرا واتتنى الفرصة للوفاء بوعدى والكتابة عن ملك عام ١٩٩٨م، فى افتتاحيتى بمجلة حواء لمطالبة كل من يهمه الأمر بالاحتفال بمرور ثمانين عاما على وفاتها، وناشدت وزير التربية والتعليم الدكتور حسين كامل بهاء الدين بأن يأمر القائمين على إعداد المناهج الدراسية بإدراج موضوع عن الكاتبة الراحلة، وبعض مقالاتها فى كتب

المطالعة بمرحلتى الإعدادى والثانوى. كذلك طالبت رئيس هيئة الكتاب الدكتور سمير سرحان بإعادة نشر كتابها الوحيد "النسائيات". وتقدمت إلى شركة صوت القاهرة للصوتيات والمرئيات بمعالجة مسلسل عن ملك تمت الموافقة عليها. وفى يناير ١٩٩٩م وافقت الرقابة على عشر حلقات من المسلسل. ومنذ ذلك التاريخ وأنا أقرأ باهتمام كل ما يقع تحت يدى من كتب تصور العصر الذى عاشت فيه ملك حتى تجمع تحت يدى ما يمكن أن يشكل كتابا تستفيد منه الأجيال القادمة. أرجو أن أكون قد وفقت فى عرضه. وأنتهز الفرصة لأقدم الشكر لكل من مد لى يد المساعدة بقراءة المسودة أو التعليق عليها أو لفت انتباهى لموضوعات أو كتب مهمة يمكن أن تضيف لمعلوماتى. وقبل ذلك أوجه خالص شكرى لزوجى الحبيب المهندس مصطفى سليمان الذى وقف إلى جانبى دائما، تحمل غيابى الطويل داخل غرفة مكتبى، وقضائى الساعات الطوال أمام جهاز الكومبيوتر الذى أهدانيه فى عيد ميلادى منذ سنوات دون أن يتصور أنه سيصبح غريمه الوحيد

إقبال بركـة

مقدمة

انتهى القرن التاسع عشر فى مصر بمشهد درامى غريب؛ مظاهرة من الرجال، لابسى الطرابيش، يهتفون ضد رجل آخر، قاسم أمين، مستشار شاب فى السابعة والثلاثين من عمره تهور وكتب كتابا يطالب فيه بتحرير المرأة. مطالب قاسم أمين لم تتعد التعبير عن حق الفتاة فى التعلم، حتى نهاية المرحلة الابتدائية، وحقها فى الخروج إلى العمل، إذا لم يكن هناك من يعولها..! ولكن خطورة كتاب قاسم أمين "تحرير المرأة" لم تكن تكمن فى مطالبه، وإنما فى الحيثيات والأدلة التى حشدها مؤلفه الشاب للدفاع عن رأيه، والتى كانت لطمة كبيرة على رؤوس أصحاب الطرابيش. ولم يجد هؤلاء تهمة يلصقونها بالكاتب إلا اتهامه بأن بعض فصول الكتاب مثل "حجاب النساء، الزواج، تعدد الزوجات، الطلاق" ليست من تأليفه، وإنما كتبها له الأستاذ الإمام محمد عبده، مفتى الديار المصرية فى وقت صدور الكتاب! ولم يدرك هؤلاء الغاضبون أنهم بتلك التهمة أسبغوا شرعية كاملة على الكتاب بكل ما يحويه من آراء ..!!

وتتوالى مشاهد السخط على الكتاب، والغضب من كاتبه حتى تصل إلى ذروتها؛ عندما يتجه مجموعة من لابسى الطرابيش إلى بيت المستشار قاسم أمين، ويطالبونه بأن يسمح لهم بالجلوس مع ابنتيه وزوجته .. ألم يقل بخروج المرأة إلى العمل؟ ألا يعنى هذا اختلاطها مع الرجال؟ وأليست هذه "البدعة" بداية لابد وأن يتبعها انفراط عقد المجتمع وانتشار الفجور والانحلال بين أفراده؟!

ويتحمس البعض فيصدرون مائة كتاب ترد على قاسم أمين وتدحض أفكاره، ويستجيب حاكم مصر فى ذلك الأوان، الخديوى الشاب عباس الثانى فيأمر بمنع المستشار قاسم أمين من دخول قصر الخديوى، أما أصدقاء قاسم المقربون، وأغلبهم من صفوة المثقفين الذين سيلعبون أدوارا مهمة فى تاريخ مصر السياسى والثقافى والاقتصادى، فقد لزموا الصمت، بل وابتعدوا عنه حتى لا تلصق بهم التهم الموجهة إليه. حتى زعيم الأمة الشاب مصطفى كامل لم يسلم قاسم من هجومه على الكتاب، وإعلانه رفضه لكل ما جاء به.

قامت الدنيا ولم تقعد لمجرد أن قاضيا مثقفا وأحد رموز العصر المهمين، طالب بإعادة بعض حقوق المرأة التى كفلها لها الإسلام! ولكن رجال ذلك العصر، أو لابسو الطرابيش، كما سنصفهم فى هذا الكتاب، لم ينظروا للمسألة كما نراها اليوم، فى بداية القرن الحادى والعشرين، وإنما رأوها من زاوية مختلفة تماما، أملتها عليهم ظروف العصر التى سنتحدث عنها لاحقا. والسؤال الذى يهمنا الإجابة عليه أيضا: كيف كان رد الفعل لدى النساء اللاتى دافع قاسم أمين عن حقوقهن، وعانى أشد المعاناة بسبب ذلك، لدرجة أنه لم يتحمل طويلا وفارق الحياة فجأة وهو فى الأربعين من عمره ؟!.

وإذا أردنا أن نؤرخ للفكر "النسوى" فى كتابات المرأة المصرية، فلا بد أن نبدأ **بملك حفنى ناصف** الكاتبة التى عاشت فى بداية القرن الماضى، واختارت لنفسها لقب "**باحثة البادية**"، ولابد من أن نتعرف إلى الخلفية الاجتماعية والسياسية والثقافية التى مهدت لها وأثرت فيها وتأثرت بها.

لقد أنهى قاسم أمين بكتابه "تحرير المرأة" عصرا وقرنا من تجاهل المرأة كقضية وإشكالية وحل وعنصر أساسى من عناصر تطور المجتمع وازدهاره. وبكتابات ملك حفنى ناصف بدأ عصر وقرن من مشاركة المرأة المصرية ومحاولاتها الدؤوبة لفرض وجودها وتحقيق ذاتها على الساحة السياسية والثقافية والاجتماعية. فملك حفنى هى أول صوت "نسوى" مصري يرتفع محطما حصار الصمت المفروض على المرأة حتى نهاية القرن التاسع عشر، ومعبرا عن رأى نسائى فى القضايا الاجتماعية والسياسية. ويمثل كتابها "النسائيات" الذى طبعته "الجريدة" ونشرته عام ١٩١٠م أول منشور "نسوى" مصرى يعبر عن بداية وعى المرأة المصرية المسلمة بقضيتها التى لم تحسم إلى يومنا هذا.

لقد واجهت المرأة المصرية الكثير من الألغام – العقبات التى زرعها فى طريقها أعداؤها وأعداء الحرية والتقدم، وتمنوا بتفجيرها أن تخمد إلى الأبد حركتها وتعيدها إلى قمقم القهر الذكورى. لكنها استطاعت، منذ بدأت ملك تخوض بشجاعة الكتابة فى المسائل الاجتماعية، أن تثير جدلا لم ينته إلى يومنا هذا، وأن تكشف الأقنعة المزيفة عن وجوه عديدة كانت ومازالت تتصدى لريادة المجتمع المصرى تحت لافتات براقة، وادعاءات كاذبة.

سارت ملك فى كتاباتها على حبل رفيع، يفصل ما بين رؤيتين واتجاهين وعالمين متباعدين كل التباعد، كانت تمتلك شجاعة الريادة وحصافة القيادة، لكنها لم تستطع. وجدها أن تحطم أصنام العرف والأفكار الشائعة التى سجنت المرأة طويلا داخل قمقم الجسد

وحاصرت مواهبها وإمكاناتها العقلية والمعنوية، فتوقفت فى منتصف الطريق لا تقوى على الاستمرار فى التقدم إلى الأمام ولا تبغى العودة إلى الوراء. كانت كتاباتها تعد بالكثير، وقد قدمت حلولا لقضايا اجتماعية وسياسية شغلت المصريين فى ذلك الوقت ولاقت صدى كبيرا، فذاقت حلاوة التشجيع والتقريظ، كما تجرعت مرارة النقد والهجوم القاسي. وتوفيت ملك وهى فى مقتبل العمر قبل أن يتحقق حلمها الكبير وينصلح حال الأسرة المصرية، وتتحدد ملامح الهوية المصرية الأصيلة.

ولا يمكن تقييم ما أنجزته ملك دون العودة للسياق التاريخى والاجتماعى لعصرها، ودون النظر إلى الحركة الثقافية لنساء عصرها التى تجلت فى إصدار المجلات النسائية وإبداع الشعر والقصة، ودون تأمل ظروف نشأتها المتميزة ثم تجربتها القاسية فى الزواج التى شكلت رؤيتها للعلاقة بين الذكر والأنثى فى مجتمع لا يعطى اعتبارا لمشاعر المرأة ورغباتها الدفينة أو المعلنة.

كانت ملك حفنى ناصف أول امرأة مصرية مسلمة تشغلها قضية المرأة، وتستحوذ على تفكيرها وكتاباتها وتؤثر على سلوكياتها وعلاقاتها بالآخرين. واليوم وبعد انتهاء القرن العشرين كيف يبدو حال المرأة والأسرة والمجتمع المصري ..؟ لقد زالت عقبات كثيرة من طريق المرأة المصرية وأصبح تعليمها وخروجها للعمل ومشاركتها فى الحياة العامة وممارستها كافة حقوقها الإنسانية على الصعيد السياسى من المسلمات الراسخة، ومع ذلك فما زال يدور بيننا جدال حاد حول نفس القضية: تحرير المرأة. بل إن البعض

مازال يصر على العودة إلى الوراء والبدء من جديد، كما لو كان الزمن بحيرة راكدة لا تتأثر بأية تقلبات طبيعية، أو صخرة هامدة لا تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام.

ولكى نفهم ما يجرى على الساحة اليوم بعد انقضاء القرن العشرين، لابد من أن نعود إلى الماضى بذاكرتنا نستكمل الصورة، ونرصد ونحلل ألوانها وخطوطها ونستنبط رموزها.

إن غرضى من هذا الكتاب أن أقدم لشباب هذا الجيل، الذى يتأهب لاستلام الراية وحملها، خريطة مبسطة لما كان يدور على أرض بلده من صراعات واتجاهات وأفكار وآراء لشخصيات أثرت فى الأحداث السياسية ووضعت بصماتها على وجه مصر فى ميادين الأدب والفن والعلم. ولسوف نكتشف معا أن عدد الشخصيات النسائية المصرية التى شاركت فى صنع تلك الأحداث ويمكن إدراجها فى عداد الرواد قليل للغاية إذا ما قورن بتاريخ المرأة المصرية القديم، وبمكانتها وبالنسبة لما تقوم به من دور جوهرى ومؤثر فى حياة الفرد والأسرة المصرية، وإن الرائدات المصريات لم يكتب لأغلبهن أن تقطع الشوط حتى نهايته وتكمل ما بدأته. ولعل هذا مما يزيد من إعجابنا بشجاعتهن الفائقة وصلابتهن فى مقاومة موجات التخلف العاتية، وقدرتهن على مواجهة مجتمع لم يكن يعترف بحق المرأة فى الوجود، فما بالك أن تتعلم وتخرج إلى الحياة العامة وتطالب بحقوقها!

ما هى الأسباب وراء التراجع المتكرر لحركة النساء المصريات، حتى اليوم، و بعد أن تحقق لهن نظريا(فى الدستور والقوانين) جل ما

تبتغيه أية امرأة أخرى من نساء العالم، وبعد أن تفوقن، لفترة، على أقرانهن العربيات والأفريقيات والآسيويات، بل وبعض الأوروبيات! لقد حاولت أن أعثر على إجابة على هذا السؤال الذى أرقنى طويلا، ورحت أتابع حياة أول رائدة "نسوية" مصرية وأحاول أن أتعرف إلى الظروف والأحداث التى صنعتها والأشخاص الذين أثروا فى حياتها والأفكار التى شكلت رؤيتها، وأن أشاركها معاناتها نتيجة للصراع الداخلى والخارجى بين شخصيتها المتفردة القوية واللحظة التاريخية التى نشأت فيها، الأمر الذى جعل من حياتها دراما تتوافر فيها كل عناصر المأساة، وكان السبب فى إجهاض حلمها الكبير وحرمانها من مواصلة السير على الدرب حتى نهايته. وكأنما شاء القدر أن ينسج خيوط قصة محبوكة يعجز الخيال البشرى عن رسمها، فقد ولدت ملك حفنى ناصف عام ١٨٨٦م وتوفيت عام ١٩١٨ م، عن ٣٢ عاما من العمر، أى أن حياتها بدأت فى أعقاب ثورة عرابى وامتدت إلى ثورة ١٩١٩م بزعامة سعد زغلول، وبذلك مرت حياتها بمرحلة من أهم وأخطر المراحل فى تاريخنا الحديث، بدأت بثورة عسكرية وانتهت بثورة شعبية، وعايشت ثلاثة زعماء مصريين، وشهدت مولد وتألق كل عمالقة الفن والفكر والأدب الذين نعتز بهم، ومازلنا نحمل بصمات أفكارهم ورؤاهم فى عقولنا حتى اليوم مثل الإمام محمد عبده وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ومصطفى كامل ومحمد حسين هيكل وقاسم أمين وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد وهدى شعراوى وسيزا نبراوى وطلعت حرب والعقاد والمازنى وطه حسين وتوفيق الحكيم وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب.. الخ.

ولسوف نكتشف معا تشابها كبيرا بين الأمس واليوم، وأن الأفكار التى كانت تملأ الساحة الثقافية منذ مائة عام، مازالت أصداؤها تتردد حتى يومنا هذا، والصراع الذى احتدم بين أنصار التقدم وأعداء التطور بدأ أيضا منذ بداية القرن، وكذلك الاتهامات التى كان الطرفان يتبادلانها كما هى منذ ذلك التاريخ البعيد. لذلك رأيت من الضرورى العودة بالذاكرة إلى جذور الأحداث التى شكلت ملامح المرحلة، والتعرف إلى الرواد الذين لعبوا أدوارا مؤثرة وقادوا حركة المجتمع المصرى إلى العصر الجديد سواء كانوا من الساسة أو المفكرين أو الأدباء، لكى أرسم صورة واضحة للعصر الذى نشأت فيه بطلتنا، فتأثرت وحاولت أن تؤثر قدر ما سمح لها العمر والظروف.

إن ما حدث بمصر منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر حتى ثورة ١٩١٩م، مازال يمتد بآثاره وتأثيراته إلى يومنا هذا، وجذور كل ما نعانيه من علل ثقافية ومشاكل اجتماعية وقضايا سياسية وأزمات اقتصادية زرعت فى بداية القرن التاسع عشر .. أو تحديدا منذ عصر محمد على، جد "الخديوى إسماعيل". ولا يمكن فهم السياق التاريخى الذى نشأت فيه ملك حفنى ناصف دون عودة إلى عهد الخديوى إسماعيل. ففى عصر إسماعيل نبتت كل الأشجار السياسية والثقافية التى مازالت تظلل حياتنا ومازالت ثمارها تغذى المجتمع المصرى إلى يومنا هذا. وفى هذا العصر أيضا بدأت المواجهة بين الطربوش **(العثمانيون وكل ما يمثلونه من قوة غاشمة واستبداد وجهل)**، والقبعة **(الأوروبيون وكل ما جلبوه معهم من "بدع" وأفكار وممارسات)**.

إن الكثيرين منا يعتقدون أن الطربوش زى مصرى أصيل، ولا يعلمون أنه زى "مستورد" مثل القبعة تماما، احتل مكانه فوق رؤوس المصريين بفرمان أصدره السلطان التركى العثمانى محمود الثانى عام ١٨٢٩م، وفرضه قسرا وعنوة على رؤوس الأتراك، وبالتالى كل المسلمين الخاضعين لتركيا، لكى يحررهم من العمائم الضخمة التى كانوا يرتدونها لقرون عديدة. وبالطبع رفض الرجال ذلك الزى الغريب عنهم، وتشبثوا بالعمائم واتهموا السلطان بالكفر والضلال، وأعلن شيخ الإسلام التركى عصيان أمر السلطان قائلا فى عبارة حفظها التاريخ "إن السلطان يستطيع أن يقتلع رأس عبده ولكنه لا يملك أن يدنسها بالكفر" (١). ثم جاء الدور على الطربوش لكى "يخلع" هو الآخر من فوق رؤوس الأتراك بقانون أصدره كمال أتاتورك فى ٢٥ نوفمبر من عام ١٩٢٥م. وكما حدث مع العمامة، رفض الأتراك ذلك القانون الغريب الذى يقضى بخلع الطربوش وأن يرتدى المواطن التركى القبعة الأوروبية، وأن كل من يخالف هذا القانون ستوقع عليه عقوبات مشددة، تصل إلى الإعدام! انتفض علماء الدين والشيوخ غضبا، وطالبوا بالاحتفاظ بالطربوش كرمز للإسلام وروح الأمة، وثارت المظاهرات فى شوارع المدن التركية تهتف بما يعنى "بالروح والدم نفديك يا طربوش". ولكن تم تطبيق حكم الإعدام فعلا على بعض المواطنين ومن هنا .. أرغم الجميع على الإذعان فى النهاية. الطريف أن المصريين الذين خلعوا العمائم من قبل إذعانا

(١) كتاب "رحلة إلى تركيا" للمؤلفة. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م .

لأوامر السلطان، لم يستجيبوا لقانون أتاتورك عام ١٩٢٥م، وظلوا متشبثين بالطربوش، رمز الهيمنة العثمانية على مصر، حتى بعد أن تخلص منه الأتراك، وألغوا الخلافة الإسلامية، وأصبحت تركيا دولة علمانية، وبعد أن تحررت مصر من السيطرة العثمانية وأصبحت تناضل للتخلص من الاحتلال البريطانى، ولم ينقذهم من ذلك الزى الذى لا يتفق مع طقس بلادهم ولا علاقة له بالإسلام من قريب أو بعيد، إلا ثورة يوليو ١٩٥٢م، التى تنبه رجالها إلى ذلك التناقض، فألغوه وألغيت معه الألقاب التركية أيضا (أفندى وبك وباشا) .

وقد يطول بنا الحديث إلى حد ما ولكن عذرى أن شباب اليوم، وبعض شيوخه، مازالت الصورة العامة لتاريخنا المعاصر غير واضحة المعالم فى أذهانهم، وقد يجدى بعض الشىء أن نجلى الذاكرة ونعود معا إلى تأمل بعض جوانب الصورة، وإعادة النظر فى بعض ما يشيع بيننا من معلومات غير مؤكدة نبنى عليها أحكاما قد تكون جائرة أو غير صائبة. وقد يفيد أيضا أن نستعين ببعض الأشخاص الذين قدر لهم أن يلعبوا أدوارا بارزة ومؤثرة **فى الصراع بين الطربوش والقبعة**، فى تلك المرحلة التاريخية، وأن نحاول معا أن نرسم لهم صورة أكثر وعيا وموضوعية، قد يدهشنا أن نجدها فى النهاية تختلف كل الاختلاف عما ألفناه، خاصة عندما نكتشف أن أغلب الذين أثروا فى تاريخنا وغيروا مسار بلادنا كانوا شبابا فى الثلاثينات من أعمارهم، أى أنهم بقدر ما كانوا يملكون الحماس والشجاعة، كانوا يفتقرون إلى الحكمة والتجربة.

ولا أهدف من خلال عرضى هذا إلى طرح رؤية أو التعبير عن موقف بقدر ما أسعى إلى إثارة التساؤلات وحفز الهمم إلى استنباط الحقائق الموضوعية.

إن إعادة النظر فى قصة حياة ملك حفنى ناصف ما هى إلا نظرة فى حياة امرأة مصرية ولدت منذ أكثر من مائة عام ومازالت تعيش بيننا إلى اليوم.

نهاية قرن ..ونهاية عصر

"إن هذه البلاد بلاد السلطان، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل"

محمد كريم ١٧٩٨م(٢)

(٢) تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار "عبد الرحمن الجبرتى. دار الجيل، بيروت. ج٢ صفحة ١٨٠ .

تتميز نهايات القرون بتغييرات جذرية فى حياة البشر تمهد الطريق إلى عصر جديد يختلف كثيرا عما سبق. لا تحدث هذه التغييرات عمدا أو بقرار من جهة ما، وإنما تفرض نفسها فرضا بحكم تراكم الأحداث وتنامى الإحساس العام بأن الإنسان قد تنتهى حياته على الأرض بنهاية القرن. وعادة ما تنهمر فى السنوات والشهور الأخيرة من كل قرن تنبؤات تؤكد ذلك الإحساس، وتعلن أن نهاية العالم ستكون يوم كذا أو كذا، حسبما يتراءى للفلكى أو الزعيم الروحى أو غيرهما. ويصدق الكثيرون تلك التنبؤات على الرغم من تكرار إخفاقها، بل إنه كثيرا ما تنتاب البعض من البسطاء حالات ذعر مبهمة فإذا بهم ينهون حياتهم بأيديهم دون انتظار لأهوال يوم القيامة. حدث هذا بالفعل فى نهاية القرن التاسع عشر وانتشرت شائعات فى العالم الغربى بالذات تؤكد قرب نهاية العالم.

وفى مصر نبه العلماء إلى أن نهاية القرن الميلادى لا تعنى العالم الإسلامى، الذى يحتفل ببدايات القرون العربية التى تبدأ بهجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة وبدء الحضارة الإسلامية، ولا علاقة لها بالتقويم الميلادى. ولكن تلك التنبيهات، وإن وجدت صداها لدى القلة المثقفة فى نهاية القرن التاسع عشر، إلا أنها انهارت أمام فيض المعلومات الذى بدأ يتدفق من العالم الخارجى عبر الصحافة الوليدة، مدعما بأحداث خطيرة على الصعيد السياسى، صحبتها تغيرات اجتماعية جذرية بدت للأغلبية كما لو كانت من "علامات الساعة".

ولكن "علامات الساعة" كانت قد بدأت فعلا فى بداية القرن، أو فى العام الأخير من القرن الثامن عشر عندما فزع المصريون لرؤية ذلك الحشد الهائل من لابسى القبعات "الفرنسيس"؛ جنود وضباط وعلماء الحملة الفرنسية على مصر. ولا بد أن أحاسيس نابليون بونابرت، قائد الحملة، كانت تقترب كثيرا من مشاعر "على بابا"، فى "حكايات ألف ليلة وليلة"، عندما أبصر لأول مرة كنز مغارة اللصوص. واللصوص كانوا المماليك الذين جثموا على أنفاس مصر، ونهبوا ثرواتها واضطهدوا شعبها عدة قرون (منذ ١٢٥٠م)، أما الكنز فكان مصر بثرواتها الطبيعية وآثارها العملاقة وتاريخها التليد. ولقد تولى علماء الحملة تسجيل وتصوير الكنز فى كتابهم الرائع "وصف مصر". أما المماليك فلم يقض عليهم إلا بعد مغادرة الحملة للأراضى المصرية وبواسطة ضابط يونانى شاب يدعى "محمد على" .

لم يكن محمد على أول حاكم يسعى للاستقلال بمصر عن وصاية الحكم العثمانى، بل حاول ذلك من قبله مملوك يدعى "على بك الكبير"، الذى طرد الوالى العثمانى عام ١٧٦٦م، وأعلن استقلال مصر، ثم قاد حملة إلى بلاد الشام والجزيرة العربية وضمهما إلى أملاك مصر، وراح يتطلع للمزيد من الانتصارات فى شمال أفريقيا. واستطاع الباب العالى فى القسطنطينية، (أسطنبول اليوم) بدسائسه ومؤامراته أن يؤلب عليه قائد جيشه محمد بك أبو الدهب الذى أنقلب عليه ثم اغتاله، ومات فى نفس العام!

كانت مصر قبل قدوم الحملة الفرنسية فريسة لفتن ومعارك وحروب أهلية لا تنتهى بين "ميليشيات المماليك"، ولم يكن بوسع

الشعب المصرى إلا أن يثور ويتمرد فى سلسلة من القلاقل التى كانت سرعان ما تقمع بالبطش وسفك الدماء بواسطة أولئك المماليك. سنوات طويلة والشعب المصرى يختزن فى أعماقه كراهية الأجناس التى ينتمى إليها المماليك: (الأتراك والجراكسة والألبان والأرناؤط). سنوات طويلة والشعب المصرى يعيش على أرض أجداده ذليلا مهانا ومقهورا من أولئك الذين يملكون السلاح والمال والسلطة. كانوا مسلمين، ومع ذلك أبعد ما يكونون عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية. وعندما وصل الأسطول الفرنسي إلى شواطئ الإسكندرية تخاذل المماليك ولم يلبوا استغاثة محمد كريم، نائب الإسكندرية، وتركوا المصريين من أهالى الثغر يحاربون من بيت لبيت ومن حارة لحارة، وهم غير مدربين على حمل السلاح. وكان من الطبيعى أن ينهزموا، وأن يتقدم الجيش الفرنسى ليصل إلى القاهرة ويحتلها. كان نابليون بونابرت بمثابة إبليس الذى سيطرد المماليك من الجنة، فخرجوا ليقاوموا الغزو، ليس دفاعا عن مصر بل ذوداً عن مصالحهم وكنوزهم. ولكنهم سرعان ما انهزموا شر هزيمة، ثم فروا من أمامه. وللأسف تناسى الفرنسيون المنتصرون كل مبادئ الثورة الفرنسية؛ الحرية والمساواة والإخاء، وأعملوا فى المصريين قتلا وقمعا، وزادوا إلى ذلك أن دنس جنود الجيش الفرنسى ساحة الجامع الأزهر بخيلهم وأساءوا للمقدسات الإسلامية، وغيروا معالمها، فهدموا الجوامع وحولوا بعضها إلى قلاع، والبعض الآخر قلبوها "خمارات"[٣]!!

(٣) المرجع السابق ج٢ صفحة ٤٣٥ .

لقد كانت للحملة الفرنسية على مصر نتائج إيجابية وأخرى سلبية، ولكن أخطر ما فعله "الفرنساوية"، أنهم تسببوا فى تمرد بعض النساء المصريات من بنات الطبقة العليا، اللاتى بدأن يأتين بتصرفات غريبة عن عادات وسلوكيات المصريين:

"و منها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع "نساءهم" وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن وكان ذلك التداخل أولا مع بعض الاحتشام وخشية عار ومبالغة فى إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر (القاهرة) وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء، والبنات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخلن مع أولئك النساء المأسورات غيرهن من النساء الفواجر" (٤).

كانت الطامة الكبرى، أن الفرنسيين تعدوا على "الحريم" وحرضوا نساء مصر على التبرج والفسوق، وعاملوهن بطريقة

---

(٤) المرجع السابق صفحة ٤٣٦.

مختلفة تماما عما كن يلقينه من معاملة من الرجال المسلمين. وكان الرجال الفرنسيون يتقدمون إلى بنات الأعيان ويطلبوهن للزواج بعد أن يعلنوا إسلامهم، وبعد ذلك يخرجون معهن إلى الشوارع وقد ارتدين الأزياء الفرنسية، ويصحبوهن فى جولات استطلاع أحوال الرعية "وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس مثلما يمر الحاكم ويأمرن وينهين فى الأحكام" (٥).

ومثل الجبرتى، لابد وأن الرجال المصريين أصيبوا بالفزع لتلك الحالة من التمرد التى سادت بين نسائهم، فراحت بعضهن تقلدن النساء الفرنسيات المتبرجات فى اختلاطهن بالرجال ومصاحبتهن لهم فى القوارب التى تتهادى فى النيل أو فى "بركة" الأزبكية، يرقصن ويغنين ويشربن الخمر على مرأى ومسمع من العامة فى النهار، أو فى الليل على ضوء الشموع والفوانيس وقد ارتدين ملابس السهرة المرصعة بالجواهر، عارية الأكتاف التى تظهر مفاتن الجسد. كانت تلك المشاهد تستفز المشاعر الدينية، وتستنفر النعرة العنصرية التى أشاعها المماليك ومن بعدهم العثمانيون، على مدى أربعة قرون، أبعد فيها المصريون عن حضارتهم وعن دينهم، فسهل على قلة منهم أن ينقادوا وراء الأجانب وأن يقلدوهم تقليدا أعمى.

ولكن الشعب المصرى لم يقبل الغزو الفرنسى، وثار مرتين ولم تنقطع عمليات المقاومة الأمر الذى اضطر الفرنسيون على إثرها إلى

(٥) المرجع السابق.

مغادرة البلاد بعد ثلاث سنوات، تاركين وراءهم أسوأ الأثر فى نفوس أبنائها. ولعل "عقدة الخواجة" بدأت من ذلك التاريخ: إنها مزيج من الإعجاب والكراهية، خليط من القبول والرفض، يشطر الشخصية المصرية إلى نصفين، أحدهما لا يرى إلا إيجابيات الحضارة الغربية، والآخر لا يرى إلا عيوبها. و"الخواجة" أو "الخواجات" كما يطلق عليهم الشعب فى عاميته، لفظ محرف لكلمة "خوجة" المشتقة عن الكلمة العربية "حجة"، وكان يقصد بها المعلم، أو المرجع فى علم من العلوم، واستبدلت فيها الحاء بالخاء لأن الأتراك لا يجيدون نطق الأولى. أما الجبرتى، المؤرخ الأساسى لتلك الفترة فقد سماهم "الفرنجة"، وهى كلمة محورة عن لفظ (الفرانسية بالفرنسية والفرنش بالإنجليزية)، أى "الفرنسيين" الذى نستخدمه اليوم.

بعد خروج الفرنسيين من مصر عادت الفتن والمعارك بين المماليك والعثمانيين، وانتهت الأحداث بأن يختار الشعب المصرى لأول مرة من يحكمه. لم يختاروا واحدا من زعمائهم الشعبيين، ولا من رجال الأزهر، ولا من الأعيان أو المماليك، وإنما هؤلاء جميعا وقع اختيارهم على قائد الفرقة الألبانية بالأسطول العثمانى؛ محمد على. كان شابا فى الخامسة والثلاثين من عمره ولكنه كان يملك دهاء وحنكة ابن الخمسين. لم يشعروا بأية غضاضة فى اختيار يونانى أوروبى حاكما عليهم، ذلك أنه كان ينتمى للأسطول العثمانى، ممثل السلطان العثمانى، خليفة المسلمين وحامى ديار الإسلام، وكان المصريون فى ذلك الوقت، وسيظلون إلى عام ١٩١٩م، يصدقون أن

بلادهم مصر، من أملاك السلطان العثمانى. وعندما عرض الإدميرال نلسون قائد الأسطول الإنجليزى على محمد كريم، نائب الإسكندرية، أن يمد الأسطول بالطعام والشراب ..الخ، مقابل أن يصد أسطول "بونابرته" عن الإسكندرية، كانت إجابة محمد كريم بالرفض قائلا للقائد الإنجليزى: **"إن هذه البلاد (مصر) بلاد السطان (العثمانى)، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم إليها سبيل".**

تولى محمد على الحكم فى مايو ١٨٠٥م، ومصر فى أسوأ حالاتها: خزانتها خاوية، ومدنها مهدمة وأمراؤها في حال من الفوضى والتشتت، والجنود متمردون، والتجار مفلسون، والفلاحون هجروا الأرض وهاموا على وجوههم خاصة بعد أن ضرب الطاعون أهل الصعيد، والمماليك يتآمرون ليتخلصوا منه ويعودوا إلى سابق عهدهم من الفساد والبطش وفرض المكوس والإتاوات. وفى يوم الجمعة الموافق أول مارس من عام ١٨١١م دبر محمد على مذبحة القلعة التى تخلص فيها من المماليك منهيا بذلك حكمهم ووجودهم بمصر إلى الأبد. انفرد محمد على بعد ذلك بحكم مصر وسعى إلى تجديد جيشها وتطويرها فى كل الميادين بادئا بإرسال البعثات إلى فرنسا، ولكنه عندما خطا تلك الخطوة الرائعة لم يختر للبعثات إلا شباب الأتراك والجراكسة، أما المصريون جميعا وهم أصحاب البلاد، فلم ينب عنهم سوى ثلاثة شبان، عينهم محمد على أئمة ووعاظاً لأولئك المحظوظين، ولم يخطر بباله أن أحد هؤلاء الثلاثة سوف يصبح أهم المبعوثين على الإطلاق، وعلى يديه ستبدأ

مسيرة التنوير بمصر. إنه رفاعة رافع الطهطاوى، ذلك الشاب النابغة المصرى القادم من أعماق الصعيد، والذى سيكون أول مسلم فى العصر الحديث يكتب مطالبا بتعليم المرأة، والسماح لها بالخروج للعمل، وذلك فى كتاب "المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين" الذى نشره فى نفس العام الذى توفى فيه، كأنما الأقدار شاءت أن ترحمه من رد فعل الطرابيش وأصحابها.

إسماعيل .. الخديوى الأول

" أريد للقناة أن تكون ملكا لمصر، لا مصر ملكا للقناة"

الخديوى إسماعيل

كان إسماعيل شابا فى الثالثة والثلاثين من عمره، يتقن اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية، بدأ تعليمه فى فيينا عاصمة النمسا، ثم انتقل إلى باريس عاصمة فرنسا، فعشقها وبهر بميادينها وحدائقها وقصورها، وتمنى أن تصبح القاهرة، عاصمة بلاده شبيهة بها. والغريب أن إسماعيل تولى عرش مصر بالصدفة، فما كان الحكم سيؤول إليه لولا وفاة أخيه الأكبر أحمد رفعت، ولى العهد فى حادث قطار من الإسكندرية إلى القاهرة.

حكم الخديوى إسماعيل مصر من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩م، وكان تعدادها فى ذلك الوقت ستة ملايين نسمة، وقد بدأ حكمه بداية مبشرة، وأثار إعجاب كل حكام أوروبا حتى أنهم أطلقوا عليه لقب "نابليون الشرق"، ومنحته الملكة فيكتوريا عام ١٨٦٧م وسام "الباث الأعظم"، وفى العام التالى منحته وسام "نجمة الهند" الأعظم.

تقلد إسماعيل الحكم وقد صار للأوروبيين نفوذ كبير فى مصر بعدما قلصوا سلطات حاكم مصر بمقتضى معاهدة لندن ١٨٤٠ م، وحددوا إقامته ومعه الجيش المصرى داخل حدود بلاده. ويمكن أن نقول إن تلك كانت واحدة من المعارك التى أحرزت فيها القبعة الأوروبية انتصارا حاسما على الطربوش العثمانلى. لقد خدع السلطان العثمانى وتصور أن الأوروبيين هرعوا لنجدته ومساندته ضد أطماع محمد على وتطلعاته العسكرية. والواقع أن الأوروبيين ما فرضوا تلك المعاهدة المجحفة على محمد على إلا للشروع فى فرض هيمنتهم على مصر. بعد تلك المعاهدة، التى لعبت فيها إنجلترا

دورا كبيرا، حظى الفرنسيون بمكانة أثيرة لدى محمد على، جد إسماعيل وأبيه إبراهيم، إلا أن الإنجليز سرعان ما عادوا فى عهد عباس حلمى الأول (١٨٤٨-١٨٥٤م) وصاروا مقربين إليه لدرجة أنه استدعى من فرنسا الطلاب المصريين الذين كانوا يتلقون العلم بها موفدين من الحكومة المصرية، وبدأ فى إرسال البعثات إلى إنجلترا. وفى عهد سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣م) عاد الفرنسيون إلى القصر وقد وطد سعيد علاقته بهم، وكان يستشيرهم فى أمور الحكم ويصغى إليهم وبالذات إلى "مسيو فرديناند دليسبس" الذى استطاع أن يحصل على امتياز حفر قناة السويس، وفتح باب الاستدانة من البيوت المالية الأوروبية، وفى عهده أصبح للأجانب نفوذ كبير، وصاروا يتدخلون فى شئون الحكم وينشئون المدارس الأجنبية.

وفى بداية حكمه أعلن الخديوى إسماعيل أنه لن يستمر على سياسة أسلافه، وسوف يقرر لنفسه راتبا منفصلا عن ميزانية مصر لا يخرج عن حدوده. كذلك أعلن عن رغبته فى إلغاء نظام السخرة "المشئومة التى اتبعتها الحكومة دائما فى أعمالها والتى تعد السبب الأهم بل الأوحد الحائل دون بلوغ القطر كله ما هو جدير به من النجاح". وقد سعى إلى تخفيف شروط امتياز قناة السويس التى رآها فادحة. كذلك حاول إسماعيل أن يحرر مصر من السيادة التركية التى فرضتها عليها إنجلترا بمقتضى معاهدة لندن عام ١٨٤٠م وفرمانات ١٨٤١م، وكانت وسيلته إلى ذلك ليست الحرب والمقاومة مثلما فعل جده محمد على، وإنما الرشاوى والهدايا التى راح يبذلها لرجال

الآستانة، وللسلطان نفسه، ووصلت طوال فترة حكمه إلى نحو اثنى عشر مليونا من الجنيهات [٦].

وللأسف لم تتحقق أى من تلك الأحلام والأمانى فقد أغار إسماعيل على خزانة مصر وتركها خاوية، مثقلة بالديون، وباع نصيب مصر من أسهم القناة للإنجليز، وبدلا من أن يحرر مصر من السيادة التركية فتح أبوابها للسيطرة الأوروبية.

ومن سخرية القدر أن أهواء إسماعيل كبدت مصر ثمنا فادحا لتغيير نظام توارث العرش فى مصر. كان نظام التوريث المنصوص عليه فى معاهدة ١٨٤٠م يقضى بأن يؤول العرش إلى أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنا، كالنظام المتبع فى تركيا. ولكن إسماعيل رغب فى أن يؤول عرش مصر إلى أكبر أبنائه: الأمير توفيق، ودفع رشاوى لرجال الباب العالى بلغت ما يوازى ثلاثة ملايين جنيه من خزانة مصر، وبالفعل أصدر السلطان التركى فرمانا يحقق غرض إسماعيل فى ٢٧ مايو ١٨٦٦م. وقد استغل الباب العالى سفه إسماعيل واستعداده التام لتبديد أموال مصر فاشترطت الحكومة التركية على الحكومة المصرية مقابلا لهذا التغيير أن تزيد الجزية التى كانت مصر تدفعها لتركيا سنويا (بمقتضى فرمان ١٨٤١م)، من ٤٠٠ ألف جنيه عثمانى إلى ٧٥٠ ألف جنيه أى الضعف تقريبا. وعلى الرغم من أن الحماية التركية زالت عن مصر عام ١٩١٤م، إلا أن مصر ظلت تتبع السلطان العثمانى، وظلت تدفع تلك الجزية

(٦) عصر إسماعيل عبد الرحمن الرافعى ج ١ صفحة ٧٨ الطبعة الثالثة. دار المعارف.

الباهظة التى لا مبرر لها حتى عام ١٩٥٥م لأن إسماعيل، تلهفا على نيل مرامه، قبل تحويل الجزية إلى دائنى تركيا، وتعهد بأن تدفع الحكومة المصرية أقساط ديونهم السنوية خصما من الجزية حتى سنة ١٩٥٥م [٧]. فهل كان الخديوى توفيق يستحق كل تلك التضحية!

ولم يكتف إسماعيل بذلك بل حصل بعد عام واحد على فرمان آخر فى يونيه ١٨٦٧م يمنحه وخلفاءه لقب خديو (ومعناها بالتركية مليك)، وهو لقب يعليه عن رتبة الباشا (ومعناها بالتركية نعل السلطان)، ولكن لا يصل به إلى مرتبة الملك أو السلطان، وبالطبع لم يصدر ذلك الفرمان دون إهدار المزيد من أموال مصر تحت أقدام الباب العالى والصدر الأعظم. ولكن إنصافا للحق فقد حصلت مصر بمقتضى ذلك الفرمان على بعض الحقوق؛ مثل حق الحكومة المصرية واستقلالها فى إدارة شئونها الداخلية والمالية، وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب داخل البلاد وشئون الضبط للجاليات الأجنبية.

والحديث عن سفه الخديوى إسماعيل وإنفاقه ملايين الجنيهات من أموال الشعب المصرى، قد يطول، لكننا إذا تغاضينا عن الأموال التى بددها فى مجاملة أصدقائه الأوروبيين وإقامة حفلات افتتاح قناة السويس وغير ذلك، فليس بوسعنا أن نغض الطرف عن الأموال التى أريقت لتحقق أطماعه فى بناء إمبراطورية مصرية شاسعة

(٧) المرجع السابق صفحة ٨٠ .

تبسط نفوذ مصر حتى منابع النيل، وتعوض فشل جده محمد على الذى انتهى بمعاهدة ١٨٤٠م. ويكفى أن نتابع الحملات العسكرية التى قادها فى أثناء حكمه لمصر لندرك لماذا أطلق عليه الغربيون ذلك اللقب: "نابليون الشرق"! هل كان المقصود باللقب السخرية من الحاكم المصرى، أم التحذير من تطلعاته التى قد تهدد النفوذ الغربى المتنامى فى أفريقيا والشرق الأوسط، أم كان المقصود به التنبؤ بالمصير التعس الذى ينتظر الخديوى الشاب!.

كم من أموال الخزينة المصرية وأرواح الجنود المصريين أهدرت فى مغامرات غزو السودان واكتشاف بحيرة ألبرت، ورفع العلم المصرى على بحيرة إبراهيم (كايوجا سابقا) واحتلال أوغندا، وامتلاك منطقة البحيرات، وضم الصومال إلى مصر، وفتح الحبشة الذى فشل وكان المسمار الأخير فى نعش الخديوى إسماعيل ؟!.

أما عن الفشل المروع فى غزو الحبشة (١٨٧٥-١٨٧٦م) نتيجة لتهور إسماعيل ورغبته فى التزلف إلى الإنجليز فيقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى:

"تكبدت مصر فى هذه الحرب العقيم خسائر فادحة فى الرجال والمال، وتصدعت هيبتها لما أصابها من الهزائم المتوالية، وكلفت الخزانة المصرية نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات، فى وقت كانت تنوء فيه بالديون الجسيمة، وتعانى أشد ضروب الارتباك المالى.

"وليس يخفى أن هذه الحرب وقعت فى الوقت الذى تحفزت فيه الدول الاستعمارية، وخاصة إنجلترا، للتدخل فى شئون مصر المالية والسياسية، فانهزام الجيش المصرى، فى تلك الحرب، قد ضاعف آمال إنجلترا فى التطلع إلى احتلال مصر،ذلك أنها كانت تحسب حسابا كبيرا لقوة الجيش المصرى، منذ تبينت مكانته وبسالته فى المعارك التى خاض غمارها تحت لواء إبراهيم باشا، ولكن هزيمته فى الحبشة كشفت عن ضعفه، وعن الفوضى الضاربة أطنابها فى نظامه، ففقد المهابة التى كانت له من قبل."(٨).

قام إسماعيل بتلك الغزوات بحجة نشر الحضارة والتقدم فى أفريقيا(!)، إلا أنها لم تكن فى الواقع سوى تحقيق لأحلام الرحالة والمغامرين الأجانب فى اكتشاف القارة البكر؛ أمثال صمويل بيكر وجوردون الانجليزيين وبروت الأمريكى وادوارد شنيتسر الألمانى وغيرهم!! أضف إلى ذلك حملات أخرى جيّشها إسماعيل لنجدة الجيش العثمانى ومساعدته على إخماد ثورات شعوب البلاد المحتلة فى اليمن ثم فى كريت (١٨٦٦م) وفى البلقان (١٨٧٦-١٨٧٧م)، أى بعد هزيمة الجيش المصرى فى الحبشة مباشرة !!.

وإنصافا لذلك الحاكم الذى مازال المثقفون يختلفون حول أمره، فمنهم من يرفعه إلى القمة ومنهم من يدينه ويعزو إليه كل ما تعانيه مصر من متاعب اقتصادية إلى يومنا هذا، لابد أن نشير إلى إنجازاته العديدة التى أعطت الفرصة لشعب مصر كى يلحق بركب الحضارة ويتذوق طعم التقدم العلمى الذى وصلت إليه البشرية فى

(٨) المرجع السابق صفحة ١٥٢

الربع الأخير من القرن التاسع عشر. كان عباس وسعيد قد ألغيا معظم المدارس التى أنشأها والدهما محمد على، ولكن إسماعيل أعاد ديوان المعارف ورفع **ميزانية التعليم إلى ٧٥٠٠٠ جنيه فى أوائل عهده**، وأعاد إيفاد البعثات إلى أوروبا، كما افتتح العديد من المدارس الابتدائية والثانوية المتوسطة والعليا والخاصة مثل مدرسة (الرى والعمارة) المهندسخانة ١٨٦٦م، ومدرسة الحقوق (الإدارة والألسن) ١٨٦٨م، ومدرسة الفنون والصنائع ١٨٦٨م، ومدرسة دار العلوم ١٨٧٢م. **وفى عهده افتتحت أول مدرسة للبنات: السيوفية ١٨٧٣م (السنية)**، وكان التعليم بها مجانا بالإضافة إلى الإنفاق على مأكل التلميذات وملبسهن. وقد التحقت مائتا تلميذة فى العام الدراسى الأول ثم تضاعف العدد فى العام التالى.

وفى عهد إسماعيل أنشأ على مبارك دار الكتب (١٨٧٠م)، وتأسست العديد من الصحف العلمية والسياسية وافتتحت المسارح. وكان إسماعيل أول من أقام التماثيل فى شوارع القاهرة بعد أن أعاد تنظيمها ورصفها، وحول مسار النيل إلى وسط القاهرة، وبنى كوبرى قصر النيل وكوبرى الجلاء ليصلا ما بين الجيزة والقاهرة، وأنشأ الطريق الموصل بين القاهرة وأهرامات الجيزة وأقام حدائق الأورمان والأزبكية. وفى عهده بُني ثلاثون قصرا فخما وأُثثوا بأفخر الرياش، ونُقل مقر الحاكم من قصر القبة إلى قصر عابدين. لكن تظل أهم إنجازاته التاريخية إنشاؤه أول مجلس نظار (وزراء) مصرى (٢٨ أغسطس ١٨٧٨م)، وتخويله الحكم، كذلك إنشاء أول

مجلس شورى النواب (٢٥ نوفمبر ١٨٦٦م) وأول مشروع دستور مصرى (١٧ مايو ١٨٧٩م).

ولا عجب فى أن الخديوى إسماعيل أصبح حاكما محبوبا من الشعب المصرى، بسبب تلك الإنجازات غير المسبوقة. والطريف أنه كان مبذرا فى عواطفه كما كان مبددا للمال، فقد تزوج من عام ١٨٤٩م إلى ١٨٧٤م ١٤ زوجة (ومستولدة: أى مما ملكت يداه)، أنجب منهن ١٦ ولدا وبنتا، حكم مصر منهم ثلاثة هم الخديوى توفيق والسلطان حسين كامل والملك فؤاد [٩]. كان الخديوى توفيق هو أكبر أبنائه، أنجبه من مستولدة تدعى جلفدان هانم، اضطر أن يتزوجها عندما رفض السلطان عبد العزيز أن يوقع فرمان تعديل نظام الحكم بمصر ما لم تتحول أم ولى العهد من مستولدة إلى زوجة (وذلك حسب الشرع الإسلامى). الطريف أن جلفدان هانم رفضت أن تصطحب إسماعيل فى منفاه، وظلت بمصر إلى جوار ابنها الخديوى الجديد. وقد اضطر الخديوى إسماعيل إلى التخلى عن أغلب زوجاته بإهدائهن إلى أمراء البيت المالك قبل نفيه من مصر حتى لا يتكبد مصاريف إعاشتهن فى الخارج. وبعد إسماعيل انتهى عصر الحريم رسميا من القصور الملكية فى مصر حيث تمت تصفيته بعد شهور قليلة من تولى توفيق الحكم، واكتفى كل ملوكها بعده بزوجة واحدة.

(٩) كتاب الهلال نوفمبر ١٩٩٧م .

نهاية حلم الديمقراطية

كانت الأسرة الحاكمة لمصر تمارس الحكم تحت وصاية الأتراك العثمانيين، وقد ظلوا جميعا على ولائهم للسلطان في أسطنبول، الذى كان أئمة المساجد فى مصر يدعون له كل جمعة، وتردد جموع المصلين الدعوات له باعتباره خليفة رسول الله (ﷺ) والمهيمن على، وحامى حمى العالم الإسلامى كله. ولكن الضعف الذى اعترى السلاطين العثمانيين بعد تراكم فشلهم العسكرى فى البلقان، مع صعود نجم الخديوى إسماعيل، حاكم مصر، وعلاقاته الطيبة بالحكام الأوروبيين المعاصرين له، شجعه على الحلم باستقلال مصر، حتى بلغ به الأمر تجاهل دعوة السلطان التركى إلى احتفالات افتتاح قناة السويس الأسطورية، وأقام الحفلات برئاسته ودعا إليها ملوك أوروبا وأمرائها. وكان يعتزم إعلان استقلال مصر خلال حفلات افتتاح القناة لولا عدم حماس الحكام الأوروبيين. ونتيجة للبذخ الشديد وعشق الخديوى إسماعيل للمظاهر وإصراره على تقليد الغرب فى كل شيء، بل والتفوق عليهم فى الاهتمام بتجميل القاهرة وتطويرها حتى صارت واحدة من أجمل مدن العالم فى نهاية القرن التاسع عشر، انهارت ميزانية مصر ولجأ الخديوى إسماعيل للمرابين اليهود فى فرنسا الذين تكالبوا عليه ونهبوا خزانة مصر وأدوا إلى إفلاسها. ولما عجزت خزانة مصر عن تسديد ديون إسماعيل فرط فى نصيب مصر من أسهم قناة السويس وباعها إلى الحكومة البريطانية فى نوفمبر ١٨٧٥م، ناسيا أنه قال فى بداية حكمه "**إنى أريد أن تكون القناة ملكا لمصر لا أن تكون مصر ملكا للقناة**". وكان ذلك التصرف

الأهوج هو الخطوة الأولى نحو احتلال بريطانيا لمصر. وبالفعل تم لها ذلك قبل أن تنقضى سبع سنوات من حيازتها للأسهم وبحجة حماية البنوك والمرابين الغربيين بدأ التدخل السافر فى حكم مصر ووصل الأمر إلى تعيين وزيرين أوروبيين فى الحكومة المصرية. إلا أن شريف باشا الذى كان يجب أن يكون أول رئيس وزراء مصرى، اعتذر عن قبول التكليف بالوزارة احتجاجا على قبول إسماعيل الرقابة الثنائية: أى وجود وزيرين أجنبيين للمالية والأشغال بالوزارة، وقبل نوبار باشا المهمة.

وقد وقف هذان الوزيران حجر عثرة فى طريق تأسيس الديموقراطية فى مصر، والتى كانت على وشك أن تولد فى عهد إسماعيل. ووصل الأمر إلى إصرارهما على حل مجلس شورى النواب مع عدم تحديد موعد لإجراء انتخابات جديدة. وهنا ثارت كرامة المصريين فاجتمع نفر منهم وعقدوا "جمعية وطنية" تضم صفوة كبراء البلاد وأصحاب الرأى فيها وقدموا للخديوى اللائحة الوطنية مطالبين فيها بتأليف وزارة مستقلة تخلو من الوزيرين الأجنبيين وتكون مسئولة أمام مجلس النواب، كذلك قدموا له تسوية مالية للديون بضمانتهم وكفالتهم. وقد وقع على تلك اللائحة ستون عضوا من أعضاء مجلس شورى النواب، وستون من العلماء والهيئات الدينية، وفى مقدمتهم شيخ الإسلام، وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود و٤٢ من الأعيان والتجار، و٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين، و٩٣ من الضباط. واستجاب الخديوى إلى مطالبهم وأقر اللائحة. واستقال الأمير توفيق الذى كان والده قد عهد

إليه برئاسة الوزارة وأبلغ إسماعيل وكلاء الدول بعزمه على تشكيل وزارة برئاسة شريف باشا. وقد ابتهج الشعب المصرى لتلك الخطوات الوطنية من جانب الخديوى إسماعيل وتوجهوا إليه فى سراى عابدين لتأييده وشكره وأقيمت الحفلات ابتهاجا بالعهد الجديد وأقام بعض الأعيان الزينات أمام منازلهم. أما الدول الأوروبية فقد قابلت تلك الإجراءات بالاستياء والسخط وعملت كل من فرنسا وإنجلترا على خلع الخديوى إسماعيل عن عرش مصر، ولم تشفع الملايين التى أهدرها الخديوى فى التقرب إلى السلطان التركى وحاشيته، فتخلى عنه وأصدر "إرادة" (فرمانا) بخلع إسماعيل وتنصيب ابنه توفيق على عرش مصر .

فماذا كان تأثير عزل إسماعيل على مصر؟ يجيب على هذا التساؤل "ألبرت. ا. فارمن" قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر الذى عاصر حكم إسماعيل:

"كان المسيحيون طوال عهد إسماعيل باشا يتمتعون بكافة الحقوق والحرية والحياة شأنهم شأن المسلمين تماما وكان الأجنبى مهما كانت جنسيته أو ديانته يستطيع أن يجوب خلال أراضيه، من البحر (المتوسط) إلى أواسط أفريقيا فى أمان كما يجوب أنحاء أية دولة فى العالم، ولو أنه استمر فى الحكم دون أن تحد من سلطاته لاستمرت الأحوال نفسها ولما حدثت ثورات ١٨٨١ و١٨٨٢م، ولا حكم عرابى باشا، ولما قذفت الإسكندرية بالقنابل وخربت وأحرقت، ولما حدث كل ما تمخض عن ذلك من فظائع، ولما اضطرت الحكومة المصرية أن تدفع تعويضا قدره عشرون مليون دولار أضيفت إلى

الدين الوطنى. ولما كانت هناك معركة التل التى ذبح فيها الأهالى العزل من السلاح، ولما نجحت ثورة المهدى، ولما هزم وقتل هكس باشا فى كردفان مع عشرة آلاف جندى مصرى، ولما توالت الهزائم المنكرة والمذابح فى سواكن، ولما أرسلت الحملة المشئومة إلى أعالى النيل لإنقاذ جوردون باشا دون ضرورة، ولما فقدت مصر السودان وغيرها من الولايات الواقعة فى أواسط أفريقيا، ولما أرسلت حملة من الجنود المصريين والإنجليز تكلفت مصاريف باهظة تحملتها الخزينة المصرية لاسترداد الأقاليم الضائعة." (١٠)

هذه الشهادة تعطى صورة لأحداث العصر التى تواكبت نتيجة للتدخل الأجنبى فى مصر، واستبداد حكامها وانفرادهم بالقرارات، وغباء وتآمر السلاطين الأتراك. والنتيجة أن الشعب المصرى جاء عليه القرن العشرون وهو فى حالة انكسار قومى يفوق فى ضراوته ما عاصرناه نحن على إثر هزيمة الجيش المصرى عام ١٩٦٧م (النكسة).

خلع إسماعيل

بعد منتصف ليلة الرابع والعشرين من شهر يونية ١٨٧٩م حدث هرج ومرج فى قصر الخديوي إسماعيل، إذ إن قناصل إنجلترا وألمانيا وفرنسا لم يطيقوا صبرا واندفعوا إلى قصر الخديوى ليبلغوه

(١٠) مصر وكيف غدر بها تأليف ألبرت فارمن قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية بمصر من إبريل ١٨٧٦م – صفحة٢٦٤.

بأخبار وردت من الآستانة تفيد بأن السلطان العثمانى قرر عزله وتولية أخيه الأمير عبد الحليم مكانه. وكان رئيس النظار (الوزراء) فى ذلك الوقت شريف باشا قد حضر بصحبة القناصل، فقبل الخديوى مقابلتهم بعد تردد. وطلب القناصل من الخديوى التنازل عن العرش، فأبى وثار وكان ما يزال لديه الأمل فى أن يؤازره السلطان العثمانى. ولكن لم يمض يومان قبل أن تصل "الإرادة" السلطانية بعزله، ويتيقن إذعان الباب العالى لمطلب القناصل الأوروبية. وصلت برقية فى ٢٦ يونيه ١٨٧٩م تخبر إسماعيل بقرار خلعه وتنصيب ابنه توفيق مكانه. وفى نفس اليوم أقيمت حفلة تولية الخديوى توفيق باشا فى سراى القلعة، واستقبل الوفود المهنئة.

ثلاثة أيام أمضاها إسماعيل فى الاستعداد للسفر، وجمع كل ما استطاع من المال والمجوهرات والتحف الثمينة من القصور الخديوية، ونقلها إلى اليخت "المحروسة"، نفس الباخرة التى أقلته – من قبل – العديد من المرات إلى سواحل أوروبا وهو فى قمة المجد. ولأن السلطان العثمانى رفض استقبال الخديوى فى الآستانة فقد غادر إسماعيل مصر يوم ٣٠ يونيو ١٨٧٩م متجها من الإسكندرية إلى نابولى، نفس المدينة التى استقبلت حفيده فاروق فى السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢م. ولكنه لم ييأس وظل يرسل التماسا وراء الآخر من منفاه فى أوروبا، حتى تعطف السلطان عبد الحميد الثانى أخيرا ووافق على حضوره للآستانة التى انتقل إليها عام ١٨٨٨م للإقامة

بقصر على البوسفور، وظل بها إلى أن وافته المنية فى ٢ مارس ١٨٩٥م، فنقل جثمانه إلى مصر ودفن بمسجد الرفاعى.

خسرت مصر حاكما محبوبا كان يمكن أن يقفز بها خطوات عديدة تضعها فى صدارة الأمم. ومرة أخرى نقرأ رأى القنصل الأمريكى فى إسماعيل:

"كان إسماعيل باشا فى كثير من الوجوه رجلا جديرا بالاعتبار، ولقد فاق غيره من حكام الشرق فى النشاط والمقدرة الإدارية والذكاء، فعلى يده تقدمت مصر فى مضمار المدنية الحديثة إبان الست عشرة سنة من حكمه، أكثر مما تقدمت فى الخمسمائة سنة السابقة على حكمه، ووصلت مصر فى رقيها إلى درجة تفوق ما وصلت إليه الإمبراطورية العثمانية منذ أيام عثمان من حيث تقدم التعليم والمحافظة على الآثار، وفى الاكتشافات الواسعة العلمية والجغرافية، وفى إنشاء السكك الحديدية، وخطوط البريد وفى ملاحة السفن، واستصلاح الأراضى الصحراوية"(١١) .

توفيق .. صديق الإنجليز

ولدت ملك حفنى ناصف بعد أربع سنوات من احتلال الجيش البريطانى أرض مصر الطاهرة، وفى عصر الخديوى توفيق الذى فتح أبواب مصر لهم. فمما لاشك فيه أن خلع حاكم مصر (إسماعيل باشا) ومغادرته البلاد وفق (إرادة!) أى قرار عثمانى، ونتيجة

(١١) المرجع السابق.

للضغوط الأوروبية، فى نهاية شهر يونيو عام ١٨٧٩م، قد أثارا الحزن والصدمة فى نفوس المصريين جميعا، خاصة الأعيان الذين حاول الكثيرون منهم الوقوف إلى جانبه وأعلنوا استعدادهم لدفع أقساط الديون الأجنبية كاملة من أموالهم، ولكن الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا كانت تتأهب لالتهام الوليمة الدسمة، فتجاهلوا مطالبهم تماما.

وكما رغب إسماعيل، ودفع غاليا من أموال مصر لتحقيق رغبته، تلاه على العرش أكبر أبنائه توفيق، وللأسف اتسم الخديوى توفيق ابن إسماعيل طوال عهده (١٨٧٩-١٨٩٢م) بالخضوع التام لسيطرة الإنجليز وبالتخبط فى القرارات. لقد رفض إعادة مجلس شورى النواب مما حدا برئيس النظار (الوزراء) شريف باشا إلى تقديم استقالته والاتفاق مع الوزراء على ألا يحكموا البلاد بلا دستور. ونقض توفيق مرسوم ١٨ أغسطس ١٨٧٨م الذى يقضى بأن يرأس مجلس النظار واحد منهم، فعين نفسه رئيسا للمجلس. ثم عاد فعين رياض باشا رئيسا للنظار مع الاحتفاظ لنفسه بحق حضور جلسات المجلس. وبعد أن قرر ألا يعين وزيرين أوروبيين فى تلك الوزارة أعاد نظام الرقابة الثنائية الذى يعطى للرقيبين حقوقا أكثر مما للوزراء.

حاول الخديوى توفيق فى بداية عهده استمالة المصريين إليه، فأصدرت وزارة رياض باشا عدة قرارات لرفع الروح المعنوية للشعب منها إلغاء السخرة وإبطال الضرب بالكرباج فى تحصيل الضرائب، وتقسيط الأموال الأميرية، وتوزيع مياه الرى بالعدل على المزارعين، وإلغاء ضريبة الملح والكثير من الضرائب التى كان

إسماعيل قد فرضها. كذلك أعاد الخديوى توفيق مجانية التعليم (لبعض الوقت)، وأضاف إليها إطعام وكساء التلاميذ ومنحهم مصروفات شهرية. وفى ١٦ يونية ١٨٨٠م صدر مرسوم خديوى باعتبار عدد كبير من القصور التى بناها أبوه إسماعيل ملكا للدولة، ومنها سراى عابدين ومطبعة بولاق وحمامات حلوان وحديقة النزهة بالإسكندرية. وعلى الرغم من تلك القرارات فقد عم السخط بين الناس وبدأت ملامح المقاومة الوطنية بإنشاء جمعية سرية، تحت اسم "الحزب الوطنى"، تتزعمها عدد من شباب الساسة المصريين. ولعبت الصحافة التى نشأت فى عهد إسماعيل دورا كبيرا فى المعارضة والمطالبة بالدستور والاحتجاج على التدخل الأجنبى مما حدا بالحكومة إلى تعطيل عدد كبير من الصحف.

ولا بد أن نتفهم عقلية الخديوى الشاب الذى وصل إلى العرش بأمر الإنجليز، وعاصر صراع أبيه الخديوى السابق إسماعيل، ضدهم وفشل الأب فشلا ذريعا انتهى بخلعه عن عرش مصر ونفيه خارج البلاد، وتعيين ابنه مكانه. أضف إلى ذلك أن توفيق كان حانقا على عرابى الذى كان واحدا من رجاله، ولكنه أحرجه وأظهر ضعفه وخضوعه للإنجليز وألب الشعب عليه.

إرهاصات الحركة النسائية المصرية

الجدير بالذكر أن حكم توفيق وقراراته لقيا معارضة شديدة من نساء مصر، وفى عهده بدأت أولى إرهاصات الحركة النسائية أثناء ثورة عرابى، بين أميرات البيت المالك اللاتى تعاطفن مع عرابى، البطل الشعبى، وأيدن مبادئه حتى النهاية. وقد سجل محامى عرابى،

مستر برودلى، هذا فى كتابه الذى وصف فيه تجربة دفاعه عن عرابى، حيث كتب: "ما من بلد يبدو فيه نفوذ المرأة واضحا جليا، كما يبدو فى مصر". وقد وصف برودلى موقف فتيات مصر وبنات الأسر الكبيرة عندما هاجم الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية وكيف أنهن جمعن تبرعات كبيرة، كما ألفن فرقة لتحضير الضمادات ولوازم الجرحى لإرسالها إلى الأطباء الذين كانوا يعملون فى الخطوط الأمامية فى معركة كفر الدوار. وحكى محامى عرابى فى كتابه حكاية تدل على الشجاعة الفائقة لنساء مصر فى ذلك الزمان، ووعيهن السياسى وعمق وطنيتهن وقدرتهن على المجابهة والصمود.

كتب برودلى :

".. هذا ولقد كان تأييد النساء المحجبات من الحريم هو ضربة قاضية على حجج الذين كانوا ينكرون على ثورة عرابى إنها ثورة شعبية شاملة، وحدث بعد ما انتهت محاكمة عرابى ببضعة أيام، وكنت قد بقيت فى القاهرة فى فندق شبرد، أن جاءنى ذات يوم رسول خاص فى زيارة غامضة وقال لى إن معه رسالة من القاهرة لى وللمستر "تابيير" مساعدى فى الدفاع وقد كان نص الخطاب:

"إلى المستر برودلى المحامى: بعد تحياتى واحترامى وشكرى لشخصك الشريف فإننى أنتهز الفرصة لأعبر لك عن امتنان نساء وشعب مصر كله، ونحن والمصريون جميعا نشعر بالفرح والعرفان الجميل لما أديته من خدمات، ولأنك دافعت عن قضية العدالة والإنسانية نحن المصريات والمصريين سنصلى وندعو الله أن يحقق

لك السعادة والتوفيق، كما ندعو الله أن يلطف بهذا البلد، وإنك بدفاعك عن أبناء هذا البلد الذين ثاروا من أجله، والذين لم يريدوا له سوى الخير قد جعلنا نعز إنجلترا، ونرى فيها أحرارا يساعدوننا في محنتنا، وإننا لنشكر المستر بلنت[١٢] شكرا عميقا على جميله نحونا، وإن أنباء ما فعله لتثلج صدور المصريات والمصريين جميعا، ولهذا فمهما فعلنا فلن نستطيع أن نعبر لك عن شكرنا.

(فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٢م الإمضاء مصرية)

"وبعد بضعة أيام جاءتنى زيارة مماثلة، ولكنها هذه المرة كانت من فتاة جميلة متحمسة. جاءتنى وقالت لى: إنها تريد أن تشرح لى حقيقة مشاعر نساء مصر تجاه الأحداث الأخيرة، وكانت تتدفق حماسا، وهى تروى لى أن كل سيدة فى مصر كانت تعطف سرا ومن أول لحظة على عرابى "لأننا أدركنا أنه لا يريد سوى خير مصر، ولقد اعتقدنا حينا أن توفيق نفسه يؤيد عرابى ولهذا أحببناه، ولكن حينما وجدنا أنه يكيد له ويخون مصر كرهناه بشدة. ومن يومها حاول توفيق أن يستميل عطف السيدات وبنات الأسر عن طريق أمه وزوجته بلا جدوى. بل ولقد كرهته الأميرات. وذهبت إليه إحداهن وقالت فى مواجهته رأيها فيه بصراحة وفى تصرفاته السياسية كذلك. وبعدها بقليل رحل توفيق إلى الإسكندرية. وسمعنا يومئذ أنه انحاز نهائيا للإنجليز. وبدأت الاجتماعات النسائية فى

(١٢) شاعر إنجليزى كان متعاطفاً مع المصريين وهو الذى أقنع برودلى وزميلاً له بالدفاع عن عرابى.

الحريم، وصممت كل المجتمعات على عدم الاعتراف إلا بعرابى كزعيم شعبى يدافع عن البلاد.

"لقد ساهمت كل سيدة وفتاة فى نفقات الحرب حسب مواردها، وكنا نجمع التبرعات بانتظام فنشتغل بجد طوال اليوم فى إعداد ما يلزم الجنود من أدوية وأغطية وضمادات. وظللنا نعمل بحماس ونلهب الشعور مع عرابى، وضد توفيق حتى كان ذات يوم ..إذ جاء عرابى إلى القاهرة وسرت إشاعة قوية بأنه قد جاء معه برأس "ويسلى" والأميرال "سيمور"، وطغى علينا الفرح ولكن ما لبثنا أن عرفنا الحقيقة المرة وأن العكس هو ما حدث. وأن عرابى قد منى بهزيمة ساحقة، واستولى علينا ذهول وحزن أليم، واستغرقنا فى بكاء مستمر، حتى بلغت حالتنا مبلغ اليأس الأليم.. وحينما عاد توفيق منتصرا مزهوا إلى القاهرة توقعنا أن يصب العذاب والعنت على نصيرات عرابى .. وبالفعل ما إن وصل حتى أرسل إلى الفتاة التى كانت قد أرسلت خطابها إلى عرابى وأعلن أنه سيذيقها العذاب المر، لولا أن تدخلت أمها، وأعلنت بجرأة أنها هى التى كتبت الخطاب ووقعته باسم ابنتها. وحينما خرجت الأم وابنتها من عند توفيق التقت بالأغا الذى أبلغ الخديوى توفيق بقصة الخطاب، ووشى إليه فأمسكت الأم بكرسى وضربته على رأسه تريد أن تفتك به.

"أمر توفيق يجمعنا كلنا بعد ما دله جواسيسه علينا، وإذا بأمه تنهال علينا بالسباب، وأعلنت فى تشفٍ أن بطلنا عرابى سيسلمه الإنجليز لتوفيق لكى يعدمه ببطء على الخازوقَ، ثم قرأت علينا قائمة بأسماء زعيمات حركتنا وأعلنت أنه قد تقرر إعدامهن. وسرى فينا

الرعب إلى أن تحققنا بعد بضعة أيام أنه لا توفيق ولا أمه يستطيعان عمل أى شيء بغير موافقة الإنجليز أسيادهم. وعندما أعلن نفى عرابى لبست أم توفيق الحداد وسرى الوجوم فى السراى."

"واختتمت الفتاة حديثها قائلة: **"أحب أن أقرر لك كى تعلن للعالم كله أنه مادام توفيق يحكم مصر ،فلن يكون هناك سلام لكم ولا لنا ولا لمصر كلها. لقد كان بإمكان توفيق أن يتزعم الحركة الوطنية، وأن يكتسب ثقة الشعب المصرى ولكنه طرح هذه الفرصة وأخذ يناور لبريطانيا."**

"ولقد قابلت توفيق بعدئذ، وفى حديث طويل له قال لى إنه كان يستطيع أن يعيش فى سلام لولا شيئان هما أشد ما فى مصر خطرا عليه، وهما: أقلام الصحفيين، وألسنة النساء"(١٣) .

فى رأيى أن هذه الرواية فى غاية الأهمية لأنها شهادة مواطن إنجليزى أملى عليه ضميره أن يقف إلى جانب ضابط مصرى تمرد على حاكم البلاد الخائن وحكومته، ورفض الاحتلال البريطانى لمصر ووجه سلاحه ضد ضباط هذا الاحتلال وجنوده. ضابط مصرى شجاع انهزم لعوامل خارجة عن إرادته، ولكنه بطل بكل المقاييس.

وإذا حللنا هذه الرواية بما فيها من رسائل وتفاصيل سنخرج بعدة دلالات هامة، وهى:

(13) Broadley, A.M.: How We Defended Orabi. Chapman and Hall, limited, London,1884. ed.1948. p 374 .

* تستطيع النساء فى أى عصر أن يكون لهن رأى وموقف تعبرن عنه بشجاعة إذا ما امتلكن أدوات التحرر من علم ووعى وكرامة.

* نساء مصر لم تمنعهن الحياة داخل الحريم من أن يؤسسن حركة منظمة لها زعيمات أغلبهن من الشابات، ولم تنقصهن شجاعة مواجهة الخديوى ومعارضته وجها لوجه.

* الحركة النسائية داخل قصر الخديوى الخائن، والمناهضة لسياساته، كانت تتشكل من أغلبية ساحقة، ولم يبق مع توفيق سوى أمه وزوجته وذلك لاعتبارات شخصية واضحة.

* خططت زعيمات الحركة بكل ذكاء سياستهن التى لا تقل وعيا وتنظيما عن أى حركة نضالية معاصرة: جمع التبرعات. تكوين فرقة للخدمات. الاتصال بالمناضلين على جبهة القتال. إعلام الجهات المختلفة بآرائهن والإعلان عن موقفهن الواضح الصريح إلى جانب البطل الشعبى الذى تأكدن أنه لا يريد إلا الخير لمصر. عدم اهتزاز الموقف إزاء تهديدات الخديوى وأمه. عدم التراجع عنه حتى بعد هزيمة عرابى ونفيه من البلاد .

وهكذا سطرت نساء مصر صفحة مجيدة فى تاريخها الحديث، وبدأن نضالهن ضد السيطرة والقهر فى اللحظة الحاسمة وفى الاتجاه السليم.

عرابى.. ثائر بلا ثورة..

"لقد وقعت أخطاء بغير شك فى مقدمتها عدم تفهم الثورة العرابية على حقيقتها. فهى أكثر من عصيان عسكرى، ونهضة وطنية مخلصة على حد ما، وليس صحيحاً أنها فى أصلها موجهه ضد الأوروبيين وتدخلهم فى مصر، رغم أن شعور العداء لهم ملك على زعمائها تفكيرهم"

لورد كرومر

لاشك أن حركة عرابى، الضابط المصرى القادم من أعماق الريف، كان لها تأثير كبير على تطور المبارزة حامية الوطيس على أرض مصر بين أصحاب القبعة وأصحاب الطربوش. ولا شك أن أصداء تلك الحرب السجال التى دارت بينهما كانت تتردد فى بيت المثقف المصرى حفنى ناصف وتؤثر تأثيرا مباشــرا علــى عقل ابنته ملك وتفكيرها.

ولد أحمد عرابى فى ٣١ مارس عام ١٨٤١م، وعندما أتم الثامنة من عمره أرسله أبوه إلى الجامع الأزهر (١٨٤٩م) لطلب العلم فمكث به أربع سنوات ثم عاد إلى بلده. لم يكن عرابى ضابطا بالمعنى الصحيح وإنما التحق نفرا بالجيش المصرى فى عهد عباس الأول بعد أن لحقته القرعة العسكرية فى ٦ ديسمبر ١٨٥٤م، ونظرا لإجادته القراءة والكتابة، نتيجة للسنوات الأربع التى أمضاها بالأزهر، فقد عين كاتبا بدرجة بلوك أمين. وفى عهد سعيد رقى إلى مرتبة الضباط برتبة ملازم من تحت السلاح عام ١٨٥٨م، وكان فى السابعة عشرة من عمره، ثم رقى إلى رتبة يوزباشى ثم إلى رتبة صاغ عام ١٨٥٩م ثم إلى رتبة بكباشى عام ١٨٦٠ وفى نفس العام رقى إلى رتبة قائمقام. وهذا يدل على أنه كان مقربا من سعيد باشا. أما فى عهد إسماعيل فقد فصل عرابى من الجيش المصرى وظل مبعدا عنه لمدة ثلاث سنوات، وظل فى رتبة قائمقام طوال عهد إسماعيل لم يرق مرة واحدة. وفى عهد الخديوى توفيق عاد عرابى مقربا من الخديوى الذى جعله ضمن ياورانه ثم رقاه إلى رتبة أميرالاى فى يونية ١٨٧٩م .

وعندما تزعم عرابى الثورة، كان فى الأربعين من عمره، ولم تكن لديه خبرة حربية كافية إذ إنه لم يشترك فى أية حروب فيما عدا حرب الحبشة التى كان دوره فيها إداريا. ويرى المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى أن عرابى لم يكن مثقفا ولا ذا خبرة سياسية، وإنما كان خطيبا زلقا وذا شخصية قوية استطاع أن يجمع الضباط حوله واعترفوا له بالزعامة. وعلى الرغم من ذلك لدينا شهادة القنصل الأمريكى الذى يقول عن عرابى:

"كان عرابى معبود الشعب. وقلما كان يوجد وطنى محبوب لدى الجمهور المصرى كعرابى باشا. وكان ظهوره فى الإسكندرية (بعد وقوع المذبحة) مناسبة لاحتفاء شعبى لم يسبق له مثيل بين أفراد هذا الشعب وقد جعله هذا موضع سخط هؤلاء الذين كانوا يملون على الحكومة سياساتها. وكثيرا ما تساعد المطامع الشخصية إلى درجة ما على إثارة الحركات الوطنية. ولكن الحقائق أثبتت فيما بعد أن ما من وطنى كان بعيدا عن الدوافع الشخصية مثل عرابى. والواقع أنه بعد التحقيق الدقيق لم يمكن العثور على أى دافع لديه سوى الرغبة الجامحة فى التحرر من سيطرة أجنبية غاشمة" (١٤).

قاد أحمد عرابى، الفلاح المصرى الثورة ضد أمرين: التمييز العنصرى الصارخ فى الجيش المصرى لصالح الضباط غير المصريين من أتراك وجراكسة وأرمن وألبان وأرناؤط... الخ، واستبداد الخديوى توفيق واستسلامه للتدخل الأوروبى فى سياسة

(١٤) "مصر وكيف غدر بها" ألبرت فارمن صفحة ٢٨٧ .

مصر. وهذه الثورة لم تبدأ من فراغ وإنما كانت حلقة فى سلسلة من المواجهات والتحرشات التى بدأت بين الأجانب والمصريين. ففى عصر الخديوى إسماعيل فى ١٨ فبراير ١٨٧٩م قام الضباط المصريون بحركة تمرد، أثناء وزارة نوبار باشا التى فرضت الدول الأوروبية على الخديوى إسماعيل أن يشترك بها وزيران أوروبيان. وقد اشترك فى هذا "الهياج" ستمائة ضابط يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية ويشاركهم أربعة من أعضاء مجلس شورى النواب، واتجهوا جميعا إلى وزارة المالية التى كان يرأسها وزير إنجليزى، وبالقرب من وزارة الخارجية لمحوا نوبار باشا فهاجموه واعتدوا عليه بالضرب، نفس ما فعلوه مع وزير المالية الإنجليزى ثم رياض باشا وزير الحربية، واحتلوا سراى الوزارة وحبسوا داخلها الوزراء الثلاثة. ولكن الفرق كبير بين الخديوى توفيق، وموقف أبيه الخديوى إسماعيل، الذى كان متبرما بتدخل الأوروبيين فى سياسته، وكان محبوبا من ضباطه فما أن اتصل به قناصل الدول حتى حضر على الفور وهدأ الضباط وبعد شهر واحد رضخ الخديوى إسماعيل لمطالب الشعب المصرى، فأقال وزارة نوبار وأوكل الوزارة الجديدة إلى وطنى محبوب هو شريف باشا وقبل اللائحة الوطنية (مشروع الدستور). ابتهج الناس وأقام بعضهم الزينات أمام منازلهم، وأقيمت الحفلات والأفراح والمآدب. وكانت شعبية إسماعيل السبب وراء إقالته بعد ذلك بشهرين ونصف فى ٣٠ يونية ١٨٧٩م.

فى العام التالى (١٨٨٠م) انتهز الجراكسة والأتراك فرصة ضعف الخديوى الجديد وواصلوا سياسة ازدراء الشعب المصرى

وحرمانه من أبسط وأشرف واجباته، أن يقود جيش بلاده، فأصدر وزير الحربية رفقى باشا، فى وزارة رياض باشا، قانونا جديدا يحول دون ترقية المصريين إلى رتبة الضابط، وكان ذلك القانون الظالم بمثابة الشرارة الأولى للثورة العرابية.

الاحتلال البريطانى لمصر

فى الحادى عشر من يوليو عام ١٨٨٢م، استيقظ أهالى الإسكندرية فى السابعة صباحا على أصوات هادرة راعدة أصابت الآمنين بالفزع الشديد. إنها مدافع الأسطول البريطانى التى ظلت تضرب الإسكندرية حتى السادسة مساء.

بدأت الأحداث الدامية باعتداء مالطى بريطانى الجنسية على مكارى مصرى(مؤجر حمير)، فثار الأهالى وهاجوا وماجوا، فأطلق المالطيون واليونانيون الرصاص عليهم من النوافذ، بينما كان الأهالى غير مسلحين لأنهم كانوا ممنوعين من حمل الأسلحة. وبالطبع لم يتفرق المصريون كما توقع الأجانب وإنما زادت ثورتهم وراحوا يقتلون الأوروبيين بهراواتهم، وانتهز البعض الفرصة فأحرقوا متاجر التجار الأجانب وبيوتهم وكل ما طالته أيديهم فى المدينة. وانتهى الصراع إلى مقتل ستين أوروبيا وضعف عددهم من المصريين[١٥]، والأمر الذى أدى إلى ارتفاع درجة التوتر بين الخديوى توفيق وأحمد عرابى (وزير الدفاع فى ذلك الوقت)، كل منهما يتهم الآخر بأنه كان

(١٥) المرجع السابق صفحة ٢٩٢ .

وراء المذبحة. ويمكن تصور الهلع الذى أصاب سكان الثغر بعد تلك الأحداث العاصفة، والمشهد الدرامى لنزوح الأجانب من مصر عبر البواخر، وهروب الأسر المصرية إلى القاهرة والأقاليم. ويصدر الخديوى أمرا بإقالة عرابى من وزارة الجهادية، ولكن عرابى يرفض تنفيذ الأمر ويجتمع بالجمعية الوطنية (ما يشبه البرلمان) التى تنعقد ويتهم أعضاؤها (نواب الشعب) الخديوى بالخيانة العظمى. وينشر عبد الله النديم قائمة بأسماء الخونة وعلى رأسهم الخديوى، بمجلته "الطائف"، وفى السابع من أغسطس يعلن الخديوى توفيق تجريد عرابى من شرعيته القانونية.

بعد شهر من الحدث الدامى تدفقت الأساطيل الأوروبية على مصر بحجة حفظ الأمن فى البلاد، وبعثت إنجلترا إلى عرابى تطالبه بتسليم قلاع الإسكندرية بحجة أنه كان يقيم مدافع إضافية بالقلاع، مدعما مركزه ومعرضا بهذا الأسطول البريطانى الراسى فى الميناء للخطر.! وبالطبع رفض عرابى الانصياع لرغباتهم، ويصدر الخديوى مرسوما يعلن فيه التصريح للأدميرال البريطانى وقواته بالاستيلاء على ما يرونه من نقط مصرية فى حربهم ضد العصاة، أى أنه أعطاهم إشارة البدء فى احتلال مصر.

يلتف المصريون حول عرابى الذى قرر المقاومة. وكان يوجد بالقلاع المصرية حوالى ١٥٠٠ مقاتل مصرى دافعوا عن بلادهم ببسالة إلا أن أغلبهم ماتوا فى مراكزهم. ويصف القنصل الأمريكى تلك المعركة فى كتابه قائلا:

"وقد أذهلتنا شجاعة العرب(المصريين) وهم يصوبون مدافعهم، إذ بعد أن ينقشع الغبار والدخان المتصاعد من القنابل المتفجرة التى تترك كل ما حولها حطاما، كانت تتصاعد سحابات صغيرة من الدخان من فوهة مدفع قريب يدل على أن الأحياء من الجنود مازالوا متشبثين بمراكزهم"(١٦).

تذرع الإنجليز بحجة حماية الخديوى الشاب من تمرد الجيش وعلى رأسه عرابى لكى يحتلوا مصر. والحقيقة أن عرابى كان يدافع عن مصر وفقا لأوامر السلطان العثمانى الذى كان على خلاف مع الإنجليز، ولم يجرؤ الخديوى توفيق على المجاهرة باعتراضه على ذلك ويقول القنصل الأمريكى ألبرت فارمن:

"وفى مقابلة لى مع سموه بعد ذلك بوقت قصير صرح لى بأنه أصدر أوامره لعرابى بألا يسمح للإنجليز بأن ينزلوا إلى البر وكان يبدو من حديثه أنه يوجه اللوم إليه لأنه لم يستطع أن ينفذ أوامره. ثم أضاف قائلا: بصفتى ممثلا للسلطان، فإنه من واجبى أن أدافع عن البلاد، ولا استطيع أن أتنازل من تلقاء نفسى عن شبر واحد من الأرض" (١٧).

ومع ذلك انقلب كل من السلطان العثمانى والخديوى توفيق على عرابى، ودفع توفيق رشوة لرجال السلطان العثمانى قدرها خمسون ألف جنيه بالإضافة إلى هدايا قيمتها خمسة وعشرون ألف جنيها

---

(١٦) المرجع السابق صفحة ٣٠١ .

(١٧) المرجع السابق صفحة ٣١٠ .

للانضمام إليه وتأييده لدى "الباب العالى". وفى السادس من سبتمبر أعلن السلطان عصيان عرابى ونشرت جريدة الأهرام، التى كان أصحابها الشوام يقفون موقفا معاديا من عرابى، نص بيان السلطان العثمانى الذى تسبب فى إثارة الذعر بين ضباط عرابى. كانوا مستعدين لأى شيء إلا أن يغضب عليهم "الخليفة" العثمانى، ونسوا واجبهم الوطنى المقدس فى الدفاع عن بلادهم ضد جيش أجنبى غاصب، فألقوا أسلحتهم وأسرع أغلبهم للفرار من الجبهة.

وفى ١٤ سبتمبر انهزم عرابى فى معركة التل الكبير وأسرع متجهاً إلى القاهرة. كان ذلك ضروريا إلى أقصى حد لكى يتذرع الإنجليز بحجة احتلال مصر للدفاع عن الخديوى، وكان مفهوما أنهم لن يبقوا بمصر طويلا وأن الجيش البريطانى سيرحل عنها بمجرد إخماد "التمرد" وإعادة الهدوء والنظام للبلاد. لم يكن عرابى عاصيا بل كان يقوم بالمهمة التى أوكله بها نواب الشعب، أعضاء الجمعية العمومية التى انعقدت فى الداخلية بعد عزل عرابى من الجهادية، ورفض أعضاؤها إطاعة أوامر الخديوى وصدرت فتوى دينية بأنه مارق عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده ووقف الشعب إلى جانب عرابى وأطلق عليه حامى حمى الديار المصرية. وقد حاول الإنجليز إلصاق التهمة بأحمد عرابى ولكنهم لم يجدوا أى دليل على أنه حرض على الشغب أو اشترك فيه. ويقول القنصل الأمريكى ألبرت فارمان:

"وحينما تكون أمة من الأمم مستعدة للحرب، وتضع نصب عينيها غزوا مربحا، فانه من اليسير إيجاد أسباب لبدء العدوان. وتحت ستار الادعاء بأن عرابى كان يقيم مدافع إضافية فى القلاع مدعما بهذا مركزه، ومعرضا الأسطول البريطانى الراسى فى الميناء للخطر، وهو أمر نفاه كل من الخديوى وعرابى، تحت هذا الشعار شرع الأدميرال سيمور فى عملياته العدوانية" (١٨).

وأخيرا حقق الإنجليز حلمهم بغزو مصر ودخلوها فى الخامس عشر من سبتمبر ١٨٨٢م، برضاء تام، بل بالتآمر مع حاكمها الخديوى توفيق كما يشهد بذلك القنصل الأمريكى الذى كتب يقول إن الأحداث أثبتت فيما بعد أن الإنجليز كانوا قد أعدوا خطة لغزو مصر عن طريق قناة السويس قبل حدوث المذبحة فى الإسكندرية بثمانية أيام (١٩).

وعندما ولدت "ملك حفنى ناصف" فى نهاية عام ١٨٨٦م كان المصريون فى حالة تشبه الذهول، فالإنجليز الذين احتلوا البلاد منذ أربعة أعوام كانوا لا يزالون يمنون رجال السياسة المصريين بالوعد بالجلاء الفورى عن مصر، ويزعمون إن احتلال جيوشهم لن يطول عن بضعة أشهر وربما أسابيع. وكانت خمر الانتصار الساحق على أحمد عرابى، واعتذاره الذليل للخديوى توفيق ونفيه

---

(١٨) المرجع السابق صفحة ٢٩٦.

(١٩) المرجع السابق صفحة ٣٠٦ .

إلى أقصى بلاد الدنيا؛ (كولومبو) عاصمة سيلان، ما تزال تسكر الخديوى وحاشيته ومؤيديه.

كان زعيم حزب الأحرار (الحزب المعارض) في إنجلترا قد نجح في تكليف اثنين من المحامين الإنجليز للدفاع عن عرابى، وطالب الحكومة البريطانية بتوفير محاكمة عادلة له. ولكن المحامى الإنجليزى الذى تطوع للدفاع عن عرابى مستر برودلى، أخبره في لقاء معه داخل السجن، بشأن التسوية التى أصرت عليها الحكومة البريطانية وهى الحكم عليه بالإعدام أولا ثم يصدر بعد ذلك مرسوم معدل من الخديوى بنفيه من مصر. ونصحه المستر برودلى بالاعتراف بأنه مذنب لثورته على الخديوى، على أمل أن يعفو عنه. ولم يكن أمام عرابى الذى خذله السلطان العثمانى وأعلن عصيانه منذ ثلاثة شهور، وخانه البدو وبعض الأعيان، وانفض عنه الرفاق [٢٠]، لم يكن أمامه من اختيار سوى الإذعان لنصيحة برودلى. وفى محاكمة عسكرية وهمية لم تستغرق أكثر من خمس دقائق فقط أُعلن الحكم على عرابى: النفى خارج بلاده مصر التى دافع عنها وعشقها، لمدة تسعة عشر عاماً. ولم يعجب ذلك الحكم الإنجليز والقصر وأتباعهم، فقد كانوا يتمنون حكما بالإعدام على عرابى الذى يعترف أحدهم بكل صراحة أنه كان سينجح فى حركته ..

---

(٢٠) "الثورة العرابية" تأليف لورد كرومر. ترجمة عبد العزيز عرابى. المقدمة بقلم الدكتور يواقيم رزق مرقص صفحة ١١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

"فلو أن هذا الثائر ترك وشأنه فى ثورته لما كان هناك أدنى شك فى انتصاره، ولكن بما أن خذلانه يرجع إلى التدخل البريطانى، فمن الحق المطلق لبريطانيا أن تقرر هى مصيره .."(٢١).

وقررت بريطانيا أن تقرر مصير مصر كلها بعد أن ساعدها التخاذل العثمانى وتهاون الخديوى على سحق الحركة الوطنية، وفى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٢ صدر ديكريتو بإلغاء الجيش المصرى!، وبعدها بأربعة شهور، فى غرة فبراير ١٨٨٣م صدر أمر آخر بإنشاء "الجندرمة" أو (الدرك) المصرى بقيادة ضابط إنجليزى ويتبع نظارة الداخلية!. ولكن هذه المهزلة انتهت بعد عشرة شهور فقط من بدايتها. إلا أن مسلسل إذلال مصر وإخضاع شعبها لم ينته ... وأما ما حاق بمصر من جراء الاحتلال البريطانى وسياسة التدخل الإنجليزى فى شئون مصر فإن خير ما يصفها شهادة من نائب إنجليزى من نواب المعارضة، كان يؤيد قرارا قدم إلى البرلمان الإنجليزى بشأن استدعاء القوات الإنجليزية فى مصر فورا:

"لقد عملنا على زيادة دين مصر من ٩٠٠٠٠٠٠٠ (تسعين مليون جنيه) إلى ١٠٠,٠٠٠٠٠٠ (مائة مليون جنيه) وذبحنا عدة آلاف من المواطنين، وكممنا المجلس الوطنى، وضربنا المدينة الرئيسية للبلاد بالقنابل فى ظروف غاية فى الفظاعة، ورفعنا قيمة الضرائب، ونشرنا الدعارة والفجور فى

(٢١) المرجع السابق صفحة ٢٣٨.

العاصمة، وينذرنا بنور الشقاق بين الخديوى والشعب، وسحقنا أول بوادر الاستقلال التى ظهرت فى الأمم الشرقية منذ أجيال مضت" (٢٢).

والآن كيف تصرف "الباب العالى" أو السلطان الخليفة العثمانى فى شأن استيلاء ... الإنجليز على مصر "درة ديار الإسلام" التى كانت قبل أن يستولوا عليها مملكة تمتد حدودها شمالا حتى جبال طوروس فى سوريا، وشرقا إلى أراضى الحجاز بما فيها من أماكن مقدسة بمكة والمدينة، وجنوبا حتى مصوع وسواكن بالسودان، وغربا حتى برقة فى ليبيا! لقد استمرت مهزلة الوصاية العثمانية على مصر بعد الاحتلال، وتنازل السلطان العثمانى، وتفضل مشكورا بإرسال الغازى أحمد مختار إلى مصر لكى يتفاوض مع الإنجليز على جلائهم عن مصر. وفى التاسع من ديسمبر ١٨٨٥م وصل "بسلامته" إلى مياه الإسكندرية فى "الوابور" عز الدين، مع حضرة حرمه ومعينة، واستقبلهم نوبار باشا رئيس النظار فى احتفال مهيب. استمر هذا الغازى الذى أطلق عليه لقب "المرخص العثمانى" أو "القوميسير" لمدة ربع قرن كامل، كانت النتيجة الوحيدة لسياساته أنها أفشلت أول معاهدة جلاء بين مصر وبريطانيا، والتى عقدت فى ١٥ أكتوبر ١٨٨٥م، أى قبيل وصول سيادته بشهر ونصف!

ولعل عرابى كان جالسا فى منفاه البعيد، بكولومبو عاصمة سرنديب (سيلان)، التى وصل إليها قبل ثلاث سنوات، فى التاسع من

(٢٢) "مصر وكيف غدر بها" ألبرت فارمن .

يناير ١٨٨٣م، يذرف دموع الندم على تضحيته من أجل بلد لا تعرف الوفاء لأبنائها البررة فى الوقت الذى كانت فيه القاهرة تصخب بالمرح والبهجة مشاركة لمحتليها الاحتفال بأعياد كريسماس ١٨٨٦م. وقد أراد الخديوى توفيق أن يضاعف الفرحة فأعلن زفاف أخيه الأمير الشاب حسين كامل (الذى سيصبح سلطانا على مصر أثناء الحرب العالمية الأولى)، إلى صاحبة العصمة الأميرة ملك. فالمدينة كلها فى زينات وطبول كأنها ترحب بمقدم الطفلة التى سماها والدها على اسم الأميرة المحتفى بها: ملك. ولكن هذه المظاهر الكاذبة لم تخدع المصريين، بل زادت من اشتعال النار تحت الرماد، وسرعان ما سيفيق الجميع على صدمة الخديعة البريطانية وينتفضون ليحرروا وطنهم من جيش الاحتلال.

اللورد دوجلاس دنلوب

لابد من دراسة قرارات ذلك الإنجليزى، الذى راح يبدد كل الجهود السابقة عليه لتنمية وتطوير التعليم بمصر، لكى نتوصل إلى حقيقة النوايا البريطانية فى مصر، وكيف كانوا يخططون للإبقاء على شعبها أميا تابعا مستذلا لكى يسيطروا عليه إلى الأبد.

سيطر اللورد دنلوب على التعليم فى مصر فى الفترة من بداية الاحتلال عام ١٨٨٢م إلى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م. وهو من أصل اسكتلندى، بدأ عمله فى مصر معلما للعلوم ثم ناظرا للمدرسة الاسكتلندية بالإسكندرية، وفى عام ١٨٩٠م عين مستشارا لوزارة المعارف وبدأ عهده بإبعاد على مبارك رائد التعليم فى مصر

عن وزارة المعارف، وأصدر عام ١٨٩٤م أغرب قرار يمكن تصوره وهو أن تتبع نظارة (وزارة) المعارف نظارة الأشغال العامة! ويبدو أن هذه القرارات راقت لسلطات الاحتلال فرقى سكرتيرا للوزارة بعد ست سنوات. وفى عام ١٨٩٨م حصل دنلوب على الدكتوراه فى القانون (وليس التعليم) من بريطانيا. ثم قرر دنلوب اختصار التعليم الابتدائى والثانوى، وأن يدرس الطب باللغة الإنجليزية، وفى مارس ١٩٠٢م قرر إلغاء المجانية من كل مدارس مصر. كان بكل مدرسة قسم لغير القادرين يتيح لهم التعليم بالمجان، وطلب دنلوب من الجمعيات الخيرية ومن وزارة الأوقاف أن يتولوا دفع مصروفات من يتوسمون فيهم النبوغ من التلاميذ. ثم قام برفع مصروفات القسم الخارجى إلى ستة جنيهات والقسم الداخلى إلى ١٢ جنيها، وعاد فرفعهما إلى ثمانية و١٦ ثم إلى ٢٠ فى أوائل القرن العشرين مع إلغاء صرف الملابس التى كانت تصرف للتلاميذ فى الصيف والشتاء. وبعد فترة قصيرة ونتيجة للآثار السلبية لتلك القرارات المتعسفة تقرر استبقاء المجانية فى مدرسة عباس وفى تعليم التلغراف وفى مدرسة الفنون والصنائع، على أن تتولى نفقاتها السكك الحديدية. ومن أخطر "إنجازات" المستر دنلوب فى مصر تخفيض الاعتماد المخصص للبعثات الحكومية فى الخارج من أربعة آلاف جنيه عام ١٨٩٠ (أى قبل تعيينه) إلى ١٣٠٠ ثم إلى ٩٠٠ جنيه سنويا !!

ومن أهم الأهداف التى راح دنلوب يسعى لتحقيقها بكل همة كانت "نجلزة" التعليم فى مصر، ولتحقيق ذلك سافر دنلوب إلى إنجلترا،

وعاد وفى صحبته ١١ معلما و٥ معلمات إنجليز عينهم بالمدارس الأميرية عام ١٩٠٤م، وأوكل مدرستى الزراعة والهندسة لناظر واحد يدعى مستر ماكنزى.

النتيجة الحتمية لكل تلك الإجراءات المتعسفة، كانت انصراف الطلبة الأثرياء للتعلم بالمدارس الأجنبية (التبشيرية)، أما الفقراء فالكثير منهم انصرف عن طلب العلم، وكثرت الإضرابات وحركات الاعتصاب (الاعتصام) فى مدرستى المعلمين والهندسة ما بين عامى ١٩٠٤م و١٩٠٥م. واحتشدت جهود الوطنيين لإنشاء مدارس أهلية وارتفعت أصوات تطالب بإنشاء نظارة معارف أهلية أيضا. ولتهدئة الموقف عين سعد زغلول ناظرا للمعارف عام ١٩٠٦م .

ويتذكر الناس محمد على (١٨٠٦-١٨٥٠م) مؤسس الأسرة المالكة فى مصر ويترحمون على أيامه. ويكتب الزعيم الشاب مصطفى كامل فى جريدة اللواء يدعو لاحتفال كبير بمناسبة مرور مائة عام على تولى محمد على حكم مصر. وما لبثت صحيفة الأهرام أن انضمت إليه ودعت إلى الاحتفال بذكرى "معيد التمدن لمصر". كان محمد على قد حكم مصر لمدة ٤٥ عاما وتركها بلا ديون. وفى أثناء حكمه أنشأ ٦٢ مدرسة منها ٨ عليا للهندسة والطب والصيدلة والألسن والمحاسبة والزراعة. كذلك بنى محمد على القناطر الخيرية وترعة المحمودية.

مصطفى كامل .. شهيد الوطن

الوطنية أيها السادة، هى العماد لكل مملكة والأساس المتين لكل دولة، الوطنية هى الروح العاملة فى كل بلاد العالم المتمدن.

من خطبته فى العيد المئوى لولاية محمد على

فى عام ١٨٩٥م حدثت بباريس واقعة أثارت انتباه الرأى العام بشدة، وعلقت عليها كل الصحف الفرنسية والعالمية، فقد قدم شاب مصرى، إلى مجلس النواب الفرنسى صورة رسمها بنفسه تمثل مصر مقيدة بسلاسل الاحتلال الإنجليزى. وطالب الشاب الذى لم تكن سنه تزيد عن إحدى وعشرين عاما، مجلس النواب بأن يفعل ما يستطيع لإنقاذ بلاده من براثن الاحتلال البريطانى. ذلك الشاب كان مصطفى كامل، الذى عاصرت ملك ظهوره، وصعود نجمه وشعبيته الكاسحة بسبب نضاله من أجل مصر. ولا بد أنها تأثرت بخطبه الرنانة التى كان يتردد صداها بين جنبات مصر، فيهب الناس ثائرين رافضين للاحتلال الأجنبى لبلادهم.

ولد مصطفى كامل بمدينة القاهرة فى ٤ أغسطس ١٨٧٤م والتحق بالمدرسة الخديوية ثم بمدرسة الحقوق ثم سافر إلى فرنسا ليحصل على إجازة القانون من تولوز وفيها بدأ نشاطه السياسى.

وقد لاقت خطبه ومقالاته فى الصحف الفرنسية وعلاقاته بالصفوة الثقافية بفرنسا صدى طيبا نظرا للتنافس الشديد بين الدولتين فى ذلك الوقت. كان مصطفى كامل فى الثامنة عشرة من عمره يوم عاد عبد الله النديم من منفاه فى يافا عام ١٨٩٢م، بعفو من الخديوى عباس وقد التقى به مصطفى كامل ولا بد أنه تأثر به عندما أصدر مجلته الأولى "المدرسة" بينما كان عبد الله النديم يصدر صحيفته الشهرية "الأستاذ" ولكن الخديوى لم يمهله وعاد ينفيه مرة أخرى إلى يافا.

وفى مصر وصل مصطفى كامل ذروة شعبيته ونجاحه بعد واقعة (حادثة) دنشواى (١٣ يونية ١٩٠٦م) التى حكم فيها بالإعدام على أربعة فلاحين وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وأحكام أخرى كثيرة منها الجلد، لأنهم تسببوا فى قتل ضابط إنجليزى أطلق الرصاص على فلاحة وابنتها. ولكن جهود مصطفى كامل تتواصل فيجمع التوقيعات ويقدم العرائض مطالبا الخديوى عباس الثانى بالإفراج عن مسجونى دنشواى، ويستجيب الخديوى فيصدر قرارا بالعفو.

كان مصطفى كامل على صغر سنه خطيبا ساحر البيان، فصيح اللسان، متقد الذهن ذا بداهة حاضرة، وكان صدقه وإيمانه العميق بحق مصر فى الاستقلال يعطيانه جاذبية أو "كاريزما" تجمع من هم أكبر منه سنا وأكثر تجربة حوله. ولم تكن هناك حدود لأحلامه وطموحاته، ولم يسمح لأى عقبات فى أن تصيبه بالوهن أو اليأس لحظة واحدة. وكانت له إلى جانب ذلك مؤلفاته التاريخية، ولكن المجهود الضخم الذى بذله مصطفى كامل والانفعالات الشديدة التى عاناها، سرعان ما تغلبت على قلبه فإذا به يقضى نحبه فجأة فى الرابعة بعد ظهر العاشر من فبراير ١٩٠٨م.

كان يجهد نفسه ويكلفها فوق طاقتها من العمل الشاق، كأنه كان يعرف أن العمر لن يمتد به ليرى أمله وقد تحقق. وأصاب قلبه الوهن واشتدت عليه العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر، لكنه لم يأبه واستمر على حاله يحرر اللواء بالعربية والإنجليزية والفرنسية ويكتب المقالات والخطب ويرأس الاجتماعات ويرسل برقيات الاحتجاج، ويسافر من مدينة إلى أخرى ومن دولة لدولة. وفى عصر اليوم التالى شيعته الألوف إلى مثواه الأخير، ونعاه كل الرجال الوطنيين حتى أولئك الذين

اختلفوا معه. إن قلبه الشاب لم يحتمل كل ماعاناه من إجهاد سهر ومعاناة وقلق وتوتر فتوقف فجأة وهو فى قمة عطائه، ولم يكن قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره. رثاه شعراء مصر وكتابها. وبكت مصر كلها ابنا بارا من أنبغ وأعظم أبنائها.

أيقظت خطب ومقالات مصطفى كامل الروح القومية فى مصر حتى أنه أُطلق عليه لقب "باعث الحركة القومية"، ولكنه كان شابا حالما قليل التجربة، لذلك لم يستمر حزبه طويلا: فقد أنفق الوقت والجهد بل والعمر فى الدعوة لأن تتمتع مصر بالحكم الذاتى تحت ظل الخلافة التركية، طبقا لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠م التى فرضها الإنجليز على محمد على، فى الوقت الذى كانت فيه الإمبراطورية العثمانية تتهاوى داخليا وخارجيا، وعلى الرغم من أن الخليفة العثمانى كان واحدا من أهم الأسباب وراء خذلان عرابى واحتلال الجيش الإنجليزى الأراضى المصرية، عند ما أصدر بيان عصيان عرابى وكل من يتبعه. الأمر الثانى أن مصطفى كامل لجأ إلى فرنسا لكى تسانده فى حركته باعتبارها دولة الحرية والمساواة والإخاء، ولم يدرك أنها كانت فى ذلك الوقت لا تقل عن بريطانيا فى أطماعها الاستعمارية، ولذلك خذلته عام ١٩٠٤م بتوقيعها "اتفاقية الوفاق الودى" مع بريطانيا، التى تقاسما فيها الكعكة العثمانية الدسمة. أما سوء الاختيار الثالث فكان الخديوى عباس الثانى الذى خدع فيه مصطفى كامل وتحالف معه، وأعطاه ثقته، رغم أنه ابن الخديوى الخائن الذى فتح أبواب مصر للإنجليز، وأخيرا اضطر مصطفى كامل إلى قطع تلك العلاقة بعد أن انتهج عباس سياسة الوفاق مع الإنجليز، والتى لم تقده هو أيضا فى شىء وانتهت بعزله عن حكم مصر.

أما الأمر الرابع والأهم فى نظرى فهو ذلك الموقف السلبى لمصطفى كامل والحزب الوطنى من القضايا الاجتماعية بشكل عام ومن قضية المرأة على وجه الخصوص. رفض مصطفى كامل أفكار قاسم أمين التى عرضها فى كتابه "تحرير المرأة"، على الرغم من صداقته مع جولييت آدامز، الكاتبة الفرنسية، وثنائه الحار عليها وإشادته بثقافتها وشجاعتها ..الخ ولم يخطر بباله أن تحرير الوطن لا يمكن أن يتم بينما نصفه مغلول إلى الماضى البعيد، محروم من أبسط الحقوق الإنسانية التى كفلها للمرأة الدين الإسلامى: التعلم والعمل الشريف. نسى الزعيم الشاب، أنه عندما أراد أن يستدر عطف المجتمع العالمى على مصر صورها كامرأة مكبلة بالسلاسل تجر الأصفاد، نفس الصورة التى تسكن مخيلة الغربيين حول المرأة المسلمة، والتى جسدها وانتقدها بشدة دوق فرنسى يدعى داركور قبل عام واحد، فى كتاب نشره تحت عنوان "المصريون"! وكان ذلك الكتاب المحرك الرئيسى الذى دفع قاسم أمين إلى الاهتمام بقضية المرأة والدفاع عن حقوقها المشروعة. غفل مصطفى كامل عن كل هذا، ولم يحاول أن يتوقف ليدرس الموقف جيدا بل أشاد فى إحدى مقالاته بكتاب طلعت حرب الذى أصدره للهجوم علي قاسم أمين.

كذلك وقف الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل موقفا سلبيا من الشيخ على يوسف، رئيس تحرير جريدة "المؤيد" عندما أثيرت قضية زواجه من بنت أحد الأعيان دون موافقة والدها وهاجمهما محررو جريدة اللواء بشدة.

دنشواى .. الواقعة السوداء

وتتأجج مشاعر المصريين الوطنية على اثر واقعة دنشواى فى ١٣ يونية ١٩٠٦م. وكان خمسة من ضباط جيش الاحتلال ومعهم حكيم الأورطة يصطادون الحمام فى أعمال دنشواى مركز شبين الكوم بالمنوفية، فأصابوا "حرمة" وابنتها وشيخ الخفر بعيارات نارية. هاج الأهالى وهاجموا الضباط فقتل أحدهم وجرح الخمسة الآخرون وكذلك جرح خمسة من الأهالى. وفى اليوم التالى توفى أحد الأهالى متأثرا بجراحه. قبض الإنجليز على سبعة عشر فلاحا وتطوع محام مصرى كبير للدفاع عنهم. الغريب أن الأطباء أعلنوا أن سبب وفاة الضابط الإنجليزى كان السكتة القلبية الناجمة عن سيره وهو جريح لمسافة ثلاثة أميال، ولكن تقرير الحكومة (المصرية!) أكد أن الضابط مات لأنه تلقى ضربتين قويتين على رأسه. وقد تشكلت محكمة "خصوصية" برئاسة بطرس باشا غالى نائب ناظر الحقانية، الذى كان غائبا يمضى أجازته الصيفية بأوروبا وعضوية المستشار أحمد بك فتحى زغلول رئيس محكمة مصر(شقيق سعد زغلول)، وثلاثة قضاة أجانب أحدهم من جيش الاحتلال الإنجليزى. وكان أغلب المسئولين الكبار قد بدءوا إجازتهم الصيفية بما فى ذلك اللورد كرومر نفسه الذى غادر مصر مع حرمه يوم ١٨ يونيو أى بعد خمسة أيام من حدوث "الواقعة". أما الخديوى عباس الثانى فقد كان وقت الحادث فى عرض البحر فى طريقه إلى الآستانة.

انعقدت المحكمة بمدينة شبين الكوم عاصمة المنوفية داخل سرادق كبير، أقيم ليتسع لأكثر من ألفى شخص، أما أعضاء المحكمة

فلم يجدوا مكانا مناسبا يقيمون فيه خيرا من باخرة تابعة لشركة كوك على النيل. وكان أحمد لطفى السيد وآخرون قد انضموا لهيئة الدفاع عن المتهمين الذين أصبح عددهم ٥٩ متهما، فر منهم ثمانية. وقد توافد الأهالى على المدينة لمتابعة المحاكمة مما تسبب فى ارتفاع سعر السرير فى "اللوكاندات" إلى جنيه فى الليلة، كذلك ارتفعت أسعار المأكولات والمشروبات وبلغت أجرة الحمار عشرين قرشا ذهابا وإيابا! وقد أصدرت المحكمة فى النهاية حكما بإعدام أربعة من أبناء قرية دنشواى، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبخمسة عشر عاما على واحد، وبسبعة أعوام على ستة، وعام واحد على ثلاثة متهمين بالإضافة إلى خمسين جلدة، وعلى ثلاثة متهمين بخمسين جلدة، وأطلق سراح واحد وثلاثين متهما.(٢٣).

ويقيم الزعيم الشاب مصطفى كامل الدنيا، ويحرج سلطات الاحتلال الإنجليز بسبب حادث دنشواى، ويتسبب فى استقالة اللورد كرومر، المعتمد البريطانى، فى مصر فى إبريل ١٩٠٧م مما يحدث ابتهاجا عاما فى مصر. لكن هذا لا يمنع الحكومة المصرية من إقامة حفل تكريم للورد كرومر بدار الأوبرا!

وفى نفس العام يهبط سعر قنطار القطن من ٢٤ إلى ١٨ ريالا، وتعانى مصر من عسر مالى وهبوط أسعار الأسهم فى البورصة وتغلق بعض البنوك، ويرفع الملاك إيجارات المنازل والمحلات وينتهز المرابون الفرصة للمزيد من سلب مصر وشعبها.

---

(٢٣) "الأهرام، ديوان الحياة المعاصرة" د. يونان لبيب رزق.

بداية قرن .. بداية عصر

"و عادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته واليدين أقرب إلى المنكبين ."(٢٤)

رفاعة الطهطاوى فى وصف نساء باريس ١٨٢٦م .

---

(٢٤) "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة.

شبت "ملك" عن الطوق فى بيت رجل مثقف يتابع الأحداث السياسية باهتمام ويكتب المقالات فى الصحف باسم مستعار (إدريس محمدين)، لكى يتقى شر ذوى السلطان وأصحاب الكلمة العليا، ويدبج الخطب الحماسية لكى يلقيها التلاميذ فى المدارس، الذين التهبت وطنيتهم وانتشر بينهم السخط والغليان على أثر حوادث مثل حادثة الكنيسة التى وقعت فى مارس ١٨٨٧م وكانت شبيهة إلى حد كبير بحادثة دنشواى التى حدثت بعد ذلك عام ١٩٠٦م. كذلك بسبب تحكم المستشار الإنجليزى دنلوب، وإلغاء مجانية التعليم من المدارس إلى ما فوق الكتاتيب وزيادة مصروفاتها.

لقد توالت الأحداث منذ مطلع القرن فهاهو نجم مصطفى كامل يبزغ ويملأ الأفق بأخبار مؤتمراته وخطبه التى تلهب مشاعر المصريين ضد الاستعمار البريطانى، وتطالب بجلائهم وبإنشاء مجلس نيابى كضمان لسلامة القوانين وحماية للحريات. ويتابع المصريون باهتمام كبير رحلاته إلى أوروبا ثم مرضه ثم جريدة اللواء التى أنشأها ليفرغ فى صفحاتها هجومه العنيف على الإنجليز وأعوانهم وكل من لا يتصدى لهم، ويعيد مصر إلى حظيرتها الآمنة، تركيا، حيث الخلافة العثمانية.

وفى عام ١٨٩٥م توفى الخديوى إسماعيل فى منفاه بالآستانة وحيدا مريضا عن عمر يناهز الخامسة والستين، ومنذ ذلك اليوم ومشاعر الأسى تتصادم مع المناقشات الصاخبة حول الاحتلال البريطانى، وهل كان إسماعيل ببذخه وسفهه واستهتاره هو السبب

فيه أم كان عرابى بهوجته التى لم تنته إلى شىء وإن كانت بواعثها النبيلة أمر يدعو إلى الافتخار، أم أن الخديوى توفيق بضعفه وخضوعه التام للإنجليز كان هو السبب! على أية حال لقد سبق توفيق والده إلى العالم الآخر ولم يكن قد أتم عامه الأربعين بعد. مات عام ١٨٩٢م بسبب غريب: الأنفلونزا التى كانوا يصفونها فى ذلك الوقت "بالنازلة الوافدة". فهل كانت لعنات المصريين هى التى أصابته وعجلت برحيله !.

لقد تعلم الخديوى الشاب عباس الثانى الذى ورث العرش قبل أن يحلم به بسبب الوفاة المفاجئة لأبيه، وكان فى السابعة عشرة من عمره، تعلم الدرس فإذا به يرأس جمعية سرية لمناهضة الاحتلال الإنجليزى (الحزب الوطنى) شارك فى عضويتها أحمد لطفى السيد ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وحفنى ناصف وغيرهم .. بداية مشجعة للخديوى الشاب سبقها علاقة طيبة بالزعيم الشاب مصطفى كامل الذى أوفده عام ١٨٩٣م إلى باريس على نفقته الخاصة، ليؤدى امتحان السنة الأولى فى كلية الحقوق بباريس، وليحصل بعد عام واحد على إجازة (شهادة) الحقوق من جامعة تولوز. بعد ذلك استمرت رحلات مصطفى كامل المكوكية إلى أوروبا للدعاية للقضية الوطنية، وكان حفنى ناصف وربما مثقفون وطنيون آخرون، يفعل نفس الشىء.

ويعود الأستاذ الإمام محمد عبده من منفاه فى باريس عام ١٨٩٩م ويعين قاضيا بالمحاكم الأهلية. وما إن يبدأ علم ١٩٠٠م حتى تهل

على المصريين جريدة "اللواء" التى أنشأها الزعيم الشاب مصطفى كامل ورفاقه، وعلى الرغم من العلاقة الوطيدة بين الزعيم الشاب وفرنسا، إلا أنه لا يقتنع بما جاء فى كتاب "تحرير المرأة" لقاسم أمين، وينضم إلى زمرة المهاجمين له، وينشر مقالا يقرظ فيه كتاب طلعت حرب "فى تربية المرأة"، الذى نشره ليرد على قاسم أمين وذلك بعد أسبوع واحد من صدور "اللواء". والسؤال الذى يحتاج لمن يجيب عليه، كيف لم يتأثر مصطفى كامل بنموذج جولييت آدامز الكاتبة الفرنسية ذائعة الصيت، التى تعرف عليها قبل أربع سنوات فى سبتمبر ١٨٩٥م بباريس، واستعان بها فى الدفاع عن حرية وطنه! هل تحدث معها فى مسألة تحرير المرأة أم أنهما حرصا على ألا يخوضا موضوعا شائكا كهذا، وأن تقتصر أحاديثهما على "المسألة المصرية"! كيف لم يتأثر بأفكار أستاذه حفنى ناصف الذى كان يستشيره فى كل خطواته! .

وكأنما الحملة الشعواء على قاسم أمين قد أتت بنتيجة معاكسة، لأن حفنى ناصف فى نفس العام يلحق ابنته ملك بالقسم الداخلى بمدرسة السنية على أثر حصولها على الشهادة الابتدائية، وقبل أن ينقضى العام يكون قد سعى لنشر أولى قصائدها فى الصحف، ويستدعى مدرستين، إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية، لتعطيانها دروسا خصوصية فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية. ولا يستسلم قاسم أمين وإنما ينشر كتابا آخر هو "المرأة الجديدة" يدعو فيه النساء لأن يهبوا دفاعا عن حقوقهن المسلوبة. وتتوالى المجلات النسائية بعد ذلك، "الهوانم" و"المرأة" فى

الإسلام" بالإسكندرية، "شجرة الدر" بالقاهرة. وتؤسس مجموعة من السيدات جمعية لتعليم الفتيات الفقيرات مجانا. ولسوف تتشجع الفتاة المصرية النابهة "نبوية موسى" وتلحق بصديقتها ملك فى درب التعليم والعمل فتلتحق بالصف الثالث الابتدائى.

إن تلكؤ الجيش الإنجليزى فى مغادرة مصر، وسياساته المتعسفة التى أراد بها أن يقيد حرية الصحافة ويكمم الأفواه ويوقف نمو الشعب المتطلع لعصر جديد، بالإضافة إلى خطب مصطفى كامل الحماسية ومقالات المثقفين المصريين فى "المؤيد" و"اللواء" وغيرهما، بعثت الروح القومية المصرية. والتف الناس حول زعماء الشعب الذين عادوا من المنفى، ومن بينهم عبد الله النديم، الذى أصدر جريدة "الأستاذ" فى ١٨٩٢م، والشيخ محمد عبده الذى عينه الخديوى عباس قاضيا بالمحاكم الأهلية ثم مفتيا للديار المصرية، والشيخ الثائر مصطفى لطفى المنفلوطى، الذى أعيد قيده فى الجامع الأزهر مرة ثانية. وفى باكورة العام الجديد، استهل المصريون القرن الجديد باحتفال ضخم بعيد جلوس الخديوى عباس الثانى "على الأريكة الخديوية"، وكافئوا حاكمهم الشاب على مواقفه الوطنية باعتبار يوم ٨ يناير ١٩٠١م، أكبر عيد وطنى للأمة المصرية. وفى ذلك اليوم أغلقت جميع دواوين الحكومة ومصالحها.

ولكن أهم ما يجب أن يؤثر على الشابة النابهة المتحفزة المراقبة لكل ما حولها فى اهتمام شديد هو تلك المرأة الفرنسية جوليت آدامز. الكاتبة الفرنسية ذات الصيت الذائع فى بلادها وكل أوروبا،

التى استطاع المناضل الشاب مصطفى كامل أن يحوز إعجابها ويقنعها بالوقوف إلى جانبه والكتابة فى الصحف الفرنسية للمطالبة برحيل القوات الإنجليزية عن مصر. ولم تكن جولييت آدامز امرأة عادية أو مجرد أديبة فرنسية مشهورة، وإنما كانت ذائعة الصيت فى أوروبا كلها، ولها نفوذ أدبى قوى فى بلادها فرنسا، وكانت تستقبل فى دارها بباريس أشهر الأدباء والعلماء والساسة. وعندما التقى بها مصطفى كامل كانت تقترب من الستين من عمرها الذى امتد حتى المائة بينما كان هو شابا يافعا فى الحادية والعشرين من عمره. وكان قد نال إجازة الحقوق من تولوز قبل عام واحد، وقرر أن يترافع فى قضية واحدة هى "المسألة" المصرية، أو تخلص مصر من الاحتلال البريطانى. وكانت خطة الزعيم الشاب تعتمد على كسب التأييد من رجالات السياسة الأوروبيين، وكذلك من أصحاب الفكر خصوصا الفرنسيين الذين كانو يعارضون استئثار بريطانيا بالسيطرة على مصر، فلم يترك فرصة لرفع صوته مطالبا باستقلال مصر إلا وانتهزها حتى أنه اشتبك فى نقاش عنيف مع شقيق اللورد كرومر الذى التقى به مصادفة على ظهر باخرة. وفى سبتمبر ١٨٩٥م أرسل مصطفى كامل رسالة إلى الكاتبة الكبيرة، ليعرفها بنفسه وبقضية بلاده ويرجوها أن تقف إلى جانبه. ورحبت الكاتبة الفرنسية بتلك الرسالة فنشرتها وعلقت عليها بمجلة "لا نوفل ريفو"، التى كانت ترأسها ودافعت فيها بحرارة عن حق مصر فى الاستقلال. وقد استمرت الصلة بين الزعيم المصرى الشاب والكاتبة الفرنسية الكبيرة، ووجه إليها دعوة لزيارة مصر.

فى يناير عام ١٩٠٤م لبت جوليت الدعوة وجاءت لزيارة مصر. لم تكن زيارة عادية وإنما كانت إعلانا شجاعا عن موقفها من القضية الوطنية المصرية، التى كتبت تؤازرها فى الصحف الفرنسية، ووقفت إلى جانب مصطفى كامل الزعيم الشاب، الذى أدهشها بحرارة إيمانه بقضية بلاده واستعداده لبذل حياته فداء لها. واستقبلها الثائر الشاب ورفاقه استقبالا حافلا، ودعاها العديد من الأعيان لزيارتهم فى المنيا وأسيوط والبلينا والأقصر وإسنا وأسوان والفيوم وبورسعيد، حيث تعرفت إلى المصريين، وتأثرت بحفاوتهم وأبدت إعجابا عميقا بآثارهم الخالدة. وقد شارك حاكم مصر الخديوى عباس الثانى فى الاحتفاء بالكاتبة الفرنسية الكبيرة فدعاها قبل أن تغادر مصر إلى وليمة عشاء فاخرة بقصر القبة، حضرها بعض الأمراء والكبراء. وقد تابعت جريدة "اللواء" الزيارة التى استمرت لمدة شهرين، ونشرت كل ما قيل أثناءها من خطب وما واكبها من أحداث.

فى ذلك العام أتمت ملك الثامنة عشرة من عمرها، وكانت فى عنفوان حماسها وإقبالها على الحياة، تخرجت فى مدرسة السنية وتستعد لأن تعين مدرسة بها بعد أقل من عام. ولابد أنها كانت تتابع أخبار زيارة مدام جوليت آدمز لمصر فى بداية ذلك العام بدعوة من الزعيم الشاب مصطفى كامل، وقرأت ما كتبه عنها مصطفى كامل بجريدة "اللواء" وإشادته الحارة بثقافتها ومواهبها المتعددة ووطنيتها وشجاعتها...الخ.[٢٥]

---

(٢٥) "مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية" عبد الرحمن الرافعى صفحة ١٧٤ .

وفى الرابع من مارس ١٩٠٤م غادرت جوليت ورفاقها الأوروبيون مصر محفوفة بالثناء عليها والإعجاب الشديد بها وبروحها العالية وبثقافتها العميقة. وفى نفس الشهر أنعم السلطان على مصطفى كامل برتبة الباشوية، مما يدل على الرضا التام الذى أسبغه الباب العالى على الزعيم الشاب ورفاقه. ولكن الأمور سرعان ما تتطور إلى ما يشبه الصدمة عندما أبرم "الاتفاق الودى" بين إنجلترا وفرنسا بعد شهر واحد من مغادرة جوليت آدامز لمصر. وقد نص الاتفاق على أن إنجلترا "ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر" وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها "بألا تعرقل عمل إنجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى ولا بأى صورة أخرى" (٢٦).

كان الاتفاق فى مجمله صدمة كبيرة للقوى السياسية الوطنية بمصر لأنه كان بمثابة اعتراف كامل بهيمنة بريطانيا على مصر. وزاد على ذلك غطرسة المعتمد البريطانى اللورد كرومر الذى راح يتصرف فى مصر كما لو كانت ضمن أملاكه الخاصة، فيتجول فى المحافظات، ويعلن أن المصريين ليسوا مؤهلين للحكم الذاتى وأنهم غير أكفاء، إلى غير ذلك مما سبب حنقا بالغا لدى المصريين وتفشت بينهم روح اليأس، ولجأ بعض الأعيان للتزلف للإنجليز واسترضائهم. حتى الخديوى عباس تحول فجأة إلى سياسة مهادنة للإنجليز، فإذا به يوافق على حضور استعراض جيش الاحتلال

(٢٦) المرجع السابق ص ١٧٨.

لقواته بميدان عابدين. الأمر الذى أثار حفيظة الوطنيين واعتبروه إهانة لمصر وللمصريين، فانتقده كتاب كثيرون فى الصحف، ولكن الخديوى لم يأبه بالانتقادات، واستمر فى سياسته وشارك الإنجليز احتفالهم بعيد ميلاد الملك إدوارد السابع. إذن كان مصطفى كامل على حق عندما أرسل للخديوى خطابا يخبره فيه بأنه لن يواصل التعاون معه وسيبتعد عنه.

لقد ظهرت الأغراض الحقيقية للاحتلال البريطانى لمصر فى العديد من الإجراءات التعسفية التى اتخذها اللورد كرومر، وأظهرت النوايا السيئة لأولئك الذين فرضوا أنفسهم بالقوة الغاشمة واحتلوا مصر. وأسوأ ما حدث فى تلك الفترة قرارات اللورد دنلوب المستشار الإنجليزى للمعارف، التى أسلفنا الإشارة إليها، والتى لابد وأن تكون ملك قد تابعتها باهتمام لما لها من تأثير على عملها ومستقبلها كمدرسة.

تلك كانت فترة من أحلك فترات التاريخ المصرى المعاصر، ولا شك أنها بعثت فى المصريين روح الشك فى النوايا الأوروبية، والحذر من تحركات العالم الغربى، ولعلها أيقظت فى أعماقهم العقد النفسية التى ورثوها عن أجدادهم منذ الحروب الصليبية. وأصبح المصريون منذ ذلك التاريخ يترددون كثيرا فى النقل عن الغربيين، وترتفع أصوات البعض متهمة من يتحمس للمدنية الغربية والتقدم العلمى الغربى، بالخيانة. وهذا بالضبط عكس ما حدث قبل نصف قرن، أثناء حياة واحد من أهم المثقفين المصريين، رفاعة رافع الطهطاوى.

رفاعة الطهطاوى .. رائد الاستنارة

إذا اعتبرنا الفكر العربى المعاصر يبدأ من القرن التاسع عشر، فان افتتاحية ذلك القرن جاءت ببشرى تؤذن ببداية تحرر المرأة العربية من إسار الجهل والبطالة، وذلك فى كتاب رفاعة رافع الطهطاوى "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"، الذى صدرت طبعته الأولى فى أكتوبر من عام ١٨٣٤م . فى هذا الكتاب قرأ المصريون لأول مرة عبارات تعبر عن إعجاب الطهطاوى بما وصلت إليه المرأة الفرنسية من تمدين وثقافة، ومالها من منزلة عند الرجل. ويبدى الطهطاوى إعجابه على وجه الخصوص بالفرنسيات المثقفات، ويدافع عن الاختلاط بين النساء والرجال فى المجتمع الفرنسى، منكرا أن يكون سببا للفساد أو "اللخبطة" كما يسميها:

"إن وقوع "اللخبطة" بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة أو الخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك فى المحبة والالتئام (الوئام) بين الزوجين. وقد جرب فى بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة (الطبقة) المتوسطة من الناس، دون نساء الأعيان والرعاع"(٢٧) .

(٢٧) "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة.

ويقف الطهطاوى مندهشا للمعاملة الطيبة التى تلقاها النساء فى فرنسا، فلا حجاب ولا ضرب ولا إهانة ولا مذلة، بل تعتبر المرأة زينة ذلك المجتمع، فيقول:

"ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة حسان المسايرة والملاطفة، يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال فى المتنزهات وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المجال، سواء الأحرار (غير المتزوجات) وغيرهن، خصوصا فى يوم الأحد"(٢٨).

ولد الطهطاوى فى طهطا بالصعيد، عام ١٨٠١م، نفس العام الذى عادت فيه الحملة الفرنسية إلى فرنسا ،ثم وصل إلى القاهرة عن طريق المراكب الشراعية، ليلتحق بالأزهر وهو فى السادسة عشرة من عمره. وفى الجامع الأزهر التقى الطالب الطهطاوى بالشيخ حسن العطار، الذى كان قد عمل لفترة كمدرس لغة عربية للفرنسيين، واستفاد من تلك التجربة فطالب بتغيير أحوال البلاد. ويعجب الشيخ الأزهرى بتلميذه فيرعاه، ويشجعه على البحث والاطلاع، ويرشحه لمحمد على ليرسله عام ١٨٢٦م، مع شيخين آخرين مصاحبين للمبعوثين الأتراك والجراكسة، إلى باريس ليعظوهم ويؤموا صلواتهم. كان الطهطاوى قد أنهى دراسته بالأزهر وعين مدرسا به وواعظا وإماما بالجيش، وعندما سافر إلى "باريز" كان فى الخامسة والعشرين من عمره .

(٢٨) المرجع السابق.

من حديث الطهطاوى عن الفرنسيين نشعر أنه خالطهم وحضر حفلاتهم وشاهد مسارحهم ورقصاتهم، وأعجب بهم أشد الإعجاب، وتمنى أن ينتقل الكثير من صفاتهم وعاداتهم إلى المجتمع العربى. انه ينتمى إلى الجيل الذى لم يعاصر الحملة الفرنسية ولكنه بالقطع سمع أخبارها من أسلافه، وعندما شب عن الطوق وجد الفرنسيين من حوله فى المجالات التى استدعاهم محمد على ليدربوا المصريين عليها. وأول ما لفت انتباه الطهطاوى فى النساء الفرنسيات كان سفورهن، فهو يصف مظهر المرأة فى مارسيليا بكل دقة، ودون أن يبدى استياءً أو يهاجمهن:

"وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته واليدين أقرب إلى المنكبين ."(٢٩)

سبق الطهطاوى عصره، بل ومازال بعض أبناء القرن الحادى والعشرين متخلفين عنه. وهو ما ينفى التهم الظالمة التى يوجهها البعض إلى الإسلام كعقيدة. فهاهو شيخ متخصص فى تدريس الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى، لا يجد حرجا فى أن يدافع عن شعب من "الفرنجة" لابسى القبعة، أحفاد الصليبيين والبونابرتيين، ويعلن أن قول البعض "جمال المرء عقله وجمال المرأة لسانها، لا ينطبق على تلك البلاد، فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها

(٢٩) المرجع السابق.

وفهمها وعن معرفتها"[٣٠]. والسبب وراء ذلك الموقف المتحضر للطهطاوى هو فهمه العميق للعقيدة الإسلامية، وتسلحه بثقافة عربية وضعته على الطريق الصحيح. فما يبهرنا اليوم (فى القرن التاسع عشر) كان موجودا عند أجدادنا العرب، ولكن رياح الغزاة من مماليك وعثمانيين وغيرهم عصفت بجذورنا، فجفت أغصان حياتنا وذبلت ثمارها. إن الطهطاوى يفاجئ معاصريه بالدفاع عن الفرنسيين، فرغم أنهم لا يشعرون بما يشعر به المصرى من غيرة شديدة على نسائه، يقول الطهطاوى:

"إن مادة العرض التى تشبه فيها الفرنساوية العرب (القدامى) هو اعتبار المروءة، وصدق المقال، وغير ذلك من صفات الكمال. ويدخل فى العرض أيضا العفاف، فانهم (الفرنسيون) تقل فيهم دناءة النفس، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب والمركوزة فى طباعهم الشريفة .."

ترجمت كتابات الطهطاوى إلى اللغة التركية، ورغم ذلك نجد فيها نقدا صريحا للترك (العثمانيين) لا نجده بعد ذلك فى كتابات ملك حفنى ناصف التى تبدى إعجابها بهم وتعتبرهم مثلا أعلى يستحق الاقتداء به فى كل شىء.

لقد أدرك الطهطاوى ببصيرته النافذة أن مصر، والشرق وأهل الإسلام جميعهم، فى حاجة إلى نقلة حضارية توقظهم من السبات

(٣٠) المرجع السابق.

العميق الذى أرغمهم العثمانيون عليه، وأن سبيلهم إلى ذلك لن يكون إلا التخلص من طغيان الحكم الفردى والاستبداد، عن طريق الديموقراطية الغربية التى تتكون من الدستــور والبرلمان، أى الحرية السياسية.

وهو أصدق من طالب بالحرية حتى وقته والى يومنا هذا حيث اعتبرها لا تتجزء، فوفقا للشريعة الإسلامية الصحيحة يقول الطهطاوى:

"المرأة ..(مثل الرجل) سواء بسواء، أعضاؤها كأعضائه، وحاجتها كحاجته، وحواسها الظاَهرة والباطنة كحواسه، وصفاتها كصفاته، حتى كادت الأنثى أن تنتظم فى سلك الرجال! فإذا أمعن العاقل النظر الدقيق فى هيئة الرجل والمرأة، فى أى وجه كان من الوجوه، وفى أى نسبة من النسب، لم يجد إلا فرقا يسيرا يظهر فى الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما، فالذكورة والأنوثة هما موضع التباين والتضاد" [٣١]. وقد طبق الفعل بالقول، وتعهد على نفسه فى عقد زواجه بألا يتزوج على زوجته، وألا يؤذى مشاعرها بضرة طوال حياتها، والتزم بعهده، ومازال عقد زواجه الفريد محفوظا بدار الكتب ليشهد على تمدن المسلمين الذين يعرفون دينهم الصحيح.

كان رفاعة الطهطاوى من أوائل المفكرين العرب المعاصرين الذين أدركوا طبيعة الاختلاف النوعى بين الجنسين (ما يطلق عليه

(٣١) "المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين" الطهطاوى. المرجع السابق.

اليوم لفظ "الجندرة" أو الإختلاف النوعى)، وفقا لما جاء فى القرآن الكريم و"ليس الذكر كالأنثى"، وأن هذا الاختلاف النوعى لا يترتب عليه أي تمييز عنصرى. وكان أول من طالب بتعليم الفتيات وتشجيع النساء وتدريبهن على العمل فى الحرف الشريفة، حتى لا يعانين من البطالة، وهى أخطر عليهن من الخروج إلى الحياة العامة، ونشر ذلك فى كتابه "المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين" الذى صدر عام ١٨٧٣م.

كانت ثقافة الطهطاوى الإسلامية هى التى تنير له الطريق إلى الحق، ففى رده على الأصوات المنكرة التى تزعم أن رسول الله نهى عن تعليم المرأة، يقول:

"كيف ذلك، وقد كان فى أزواجه، (ﷺ)، من تكتب وتقرأ كحفصة بنت عمر، وعائشة بنت أبى بكر .... ولم يعهد أن عددا كبيرا من النساء ابتذلن بسبب آدابهن ومعارفهن، على أن كثيرا من الرجال أضلهم التوغل فى المعارف"(٣٢)، ثم ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم، طلب من امرأة عربية تدعى الشفاء، كانت تعلم النساء فى عهده، أن تعلم حفصة، إحدى زوجاته، رقية النمل، كما علمتها الكتابة. وكان الطهطاوى من الشجاعة بحيث وصف أعداء المرأة بالتغالى فى الغيرة على نسائهم، والخضوع للتقاليد البالية التى تخلفت عن الجاهلية، ولم يشأ المسلمون أن يتخلصوا منها، رغم مرور القرون العديدة.

---

(٣٢) المرجع السابق .

الأفغانى .. باعث الثورة

"أنظروا أهرام مصر وهياكل منفيس، وآثار طيبة ومشاهد سيوه، وحصون دمياط، فهى شاهدة بعظمة آبائكم، وعزة أجدادكم".

لا يمكن الحديث عن التغيرات التى طرأت على فكر الطليعة المصرية دون ذكر المفكر الإسلامى الكبير جمال الديـــن الأفغانـــى (١٨٣٨-١٨٩٧). ولد الأفغانى فى قرية سعد آباد عام ١٨٣٩ وانتقل مع أبيه على كابول عاصمة أفغانستان، ووصل إلى مصر عام ١٨٧٠م فى عهد الخديوى إسماعيل، منفيا من الهند، بعد أن حاربه الإنجليز وأحاطوه بالجواسيس. كان شابا يافعا فى الثانية والثلاثين من عمره، يؤمن إيمانا لا يتزعزع بأن الدول الإسلامية لا يمكن أن تستعيد أمجاد الأمة الإسلامية إلا إذا تحررت من استبداد حكامها ومن الاحتلال الغربى، وتعاونت على تأسيس الجامعة الإسلامية. إلا أنه لم يمكث بمصر سوى أربعين يوما اتجه بعدها إلى الآستانة. وفى مارس ١٨٧١م عاد مرة ثانية إلى مصر وتقدم إلى الأزهر لكى يدرس به، فاستبقاه رياض باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت وأجرى عليه راتبا شهريا قدره ألف قرش. وقد بقى جمال الدين فى مصر تسعة أعوام التف حوله تلاميذ ومريدون من صفوة شباب مصر الذين سيكون لهم جميعا أدوار هامة، تأثروا فيها بوضوح بذلك المفكر الثورى الفذ؛ ومن أشهر هؤلاء أحمد عرابى والشيخ محمد عبده وسعد زغلول وحفنى ناصف وأحمد لطفى السيد، الذين أقاموا حوله تجمعا ثقافيا، وكان الأفغانى يجتمع بهم فى بيته يبعث فيهم الثورة على الاستبداد، أو"يوزع السعوط بيمناه والثورة بيسراه". وكان يتألم للحال التى وصل إليها المصريون على يد الحكام الأتراك والخديويين، فيخطب فى تلاميذه مذكرا لهم بماضى بلادهم العظيم:

"أنظروا أهرام مصر وهياكل منفيس، وآثار طيبة ومشاهد سيوه، وحصون دمياط فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم".

"هبوا من غفلتكم! اصحوا من سكرتكم! عيشوا كباقى الأحرار سعداء" .

وعندما ارتفعت الأصوات مرددة ما كان جمال الدين يلقنه تلاميذه، لم يطق الخديوى توفيق ذرعا ونفاه بإيعاز من الإنجليز إلى الهند فى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٨٧٩م، بحجة "أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا". غادر الأفغانى مصر بعد شهرين من عزل الخديوى إسماعيل، وأقام فى حيدر آباد بالهند حتى نهاية الثورة العرابية. وفى عام ١٨٨٣م غادر الأفغانى الهند إلى لندن ثم إلى باريس، وكان الشيخ محمد عبده قد نفى بعد فشل الثورة العرابية إلى بيروت فى ٢٤ أغسطس عام ١٨٨٢م، فلحق بأستاذه بباريس، وأصدرا معا جريدة العروة الوثقى، وكان قاسم أمين (المبعوث للحصول على إجازة القانون من فرنسا) فى ذلك الوقت، يعاونهما. وبعد عدة تنقلات بين أوروبا وفارس والبصرة دُعِى الأفغانى إلى الآستانة من قبل السلطان عبد الحميد فشد الرحال إليها. وهناك تكاثرت عليه المؤامرات والدسائس ومرض مرضا شديدا توفى بعده عام ١٨٩٧م.

مات الأفغانى فى الآستانة وحيدا بلا أصدقاء ولا زوجة. كان يحث تلاميذه على أن يأخذوا عن الحضارة الغربية إيجابياتها ومزاياها العديدة، ويتركوا عيوبها التى لا تتفق مع شريعتهم ولا

تقاليدهم ولن تجر عليهم إلا الويلات. كان يعتقد أن "السجن لطلب الحق من الظالمين العتاة رياضة، والنفى فى ذلك السبيل سياحة، والقتل شهادة، وهى أسمى المراتب".

وتكمن أهمية ذلك المفكر الثائر، الذى منحه البعض لقب (حكيم الإسلام)، فى أنه رفض الادعاء الذى كان وما زال سائدا إلى اليوم بين علماء الدين، وهو أن باب الاجتهاد أغلق فى الإسلام بعد وفاة الأئمة الأربعة. وهو القائل "إننى لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل مالك وأبى حنيفة وابن حنبل والشافعى، وعاشوا إلى اليوم، لداموا مجدين مجتهدين، يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم وتمنعهم ازدادوا فهما وتدقيقا".

ولا جدال فى أن فكر جمال الدين الأفغانى، لو كان اتخذ مجراه الطبيعى بين المثقفين المسلمين، دون أن يعوقه استبداد الحكام المسلمين وعسف الاحتلال البريطانى، لكانت أحوال الشعوب الإسلامية تغيرت تماما، ولكان مثقفوهم تداركوا الأخطاء الفاحشة التى أساءت للدين الإسلامى وشوهت صورته منذ عهد المماليك والعثمانيين، ومازالت تعيش إلى يومنا هذا.

إمام الإصلاح: الشيخ محمد [redacted]

"واعلموا: أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم !!".

شخصية أخرى عايشتها ملك حفنى ناصف وتأثرت بها هى الشيخ محمد عبده (١٨٤٩م-١٩٠٥م) مفتى الديار المصرية فى ذلك الوقت، كان والدها حفنى ناصف على صلة وثيقة به، حتى أنها نظمت قصيدة فى رثائه عندما توفى فجأة عام ١٩٠٥م بمدينة الإسكندرية. ويوصف الشيخ محمد عبده بأنه واحد من أعظم رجال مصر في العصر الحديث، وبأنه زعيم الإصلاح الدينى، وفى كتاباته دعا إلى التجديد والإصلاح ونشر العدالة والتسامح الدينى وحارب الشعوذة والتخلف.

ولد الأستاذ الإمام محمد عبده بمحلة نصر مركز شبراخيت (مديرية البحيرة)، وتلقى العلوم الإسلامية بالجامع الأحمدى بطنطا ثم بالأزهر. نال الشهادة العالمية عام ١٨٧٧م (وكان يتبع المذهب المالكى) وعين مدرسا للغة العربية بمدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن. فى الأزهر التقى الإمام بالمفكر الإسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى، ودرس عنه العلوم المنطقية والعقلية والفلسفية، فانجذب إليه وأصبح من أنبغ تلاميذه. ولكن الأفغانى لم يبق فى مصر طويلا إذ أصدر الخديوى توفيق بعد نفى الخديوى إسماعيل أمرا بطرده من البلاد وامتد غضب الخديوى إلى تلميذه محمد عبده فأقيل من مدرسة الألسن التى كان يدرس بها، وأعيد إلى بلدته فى البحيرة. وسرعان ما عاد وعين محررا لجريدة "الوقائع المصرية"، فضم إليها سعد زغلول والهلباوى كمحررين.

لم ينج فضيلة الشيخ الإمام من تقلبات العصر وصدماته، فعندما قامت ثورة عرابى كان من مؤيديها وما إن دخل الإنجليز مصر حتى ألقوا القبض عليه وحوكم في سبتمبر ١٨٨٢م وحكم عليه بالإبعاد (النفى) لمدة ٣ سنوات، فاختار سوريا ليقيم بها (ودرس بمدارسها). وبعد انقضاء مدة الحكم سافر الشيخ محمد عبده إلى باريس ليلتقى بأستاذه الشيخ جمال الدين الأفغانى، ولينشئا معا جمعية وجريدة "العروة الوثقى". وهناك يشرع الشيخ الأزهرى فى تعلم اللغة الفرنسية ويلازمه الطالب قاسم أمين الذى يتولى الترجمة والمعاونة فى إصدار الجريدة وتلقى العلم على يدى الشيخ الجليل. وفى عام ١٨٨٧م يعود الإمام إلى بلده مصر بعد أن يصدر الخديوى توفيق أمرا بالعفو عنه، ويعمل فى القضاء الأهلى ويكتب فى جريدة الأهرام، ثم يعين مستشارا بالاستئناف عام ١٨٩٠م ومفتيا للديار المصرية. وفى عام ١٨٩٢م يتولى الشيخ محمد عبده رئاسة الجمعية الخيرية الإسلامية التى تقوم بإنشاء عدة مدارس أهلية لتعليم أبناء العائلات "المستورة"، فى القاهرة والإسكندرية وأسيوط وطنطا.

كانت للأستاذ الإمام محمد عبده فتاوى مضيئة، تخطى بها فقهاء السلف وأدهش بها فقهاء عصره، وقد رأى أن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة" (البقرة ٢٢٨) أما هذه الدرجة فهى درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"

(النساء: ٣٤). إن القوامة ليست لكل الرجال على كل النساء، وإنما هى فى نطاق الأسرة للرجل على من ينفق عليهن من النساء، وطالب بتعليم المرأة "كل ما هو ضرورى ولازم لنهضة الأُمة و"الملة" ونادى بتقييد حق الرجل فى الطلاق، وبوجوب التحكيم بين الزوجين المتخاصمين. "واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيدا لغيرهم" .

أما أخطر فتاوى الإمام محمد عبده ففى تعدد الزوجات، حيث رأى جواز منع تعدد الزوجات بقانون تصدره الدولة "فلأن شرط التعدد هو التحقق من العدل وهذا الشرط مفقود حتما، فإن وجد فى واحد من المليون فلا يصح أن يتخذ قاعدة، ومتى غلب الفساد على النفوس صار من المرجح ألا يعدل الرجال فى زوجاتهم جاز للحاكم أو للعالم أن يمنع التعدد مطلقا، مراعاة للأغلب". والاستثناء الوحيد إذا كانت الزوجة عاقرا فليس من الحق أن يمنع زوجها من أن يضم إليها أخرى.

وقد تبنى الشيخ محمد عبده منهج الإصلاح كضمان للاستقلال بدلا من الإثارة السياسية التى كان مصطفى كامل يتبعها، ومن أجل هذا واجه اتهامات عديدة، وهو لا يزال على قيد الحياة مثل التنكر للعرابيين ومقاطعة أستاذه الشيخ جمال الدين الأفغانى! ومثل مهادنة الإنجليز وعقد صداقة وطيدة مع اللورد كرومر، كما اتهمه آخرون بالوهابية والزندقة!!. ووصل الأمر إلى حد أن قامت إحدى الجرائد بتزوير ونشر صور شمسية للشيخ بصحبة نساء أجنبيات، وقد تمت

محاكمة صاحب الجريدة وصدر الحكم عليه بالسجن أربعة أشهر.
وفى أواخر أيامه توترت العلاقة بينه وبين الخديوى عباس الثانى.
وفى الثاني عشر من يوليو عام ١٩٠٥ كان الشيخ محمد عبده بالإسكندرية وهناك فاضت روحه إلى بارئها وشيعت الجنازة من محطة الرمل إلى شارع النبى دانيال ومنه إلى محطة باب الحديد ليودع النعش فى القطار إلى القاهرة. وفى القاهرة سار الموكب من محطة مصر يتقدمه فرسان البوليس ووراءه النعش مغطى بشال كشمير وخلفه شيوخ الأزهر ومالا يقل عن ثلاثة آلاف من الطلاب، حسب وصف جريدة الأهرام.

أحمد لطفى السيد .. أستا[redacted]

"فحسبى أن أقرر من غير محاباة أنها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر بل هى تعطينا فى كتاباتها صورة الكاتبات الغربيات اللاتى تفوقن على كثير من الكتاب"

مقدمة "النسائيات"

ومن الرجال الذين لعبوا دورا مؤثرا فى حياة ملك أحمد لطفى السيد (١٨٧٢م-١٩٦٣م). وهو واحد من رواد الفكر المصرى المعاصر. ولد بقرية برقين بمديرية الدقهلية. تخرج فى مدرسة (كلية) الحقوق عام ١٨٩٤م، وعمل بعد تخرجه وكيلا للنيابة. عام ١٩٠٥م استقال من الوظيفة الحكومية ليتفرغ للعمل السياسى، ويشارك فى الحركة الوطنية مع مصطفى كامل، ولكنه تركه فيما بعد.

وفى العام ١٩١٥م عين مديرا لدار الكتب حتى عام ١٩١٨م. ومع بدايات ثورة ١٩١٩م استقال لطفى السيد من منصبه وانضم إلى الثوار. وقد تقلد أحمد لطفى السيد عدة مناصب وزارية فعين مديرا للجامعة المصرية الحديثة (جامعة فؤاد الأول ثم القاهرة) عام ١٩٢٥م (وعاد إليها مرتين بعد ذلك)، ووزيرا للمعارف عام ١٩٢٨م، ووزيرا للدولة عام ١٩٣٧م، ووزيرا للخارجية عام ١٩٤٩م، وقد عين نائبا لرئيس الوزراء وعضوا بمجلس الشيوخ وبمجمع اللغة العربية ثم رئيساً له. وفى عام ١٩٥٨ منحته الحكومة المصرية جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية. كان رفيقا لسعد زغلول وحفنى ناصف وقاسم أمين، جميعهم تتلمذوا على الشيخ محمد عبده، وحضروا مجالس الأفغانى، وكانوا يلتقون فى الآستانة فى بيته بعد أن طرده من مصر الخديوى توفيق.

كان لطفى السيد من الجيل الجديد الذى نهض بعد فشل ثورة عرابى، ولكنه اختلف مع مصطفى كامل ثم انصرف عنه، إيمانا بأن

التبعية للدولة العثمانية لا طائل من ورائها، وان الاستقلال والحكم الدستورى هما الباب الوحيد المفضى إلى نهضة مصر. شارك فى تأسيس حزب الأمة ورأس تحرير صحيفته "الجريدة" مـن عام ١٩٠٧م إلى عام ١٩١٤م ، وجعلها منتدى لأهل العلم والأدب ومنبرا للرأى الحر والفكر الوطنى ومدرسة فكرية جذبت إليها النابهين من الشباب الذين تتلمذوا على يديه وقاد الحركة الثقافية فى الجيل التالى.

وقد تنبه أحمد لطفى السيد إلى موهبة "ملك" مبكرا وفتح لها صفحات "الجريدة" لتكتب فيها بابا ثابتا هو "النسائيات" ثم شجعها على إلقاء المحاضرات بمقر الجريدة على النساء اللاتى كن محرومات من حق التعليم حتى ذلك الوقت. وقد انقطعت "ملك" عن الكتابة بعد إغلاق "الجريدة" إبان الحرب العالمية الأولى.

الشيخ على يوسف وفضيحة زواجه..

ومن أهم القضايا الاجتماعية التى حدثت عام ١٩٠٤م حادثة زواج الشيخ على يوسف (١٨٦٣-١٩١٣م)، رئيس تحرير جريدة "المؤيد" من صفية بنت الشيخ عبد الخالق السادات. وقد أثارت تلك الحادثة زوبعة كبيرة فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ولاشك أن ملك التى كانت فى الثامنة عشرة من عمرها قد تابعتها، وتأثرت بما سببته من مناقشات عاصفة. إن حادثة زواج الشيخ على يوسف "أقامت مصر وأقعدتها، وقسمت الرأى العام والساسة، وأهل الرأى، وعامة الناس... ذلك إنها كانت صدمة عنيفة للناس فى الكثير من

معتقداتهم القديمة عن "الشرف" و"الحسب والنسب"! وما إليها من أخلاق اجتماعية راسخة، وضعتها هذه القضية موضع التجربة والتفسير الجديد" (٣٣).

وقعت الحكاية بعد شهرين فقط من إعلان "الاتفاق الودى" بين حكومتى فرنسا وإنجلترا الاستعماريتين، عندما تقدم الشيخ على يوسف صاحب جريدة "المؤيد" ورئيس تحريرها، لخطبة صفية "صغرى بنات السيد عبد الخالق السادات. وعلى الرغم من مكانة الشيخ على يوسف الأدبية الرفيعة وحصوله على أرفع أوسمة الدولة ونياشينها، وشهرته الكبيرة وعلاقاته الوطيدة برجال الأدب والسياسة وعلى رأسهم الخديوى عباس الثانى، فان السيد السادات لم يرض بإتمام الخطوبة إلا بعد أن توسط للعريس بعض الوزراء والكبراء. وبعد أربع سنوات من مماطلة الأب فى تحديد موعد الزفاف، يخطف الشيخ على يوسف خطيبته ويعقد عليها فى بيت أحد أقاربها دون علم والدها. وتتطور الأمور من سئ إلى أسوأ، فيقدم الشيخ على يوسف إلى المحاكمة بتهمة التغرير بابنة السادات، وتبحث النيابة الموضوع لتجد أن العروس قد بلغت سن الرشد ومن حقها شرعا أن تزوج نفسها. كما أن القران عقد بحضور عدد كبير من أقاربها مما ينفى شبهة التغرير عن "العريس". وهكذا تصدر النيابة قرارا بحفظ البلاغ. ولكن والد العروس يصر على المضى قدما فى رحلة العناد ويرفع دعوى أمام المحكمة الشرعية بإبطال الزواج بسبب عدم

(٣٣) أيام لها تاريخ. احمد بهاء الدين. دار الشروق .الطبعة الثانية ١٩٨٥ . م.

التكافؤ بين الزوجين فى الإسلام (!) والنسب والمال والحرفة. فالعريس (خريج الأزهر) يمتهن حرفة الجرائد وهى "أحقر الحرف .. وعار وشنار عليه!" ولكى يثبت المحامى هذه التهم الشنيعة على رئيس تحرير "المؤيد" فقد وجه إهانات بالغة للشعب المصرى كله. فالشيخ على يوسف "أعجمى" ليس له نسب معروف فى الإسلام إلا "يوسف" فقط .. أى أبوه! وهو نشأ فى قرية "حقيرة جدا تدعى بلصفورة كل أهلها أعاجم!!" ثم أعلن المحامى بكل صفاقة أن سكان مصر كلهم أعاجم ماعدا قلة من الأسر، ومن أسباب وضاعة الشيخ على يوسف أنه يضطر للعمل لكسب رزقه! والأدهى أنه يحترف "حرفة الصحافة (وهى) فى ذاتها دنيئة ويحرمها الدين الإسلامى"، وذلك" لأنها تقوم على الجاسوسية والإشاعة وكشف الأسرار، وهذا منهى عنه شرعا!" .

تلك كانت عقليات البعض منذ قرن كامل فى مصر، التى وصلت إلى حد أن يصدر القاضى حكما بالتفريق بين الشيخ على يوسف وزوجته وفسخ عقد الزواج، تأييدا واقتناعا بكل ما ادعاه والد العروس ومحاميه وأضاف فى حيثيات الحكم "التاريخية" عن الزوج "إن فقره فى بدئه وان زال عنه الآن باكتساب الغنى، إلا أن عاره لا يزول عنه!!". هكذا كان المجتمع المصرى ينقسم إلى طبقات لا يجوز لأى منها أن تتعدى حدودها وتصعد أو تهبط إلى مستوى الطبقات الأخرى!

ولا يسكت الشيخ على يوسف وإنما يستأنف الحكم ولكن قاضى محكمة الاستئناف يصدر بدوره حكما يؤيد الحكم السابق!!

الطريف أن السيد السادات ما لبث أن عاد، بعد انتصاره الساحق فى أروقة المحاكم، فوافق على زواج ابنته من الشيخ على يوسف، وتم الزواج فعلا، وانتقلت "صفية" إلى بيت زوجها لتعيش معه!

وهكذا كان يُنظر لعامة الشعب والأغلبية الساحقة فيه من الفقراء؛ نظرة الاحتقار والرفض ليس من المحتلين الأتراك أو الإنجليز فقط وإنما من رجال الدين والقضاة وبعض المثقفين أيضا!. وهكذا كان البعض ينظر للصحافة على أنها مهنة ينهى عنها الشرع! أما حال الأدباء فلم يكن أفضل حيث "كان الأديب فى ذلك الزمان كل صفاته أن يكون حافظا فكاهات القدماء ونوادر الخلفاء، بارعا فى التلاعب بالكلمات .. هو لا يلبس طرطورا ولا يقرع طبلة ولا يدور على المقاهى (مثل الأدباتى) .. ولكنه يمارس نفس العمل تقريبا فى بيئة أكثر احتراما: يجلس فى الندوات التى تعقد فى بيوت الأغنياء، يدلى بفكاهاته وأسجاعه وينشد أبيات الشعر القديم .. وغالبا ما يكون طعامه أو معاشه على هذا الغنى صاحب الندوة" (٣٤).

إننا لا نجد صدى لتلك القضية الاجتماعية الخطيرة لدى ملك فى كتاباتها، على الرغم من أن الزواج بشكل عام كان موضوعها الأثير، ومع أنها كانت متابعة نشطة للأحداث، ونظمت قصيدة فى رثاء الشاعرة عائشة التيمورية عندما توفيت قبل ذلك بعامين، ألقتها على طالبات مدرسة السنية، ونشرت بعد ذلك فى الصحف بعض

(٣٤) المرجع السابق صفحة ٩.

القصائد الأخرى. ولسوف تبدأ فى تحرير بابها المنتظم "النسائيات" عام ١٩٠٧م بعد تأسيس "الجريدة" فى مارس من ذلك العام. ولكن لابد وأنها تابعتها على لسان والدها حفنى ناصف الذى كان عضوا بارزا فى الحياة الثقافية فى ذلك العصر، أو لعلها تابعتها على صفحات جريدة "المؤيد" التى كان رئيس تحريرها بطل القصة، أو الصحف المنافسة الأخرى التى كالت له التهم ولم تؤازره ولم تنظر للقضية باعتبارها مثالا صارخا للتفرقة الطبقية والعنصرية التى كانت تهيمن على عقول وأفئدة أبناء العصر وتتحكم فى مصائرهم!

حفني ناصف .. الوالد المعلم

بالإضافة إلى ذلك كان هناك تأثير والدها التربوى اللغوى والقاضى الأديب الأستاذ حفنى ناصف (١٢٧٢-١٣٣٨ هـ=١٨٥٦-١٩١٩م) عليها. والذى لم يكن رجلا عاديا، بل كان أديبا ورياضيا وفنانا وعاشقا للمعرفة فى كل مجال. عاصر ثورة عرابى، وثورة مصطفى كامل، وإرهاصات ثورة ١٩١٩. ولد حفنى (أو محمد حفنى) ابن إسماعيل ابن خليل بن ناصف ببركة الحج (من أعمال القليوبية - بمصر) ثم انتقل إلى القاهرة ليتعلم بالأزهر، وبمدرسة دار العلوم.

وكان فى بداية حياته وهو فى الأزهر الشريف يرتدى العمامة والجبة والقفطان، ولكنه غيرهما بعد ذلك إلى الزى الغربى بعد أن ألحق بسلك القضاء الأهلى. وعندما ولدت ملك كان والدها يعمل سكرتيرا لشفيق منصور باشا، لكنه تنقل بين أعمال كثيرة، فعمل لفترة مدرسا للغة العربية بمدرسة "العميان والخرس"، وتقلب فى مناصب التعليم حتى وصل إلى مفتش أول اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية. تخرج حفنى ناصف فى مدرسة الحقوق (الإدارة والألسن سابقا) بعد ميلاد "ملك" بعام واحد، ودرس بها لفترة مادة الإنشاء القضائى، وكان من بين تلاميذه الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل، وأمير الشعراء أحمد شوقى. ثم تقلب فى مناصب القضاء حتى أصبح قاضيا وتولى منصب النائب العمومى والقضاء الأهلى ٢٠ عاما. عاصر رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك، وكان واحدا من تلاميذ جمال الدين الأفغانى، الأب الروحى لزعماء

النهضة المصرية، وتلميذه الشيخ محمد عبده، ومن رفاق إسماعيل صبرى وسعد زغلول وحافظ إبراهيم وقاسم أمين وأحمد لطفى السيد وغيرهم من رجالات الحركة القومية في مصر أوائل القرن العشرين. وله بينهم مراسلات ومداعبات شعرية خاصة مع حافظ إبراهيم. شارك فى الثورة العرابية بخطب كان يكتبها ويلقيها ويوزعها على خطباء المساجد والشوارع والمدارس، وكان يكتب فى بعض الصحف باسم مستعار هو (إدريس محمدين). قام برحلات إلى سوريا والآستانة واليونان ورومانيا والنمسا وألمانيا وسويسرا والسويد والبلاد العربية للدعوة للقضية الوطنية، وكان من أوائل الدعاة إلى إنشاء أول مجمع لغوى مصرى والى أول جامعة علمية مصرية، وعند تكوين الجامعة الأهلية عين حفنى ناصف أول رئيس لها عام ١٩٠٨م، وكانت تسمى بالجامعة المصرية ثم جامعة الملك فؤاد وكان من أوائل المدرسين بها وكان عميد الأدب الدكتور طه حسين من بين تلاميذه. كذلك شارك فى إنشاء المجمع اللغوى الأول، وقد ترك بعض المؤلفات فى "تاريخ الأدب" و"حياة اللغة العربية" بالإضافة إلى ديوان شعر جمعه ابنه مجد الدين بعد وفاته.

وكانت لهذا الوالد مواهب متعددة إلى جانب اهتمامه باللغة وبالعلوم، فكان يجيد العديد من الألعاب الرياضية ولا سيما الغطس والسباحة، وكان يعبر النيل سباحة ذهابا وإيابا مستعملا ذراعا واحدة، حاملا ثيابه بالأخرى. وقد صادف أن كان بمدينة مرسيليا وقرأ عن مباراة فى السباحة فانضم إليها وفاز بالمركز الثانى (٣٥)،

---

(٣٥) "حفنى ناصف. بطولته فى مختلف الميادين". محمود غنيم. سلسلة أعلام العرب ٤٧

كذلك كان مهتما بالموسيقى يجيد العزف وله محاولات فى التلحين والغناء، إلى درجة أن الشيخ سلامة حجازى، أشهر مطربى ذلك العصر، لم يكن يبدأ بالغناء فى حفل يحضره حفنى، بل لابد أن يسبقه حفنى إلى افتتاح الحفل. وقد روى عنه أنه كان يجيد ترتيل القرآن الكريم أيضا. وقد انتدبته المحكمة كخبير لكى يشهد فى نزاع قضائى بين شركتى (بيضافون وجرامافون) وأخذت برأيه. وفى مرة أخرى انتدب ليترجم بين المحكمة ورجل أصم وأبكم عن طريق لغة الإشارة التى أتقنها. قال فيه العقاد:

"كان فكها سريع الخاطر فى النكات البادرة، حافظا لنوادر الظرفاء، وأخبار السلف الصالحين وغير الصالحين، وكان فوق ذلك عالما باللغة، راويا للأشعار، ناظما يجيد النظم، ويأتى فيه بالمعانى الطريفة، والفكاهات المستملحة .."(٣٦) وقد وصفه شكيب ارسلان بأنه " سيد أدباء عصره"(٣٧). أما تلميذه طه حسين فقد قال فيه:

"كان ذكى القلب، خصب الذهن، نافذ البصيرة، حاضر البديهة، سريع الخاطر، ذرب اللسان، وكان أسمح الناس طبعا وأسجحهم خلقا وأرجحهم حلما، وأعذبهم روحا، وأرقهم شمائل، وكان يلقاك فتأنس إلى محضره، ويغيب عنك فتشتاق إلى لقائه..الخ".

جانب آخر أثر فى حفنى ناصف تأثيرا بالغا ولا شك أنه أثر بدوره على نظرته للمرأة وعلاقته بابنته، وهو كثرة أسفاره إلى أوروبا. وقد سافر عدة مرات مبعوثا من الحكومة المصرية ليشارك

(٣٦) المرجع السابق صف ١٢٣ .
(٣٧) "(جريدة الأهرام ٢٣ يناير ١٩٤٠) عن المرجع السابق .

فى مؤتمرات ويقدم فيها أبحاثه ومن أهمها بعثته إلى مدينة فيينا عاصمة النمسا للمشاركة فى مؤتمر المستشرقين عام ١٨٨٦م. وقد توطدت علاقته بالمستشرقين منذ ذلك التاريخ، فكان يسافر كثيرا إلى أوروبا لمقابلتهم إلى جانب أغراض السياحة والاستشفاء .

وقد كان إلى جانب ذلك وطنيا، لا يتأخر عن تأييد حركات مناهضة الاحتلال البريطانى علنا حتى وهو موظف يتقلد منصبا رسميا بالحكومة. وعندما قامت ثورة عرابى كان تلميذا بدار العلوم، وعلى الرغم من إعفائه من التجنيد لأنه كان وحيد أبويه، ولأنه كان من حفظة القرآن، إلا أنه تقدم إلى معسكرات تدريب الشباب لكى يشارك فى الكفاح المسلح ضد جيش الاحتلال. ولم يكتف بذلك بل كان يكتب الخطب الحماسية ويوزعها على طلاب مدرسة الحقوق وعلى أئمة المساجد لكى يلقوها على الجماهير ويلهبوا مشاعرهم الوطنية. وعندما بزغ نجم مصطفى كامل رافقه فى كل خطواته، خاصة فى السنوات الأولى من تحركه، فقد كان مصطفى كامل دائم الاتصال بأستاذه ليستشيره، ويتلقى توجيهاته. وقد مدحه مصطفى كامل فى قصيدة قال فيها:

فإذا أردت أصوغ مدح صفاته ... تملى على صفاته فأقول
ذو فطنة راقت وماضى فكرة ... بوميض برق بلاغة مصقول
إن هز سيف يراعه بين الورى ... فالجهل أكبر جيشه مفلول

كان حفنى ناصف واحدا من رجال عصره الأفذاذ، لدرجة أن البعض طالب بإقامة تمثال يخلد ذكره ويزين واحدا من الميادين

العامة. إلا أنه لم يأخذ حقه من المناصب العليا ومن التكريم أثناء حياته أو بعد وفاته. والسبب موقفه الوطنى المناهض للاحتلال البريطانى لمصر، وعدم ممالأته للسراى (٣٨)، أما السبب الثالث فهو أنه لقى وجه ربه ومصر تغلى بمقدمات ثورة ١٩١٩م. فلم يكتب له أن يشارك فى أحداثها أو يجنى ثمارها.

الجامعة المصرية

ومن أهم الأحداث التى شاركت فيها "ملك" فى تلك الفترة كانت الحملة لجمع التبرعات من أجل إنشاء أول جامعة أهلية فى مصر. كان مصطفى كامل أول من دعا لهذه الجامعة. وتحمس للفكرة رجالات مصر وعلى رأسهم قاسم أمين وسعد زغلول، الذى كان وزيرا للمعارف فى ذلك الوقت، وحفنى ناصف، النائب العام وشاركت ملك بحماس فى تلك الحملة ولم تأبه لاعتراض مستشار التعليم الإنجليزى دنلوب الذى أبدى استياءه من نشاطها خارج المدرسة. وأوقفت الأميرة فاطمة بنت إسماعيل أموالا وأراضى لحساب الجامعة، كذلك أوقف حسن باشا زايد خمسين فدانا لحساب المشروع. وقد عين حفنى بك ناصف أول مدير للجامعة. وأقيم حفل كبير لافتتاح الجامعة حضره قاسم أمين الذى لم يلبث أن توفى فجأة، هو الآخر فى الثالث والعشرين من إبريل، عام ١٩٠٨م أى بعد شهر ونصف من وفاة مصطفى كامل.

---

(٣٨) "حفنى ناصف" محمود غنيم .

وفى إبريل من نفس العام أصدر القنصل الإنجليزى المبعد اللورد كرومر كتابا ألفه عن تجربته فى مصر بعنوان "مصر الحديثة" ينتقد فيه المصريين بشدة ويعلن أن مصير مصر متوقف على مصير المرأة المصرية فمادام مقامها لا يرتفع على ما هو عليه الآن فالأمل ضعيف فى تقدم المصريين. وبالطبع كان الكتاب مليئا بالهجوم الشديد على الشعب المصرى، الأمر الذى أغضب من قرأه من المصريين، وأثار عددا كبيرا من أعضاء الجمعية العمومية، فاجتمعوا وأصدروا بيانا طويلا يحتجون فيه على اللورد وقعه عنهم إسماعيل باشا أباظة وأرسلوا نسخا منه إلى الخارجية البريطانية وإلى بعض النواب الإنجليز.

ولاشك أن ما جاء فى كتاب اللورد الإنجليزى، الذى كانت له الكلمة العليا فى مصر قبل أن يجبر على الاستقالة، أثر على المثقفين المصريين، وجعل البعض منهم يعدل من أفكاره بالنسبة للمرأة ويعيد النظر فيما أصابها من ظلم بعيد تماما عما منحه لها الإسلام من كرامة واستقلال وحقوق مساوية لحقوق الرجل. ومن ناحية أخرى كان لرأى اللورد كرومر الذى أعلنه فى كتابه حول ضرورة تحرير المرأة المصرية ومساواتها بالرجل، رد فعل آخر لدى قطاع من المقاومة الوطنية الذين رأوا أن ما قاله اللورد الإنجليزى كان تدخلا سافرا فى حياة المصريين. وان اللورد ورجال الاحتلال الذين عرقلوا المسيرة الديموقراطية بمصر وكبدوها خسائر هائلة فى المال وحرموا الرجال المصريين من حريتهم فى تقرير مصير بلادهم وحكم أنفسهم بأنفسهم،

لم يكن تبنيهم لقضية المرأة المصرية سوى خديعة أخرى من أخاديعهم ومحاولة مكشوفة للتفريق بين رجال ونساء مصر مثلما حاولوا أن يفعلوا بين الأقباط والمسلمين ولكنهم فشلوا.

إن أنصار الطربوش، استفزهم حديث اللورد الإنجليزي المكروه عن المرأة، وعدوه جارحا لكرامة الرجل المصرى، واعتداءً على الحرمات، وانتقدوا تدخل ذلك الأجنبى، فى شأن لا يخصه، واعتبروا شفقته على المرأة المصرية تطبيقا لسياسة "فرق تسد" التى كانت الحكومة البريطانية تتبعها لتسيطر على مستعمراتها. ويذكرنا موقف هؤلاء بما حدث لقاسم أمين عندما قرأ كتاب الدوق داركور الفرنسى قبل ذلك بعقد واحد، ووجده يهاجم المصريين وينتقد معاملتهم للمرأة المصرية ويرجع تخلفهم إلى حبسهم لها وحرمانها من التعلم والمشاركة فى الحياة العامة. كان هذا الكتاب وراء اهتمام المفكر المصرى بقضية المرأة، وقد بدأ بالحنق على الدوق الفرنسى، وأصدر كتابه "المصريون" عام ١٨٩٤م، باللغة الفرنسية ليدحض آراءه ويرد على افتراءاته. ولما انقشعت غمامة الغضب، عاد إلى الأصول الإسلامية ليكتشف الخطأ الجسيم الذى ارتكبه المصريون فى حق دينهم وبلدهم ونسائهم، وكتب كتابه الشهير "تحرير المرأة" عام ١٨٩٩م، منهيا به قرونا طويلة من صمت وسلبية الرجال المسلمين إزاء الظلم الفادح الذى وقع على نصف أمتهم. إن أهمية كتابات قاسم أمين تكمن فى تلك الضجة واسعة النطاق التى أثارها، والجدل الذى احتدم على كل المستويات بين رجال عصره. وعندما صدر كتاب اللورد كرومر عام ١٩٠٦م، كان الوسط الثقافى فى

مصر مهيئا لتلقى الصدمة الثانية، مما ثبت يقين أنصار القبعة بضرورة تحريك مياه البركة الراكدة قبل أن يصيبها العطن النهائى.

وعند افتتاح الجامعة فى أكتوبر ١٩٠٨م برئاسة الأمير أحمد فؤاد أمر بأن تخصص قاعة للسيدات ليمارسن نشاطهن بها كل يوم جمعة. وكانت ملك تلقى المحاضرات على مئات السيدات فى الجامعة وفى مبنى حزب الأمة. وتحمست السيدة هدى هانم شعراوى فوجهت دعوة للكاتبة الفرنسية مارجريت كليما لإلقاء سلسلة من المحاضرات على النساء بالقاعة التى خصصت لهن. وقامت نبوية موسى بإلقاء محاضرات بعنوان "مواضيع عصرية"، وذلك بعد أن عينها محمد محمود باشا، مدير مديرية الفيوم أول ناظرة لمدرسة حكومية مصرية للبنات، ورشحها أحمد لطفى السيد لتكون ناظرة مدرسة معلمات المنصورة. وللأسف لم تستمر تجربة المرأة فى الجامعة طويلا والسبب أن الطلاب اعترضوا عليها (!) وقام عدد من الطلاب بالتظاهر لمنع النساء من دخول مبنى الجامعة، وأرسل البعض تهديدات بالقتل لعبد العزيز فهمى الذى كان يرأس الجامعة فى ذلك الوقت فما كان من المسئولين إلا الانصياع لهم وإغلاق أبواب الجامعة فى وجه نساء مصر عام ١٩١٢م. واستمرت الجامعة مغلقة فى وجه النساء المصريات حتى العشرينيات، وان لم تتوقف المحاضرات العامة للنساء فى الجمعيات الأهلية وبعض الصحف.

ورغما عن ذلك نجد أن تلك الخطوات الرائدة أثارت حماس نساء ذلك العصر وانتفضن ينشدن المشاركة فى بناء مصر الحديثة. فنجد

ملك تنشر قصيدة شجاعة تهجو فيها قانون المطبوعات عام ١٩٠٩م بكلمات ثورية تنم عما تم فى شخصيتها من تحول. ونجد نساء مصر يتجهن إلى التجمع وحشد طاقاتهن المهدرة بإنشاء الجمعيات الأهلية، فتؤسس هدى شعراوى بمعاونة أميرات البيت المالك، الأميرة عين الحياة والأميرة أمينة حليم، جمعية الرقى الأدبى للسيدات المصريات وجمعية المرأة الجديدة. وتشترك كل من "ملك" وهدى شعراوى ونبوية موسى فى إنشاء الاتحاد النسائى التهذيبى.

الحماية البريطانية على مصر

يمثل اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م الشرارة التى اندلعت منها ثورة الشعب المصرى ضد الاحتلال البريطانى. كانت مصر تعانى من وضع شاذ حيث مازالت تخضع للهيمنة التركية بينما تحتل القوات البريطانية أراضيها. وقد وصلت سلطات الاحتلال إلى ذروة استهانتها بالأمة المصرية عندما رفضت السماح لحاكم البلاد الخديوى عباس الثانى بالعودة من العاصمة التركية، وضغطت على رئيس الوزراء حسين رشدى باشا ليعلن الحرب على ألمانيا وحلفائها ومن بينهم الدولة العثمانية. وعانى المصريون أشد المعاناة دون أن تكون لهم فى تلك الحرب ناقة ولا جمل، ففرضت سلطات الاحتلال العديد من الإجراءات التعسفية مثل الرقابة على الصحف وعلى البريد والأحكام العرفية ومنعت تصدير المواد الغذائية والقمح بالذات للخارج، وأقامت محكمة عسكرية من ضباطها تصدر أوامر التفتيش والاعتقال والنفى دون اعتبار للقوانين المصرية، كان الهدف

منها تعقب الوطنيين الذين يقاومون الاحتلال الأجنبى لبلادهم. وأخيرا أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ديسمبر ١٩١٤م وخلعت الخديوى عن العرش، وولت عمه الأمير حسين كامل بدلا منه. وقد أثارت تلك الإجراءات مشاعر السخط بين المصريين وأدت إلى قيام محاولتين فى القاهرة وفى الإسكندرية لاغتيال السلطان حسين كامل احتجاجا على قبوله المنصب، ولكنه نجا منهما. لقد وصل الأمر إلى أن يعرض السلطان على ابنه الأمير كمال الدين حسين أن يعتلى العرش من بعده ولكن الأمير رفض وظل عرش مصر خاليا بعد وفاة أول سلطان مصرى فى العصر الحديث إلى أن تولاه شقيقه الأصغر أحمد فؤاد الذى لقب بالملك بعد ذلك، وهكذا انتقلت مصر من مرحلة الوالى إلى مرحلة الباشا إلى مرحلة الخديوى ثم السلطان وأخيرا الملك. وقد تلى ذلك مرحلة من التخبط السياسى واليأس الكامل الذى اعترى أبناء الشعب المصرى نتيجة لافتقارهم إلى زعامة وطنية تجمع صفوفهم وتوجههم الوجهة الصحيحة بعد وفاة مصطفى كامل، واضطهاد الإنجليز لزعماء الحزب الوطنى، ومطاردتهم بالنفى أو اللجوء للأستانة فى محاولة يائسة للالتفاف حول عباس الثانى، الخديوى المخلوع، والعودة بحملة تركية يكون هو على رأسها لتحرير مصر من الإنجليز. وبالفعل أرسلت تركيا حملة فى ١٥ فبراير ١٩١٤م إلى الضفة الشرقية للقناة بقيادة جمال باشا، ولكن قوات الاحتلال ردتها خائبة.

لقد احتدم الصراع بين أصحاب القبعة وأصحاب الطربوش وظهرت أبعاده واضحة. إنه صراع على النفوذ والهيمنة على مصر،

واستغلال موقعها الجغرافى الخطير وثرواتها الطبيعية والبشرية. لم يكن صراعا بين مصرى ومصرى، بسبب اختلاف العقيدة الدينية، أو المبادئ السياسية، وإنما كان صراع ديناصورات سيخرج منه أصحاب البلاد، المصريون، خاسرين فى كل الأحوال. ولقد وجد المصريون المثقفون أنفسهم وقد صار البحر من أمامهم والعدو من خلفهم. فإما ألقوا بأنفسهم فى لجة بحر لا يجيدون السباحة فيه ولا قبل لهم بتحمل تبعاته: الاحتلال البريطانى، أو استسلموا لعدو لم يعودوا يطيقونه أو يتحملوا ضعفه وتخاذله وألاعيبه السياسية، التى لا تهدف إلا لمصلحة تركيا وحدها وإن جاء ذلك على حساب مصر. ظهر ذلك واضحا بعد إعلان الحماية البريطانية على مصر وتقهقر الحملة التركية لإنقاذ مصر وتورط تركيا فى الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان. ووجد المصريون الذين كانوا لا يزالون يأملون فى شفاء رجل أوروبا المريض (الدولة العثمانية) وعودة الروح إلى خلاياه، وجدوا أنفسهم متورطين فى التعاون مع مخابرات ألمانيا التى بدأت تتسلل إلى الدول الإسلامية بدعوى جمع كلمة البلاد الإسلامية حول الخليفة (السلطان التركى) على أن تكون كل مملكة مستقلة استقلالا داخليا ولكنها ترتبط بهذا المركز[٣٩]. حتى الخديوى المخلوع عباس الثانى نفسه لم يعد راضيا عن تعاونه مع الأتراك ولا مطمئنا إلى الألمان، فحاول أن يتصل سرا بالإنجليز. أما المعسكر الثانى من المصريين المعارضين لعودة الهيمنة التركية على مصر، على الرغم

(٣٩) ثورة مصر سنة ١٩١٩م" الدكتور عبد العزيز رفاعى. الطبعة الأولى. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . صفحة ٥٨.

من احتفاظهم بالطربوش التركى فوق رؤوسهم، فكانوا أسوأ حالا. لقد تورط بعضهم بإعلان موافقته على الحماية البريطانية على مصر بحجة أن إذعان مصر وتعاونها التام مع إنجلترا أثناء الحرب العالمية الأولى، سيؤدى إلى انسحاب جيوشها من مصر بعد انتهاء الحرب مكافأة لمصر على مساندتها!!(٤٠) ولسوف نجد على رأس هؤلاء رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت حسين رشدى باشا، ومن بينهم أحد أعلام الفكر فى مصر: أحمد لطفى السيد! .

أثرت تلك المرحلة القاسية فى تاريخ مصر على أبنائها الذين انتفضوا ثورة على كرامة بلادهم تحت زعامة سعد زغلول، فى مارس عام ١٩١٩م أى بعد انتهاء الحرب مباشرة، وذلك بعد أن نكثت الحكومة الإنجليزية عهودها، وتراجعت عن الجلاء عن أرض مصر بعد عقد الهدنة فى أكتوبر ١٩١٨م. وأخيرا تنبه مثقفو مصر وأعيانها إلى الحل الأمثل والذى لا حل غيره وارتفعت صيحاتهم مرددة وراء سعد: "**الاستقلال التام أو الموت الزؤام**".

كان المأمول إذا انتصرت ثورة ١٩١٩م التى جمعت كل طوائف الشعب وطبقاته لأول مرة منذ ثورات المصريين على الحملة الفرنسية، أن يصبح شعار "**مصر للمصريين**"، الذى رفعه عرابى، واقعا يؤهلهم لاستعادة أمجاد حضارتهم التى تفوقوا بها على كل الشعوب فى ماضى الزمان، وأن تتحرر عقولهم من سيطرة الفكر

(٤٠) المرجع السابق. الفصل الثانى.

العثمانى الذى أطفأ أنوار مصر لعدة قرون متوالية، من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، وأصاب عقولها بالعقم والتيبس وأبعدهم عن الروح السمحة والاستنارة التى تتميز بها عقيدتهم، إلا أن الإمبراطورية البريطانية ظلت تجثم على صدر مصر، وتحتل أرضها وتتدخل فى أخص شئونها قرابة نصف قرن بعد الحرب العالمية الأولى؛ وظل رجالها يعملون بكل همة على تنفيذ سياسة "فرق تسد"، وذلك ببذر بذور الشقاق والصراع بين المعسكرين، وظل المصريون منقسمين إلى فريقين واتجاهين ورؤيتين سياسيتين انعكستا على موقف كل منهما تجاه القضايا الاجتماعية ومن أهمها قضية المرأة (اتجاه الألافرنكة واتجاه الألاتورك بلغة ذلك العصر). وقد امتد الصراع بين الاتجاهين لينسحب على المرأة المصرية ويجرفها فى طوفانه رغما عنها، فإذا بها تواجه انقسام الرجال على أنفسهم؛ فمنهم من يطالبها بالثورة على الحجاب التركى وتحطيم أبواب الحريم والانطلاق إلى النور والحرية، ومن يطالبها بارتداء الحجاب ويهددها إن هى خلعته، ويتوعدها بعذاب الدنيا والآخرة. ومازال الاتجاهان؛ الليبرالى والمحافظ، يتردد صداهما إلى يومنا هذا، على الرغم من اندحار كل من الطربوش والقبعة.

إن الرجال المصريين، مهما وصلت درجة إعجابهم بالغرب وحضارته، ورغبتهم فى أن تصبح مصر قطعة منه، وعلى الرغم من ارتدائهم البدلة الأفرنجية بدلا من زيهم القديم؛ العمامة والجبة

القفطان، لم يجرؤوا فى أى مرحلة من مراحل تاريخنا كله على استخدام القبعات كغطاء للرأس. كذلك اختفى الطربوش، منذ الخمسينيات، وإن كان كل ما يمثله من تشبث بالفكر العثمانى والخلافة العثمانية لم يختف بعد. وأنصاره مازالت تراودهم أحلام العودة إلى "العصر الذهبى" للخلافة ووحدة المسلمين فى شتى بقاع الأرض تحت لواء طربوش واحد، مع أن نبى الإسلام، صلى الله عليه وسلم، وصحبه جميعا، (ﷺ)، ما عرفوه ولا ارتدوه ولا فرضوا أى زى على المسلمين. والسؤال الحائر بلا جواب: إلى متى تظل تهمتى "التخلف والرجعية" تواجه المعارضين لتحرير المرأة المصرية، وتهمتى "التغربن" والعمالة لأعداء الوطن والدين" تشهر فى وجه من يناصر المرأة، ويحاول أن يعينها على تحطيم أغلال العصور الوسطى، التى لا علاقة لها بالدين ولا بالوطن..؟!

التغيير يفرض نفسه

"إن مصر لم تعد فى إفريقية بل نحن الآن قطعة من أوروبا..!"

الخديوى إسماعيل

ديسمبر ١٨٨٦ كان يوما غير عادى بالقاهرة. تجمعت فى سماء القاهرة وغيومها فى ذلك اليوم الشتائى البارد كل إرهاصات مصر الحديثة: مصر الخديوى إسماعيل التى عمل على أن تكون قطعة من أوروبا وصاح صيحته الشهيرة: "إن مصر لم تعد فى إفريقية بل نحن الآن قطعة من أوروبا!".

وجاءت "ملك" حفنى إلى الحياة لتجد فى انتظارها عالما جديدا يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى نشأت به جداتها وأمها، فمنذ انتصف القرن التاسع عشر ومصر تفتح أبوابها وعقلها وعيونها على الغرب وترحب بهداياه: التصوير الفوتوغرافى (منذ ١٨٥١م)، والسكك الحديدية (منذ ١٨٥٦م)، ومجلس شورى النواب (منذ ١٨٦٦م)، والصحف (منذ ١٨٦٧م)، والمدارس العليا (منذ ١٨٦٨م)، وافتتاح قناة السويس أو البوغاز (منذ ١٨٦٩م)، والأوبرا (منذ ١٨٦٩م) والكتبخانة (دار الكتب) (منذ ١٨٧٠ م)، والتياترو (منذ ١٨٧٦م).

وقد سبق ميلاد ملك افتتاح أول مدرسة أميرية لتعليم البنات فى مصر أنشأتها فى القاهرة زوجة الخديوى إسماعيل وهى مدرسة السيوفية – السنية – (منذ ١٨٧٣م)، بالإضافة لمدارس الإرساليات التبشيرية التى بدأت بمدرسة الراعى الصالح بشبرا (منذ ١٨٤٤م)، كما عرفت مصر الانتخابات النيابية ومجلس النظار (الوزراء) (منذ ١٨٧٨م)، وأول مشروع لأول دستور مصرى (منذ ١٨٧٩م). وقد وقعت مصر على معاهدة منع تجارة الرق فى ١٨٧٧م، وانتهى

عصر الحريم فى قصور الحكام المصريين بمغادرة الخديوى إسماعيل مصر فى يونيو ١٨٧٩ م.

ولاشك أن كل هذا كان له تأثير كبير على تفكير "ملك" التى شبت عن الطوق لتجد بمصر أكثر من مجتمع؛ مجتمع القبعة: الأوروبيين الوافدين من فرنسا وإيطاليا واليونان وأخيرا إنجلترا؛ الذى تحلقت حوله الأرستقراطية المصرية، حيث ليالى الأنس و"الباللو" (الحفلات) فى قصر عابدين و"سرايات" (قصور) الباشوات، والرجال الذين تخلوا عن الزى الشرقى التقليدى (العمامة والجبة والقفطان)، والنساء الأجنبيات السافرات المخالطات للرجال بلا ضوابط ولا حدود، ونساء الطبقة العليا من الأتراك وأثرياء المصريين اللاتى يقلدنهن تقليدا أعمى، مع انعدام الوعى والذوق. ومن ناحية أخرى كان هناك مجتمع الطربوش فى القاهرة القديمة، وفى الجمالية، حيث ولدت، والسيوفية والأزهر وما حوله، حيث التمسك بالقيم والعادات الإسلامية، وحيث الحريم الذى تحتجز فيه نساء الحبرة واليشمك اللاتى لا يرين العالم الامن خلف المشربيات.

وقد وصف الكاتب محمد المويلحى ذلك الصراع الحضارى فى مصر بداية القرن العشرين بإسهاب فى كتابه "حديث عيسى بن هشام" الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٠٥م [٤١]. والكتاب فى

(٤١) "حديث عيسى بن هشام. محمد المويلحى. كتاب الشعب إصدار دار الشعب .انظر على سبيل المثال فصل "العرس"، الحوار بين الكهل والشاب صفحة ١٣٠ .

مجمله مقارنة دقيقة فى طابع قريب من الرواية، بين مظاهر الحياة فى مصر بداية القرن العشرين وعصر محمد على. يصفه كاتبه بأنه "حقيقة متبرجة فى ثوب خيال "لا" خيال مسبوك فى قالب حقيقة"، ويقول إنه كتبه "لنشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه الناس فى مختلف طبقاتهم من النقائص التى يتعين اجتنابها والفضائل التى يجب التزامها".

وفى فصل "العرس" يدور حوار بين شخصين أحدهما شاب ينتمى للعصر الحاضر (بداية القرن العشرين)، وآخر كهل يتشبث بالعصر الماضى حول التغيرات الجذرية التى حدثت فى أسلوب حفلات الزفاف، فيقول الشاب للكهل:

"أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدين بين الأحواض والمستنقعات فى قرية أبيه، وبين الأوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه، فيبدل المقاصير بالخيام، والكهرباء بالمشاعل، والبوفيه بالسماط، والصحاف بالقصاع، والأباريق بالجرار، والديند (الديك الرومى) بالدفين، والمايونيز بالعصيد، والهليون بالفول، وعش الغراب بالحلبة، والموستاردا بالمش، والمربى بالرطب، والمانجو بالدوم، والكريز بالجميز، والشمبانيا بالمزهر، والكاب بالحليب، والكونياك بعرق البلح، والموسيقا بالمزمار، والأوتار بالأذكار، والبيانو بالأرغول، والأوركستر بالرباب، والباللو بالسحجة، وميس أوستن ببنت أبو شنب، وموكب الزفاف بلعب الهوارة، ثم يدعو الشيخ العربان بدلا من القناصل العظام، ونظار

الزراعة بدل نظار الحكومة، وكتبة المراكز والصيارف، بدل أمراء البورصة والمصارف، ويضع على رؤوسهم سعف النخيل والعراجين بدل أكاليل الأزهار والرياحين ...."

أما عن الحياة اليومية فى العصر الذى استقبل ملك حفنى ناصف، وكيف كان يراها ذوو القبعة، فلا أجد أفضل من كتاب المستشرق الإنجليزى المعروف إدوارد وليم لين الذى زار مصر أول مرة وهو شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ثم عاد فزارها أكثر من مرة، وحاول أن يكتب كتابا شبيها بكتاب "وصف مصر" الذى كتبه ورسمه المستشرقون الفرنسيون أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١م ، كما ترجم كتاب ألف ليلة وليلة واهتم بدراسة اللغة العربية وآدابها وشؤون العرب قرابة نصف قرن وجمع قاموسا عربيا إنجليزيا ونشر كتابه "المصريون المحدثون؛ شمائلهم وعاداتهم" عام ١٨٣٥م. كان لين قد جاء إلى مصر فى سبتمبر ١٨٢٥م بغرض دراسة اللغة العربية، ثم عاد إليها مرة أخرى فى ديسمبر ١٨٣٣م، وأخذ يتجول فى أنحائها؛ فى الشمال والجنوب من الجيزة إلى الشلال الثانى فى النوبة، وكان يرتدى الملابس التركية فيظنه البعض تركيا ويقبلون مخالطته، وكان يصادق الكثير من المصريين ومن بينهم الشيخ رفاعة الطهطاوى، كاتب "تخليص الابريز فى تلخيص باريز".

يصف لين قاهرة ذلك الوقت بأنها كانت مدينة ضيقة جدا تغص بالسكان، تبلغ مساحتها ثلاثة أميال مربعة تقريبا، وعدد سكانها زهاء مائتين وأربعين ألفا، زادوا بعد ذلك كثيرا. وأنها كانت محاطة بسور

تقفل أبوابه ليلا وشوارعها ليست مبلطة وأغلبها أزقة. أما عن عدد سكان مصر ذلك العام فيقول لين إنهم كانوا، وفقا لآخر إحصاء للسكان، قرابة المليونين ونصف المليون نسمة، بينهم ١٥٠,٠٠٠ قبطي، و ١٠,٠٠٠ تركى و ٥,٠٠٠ سورى و ٥,٠٠٠ يونانى و ٢,٠٠٠ أرمنى و ٥,٠٠٠ يهودى والباقى، وعددهم ١,٧٥,٠٠٠ مسلمون وجميع هؤلاء لا يتكلمون إلا اللغة العربية التى تسود أيضا بين الأجانب المقيمين بالبلد. ويذكر لين أن مصر كان بها أيضا نحو سبعين ألفا من العرب والمغاربة والنوبيين والعبيد والزنوج والمماليك والجوارى البيض والفرنج (!). أما عدد سكان القاهرة فكان ٢٤٠,٠٠٠ نسمة، بينهم نحو ١٩٠,٠٠٠ مسلمون و ١٠,٠٠٠ أقباط و ٣,٠٠٠ أو ٤,٠٠٠ يهود وقد أهلك وباء الطاعون عام ١٨٣٥م حوالى ثلث سكان مصر. ويبدى إدوارد لين أسفه على ما آل إليه حال المصريين، الذين كان تعدادهم فى عصر الفراعنة يزيد على ستة ملايين نسمة:

"ومن تأمل فى سياسة محمد على، لا يسعه إلا أن يأسف للفرق بين حالة مصر تحت حكمه وبين ما كان يجب أن تكون، إذ لم يزد عدد سكانها بكثير عن ربع العدد الذى كان فى إمكانها إعالته. ولقد كان فى استطاعة العاهل العظيم أن ينفع شعبه أجزل النفع، لو أنه بدلا من إفقار الفلاحين، بنزع الأراضى الزراعية واحتكار المحصولات القيمة، واستخدام كفاءة السكان فى إرضاء طموحه وتحقيق فتوحه، أو فى منافسة الصناعة الأوروبية على غير طائل، كان قد وجه عنايته إلى مساعدة الطبيعة فى أن يجعل مصر بلدا

زراعيا على الأخص. فقد كان محصول قطنها وحده يكفى، بل ويفيض، للحصول على كل منتجات المصانع الأجنبية وكل المحصولات الطبيعية التى تتطلبها حاجة السكان من البلاد الأجنبية.

وهو هنا يردد تلك النظرية التى حاول المعتمد البريطانى، اللورد كرومر، تطبيقها بعد الاحتلال البريطانى لمصر، أى بعد نشر الكتاب بحوالى نصف قرن، فالهدف الأساسى لم يكن مساعدة المصريين وإنما كان الاستيلاء على قطنهم الممتاز لكى تستغله مصانع إنجلترا.

ويصف إدوارد لين النساء المصريات بأنهن من حيث الجسم مثال الجمال ومحياهن يسر العين ويجذب النفس، إلا أنهن يتحولن إلى القبح والدمامة بعد بلوغهن الأربعين. ولا يخفى لين إعجابه الشديد، مثل أغلب الأوروبيين، بجمال عيون المصريات التى تجعله يرى أن الله لم يخلق للمصريات مثيلات فى العالم، فعيونهن "دعجاء، نجلاء، لوزية الشكل، وطفاء الأهداب، تفيض وداعة تملك النفوس، وسحرا يسبى القلوب. ولم أر فيما رأيت عيونا أجمل من العين المصرية، ويزيدها جاذبية احتجاب الملامح بالنقاب. ويصف لين فى كتابه بإسهاب كحل الجفون وطريقة استخدامه".(٤٢) كما يصف الخضاب والوشم.

(٤٢) "المصريون المحدثون" تأليف إدوارد وليام لين، ترجمة عدلى طاهر نور، الطبعة الثانية ١٩٧٥م، دار النشر للجامعات المصرية .الفصل الأول.

أما عن ملابس نساء القرن التاسع عشر فى مصر فكانت نوعا من التمييز الطبقى، فالموسرة لها أزياؤها والفقيرة لها أزياؤها. فأما ملابس النساء من الطبقتين المتوسطة والعليا فهى تتكون من القميص (حتى الركبتين) والشنتيان (السروال الواسع) وفوقهما سترة طويلة تسمى "يلك" وهى كلمة تركية معناها: الصديرى وهى تشبه قفطان الرجال ولكنها تتميز عنه بأزرار تشدها إلى الجسم من الصدر إلى أسفل الوسط (مكسمة)، وهى طويلة تصل إلى الأرض أو تزيد، أما إذا كانت قصيرة فتسمى "العنترى" وهذه تصل إلى ما تحت الوسط بقليل وكانت النساء ترتدين فوق هذا كله شالا أو منديلا مطرزا يربطنه كالحزام، وأخيرا يضعن فوق هذا كله جبة من الجوخ أو من الحرير مطرزة بالذهب أو سترة تسمى "سلطة" بتسكين اللام. وكانت جداتنا فى القرن التاسع عشر تغطين رؤوسهن بطاقية وطربوش ثم منديل مربع يسمى"فارودية" من الحرير أو الكريب الموشى، وبعضهن كن ترتدين العمامة أو التيجان (ويسمى قرصا) أو الطرحة الطويلة التى تتدلى على الظهر حتى تصل إلى الأرض.

كل هذه الملابس ترتدى فى البيت، أما عندما تخرج امرأة القرن التاسع عشر إلى خارج بيتها فكانت ترتدى "التزييرة" وهى تتكون من: توب حريرى يكاد عرض كميه يعادل طوله، وبرقع طويل من الموصلى الأبيض، يحجب الوجه كله ماعدا العينين وينسدل حتى الأرض، ثم الحبرة السوداء للمتزوجات أو البيضاء للعذارى. ومن الطرائف التى لاحظها إدوارد لين أن العمامة كان يخصص لها كرسى خاص لتوضع عليه وكان كبير الحجم بسيط الصنع يصنع من

الغاب ولا يستعمل للجلوس أبدا. وكثيرا ما كان جهاز العروس يضم كرسيين أحدهما لعمامة الزوج والثانى لعمامة الزوجة. ويقول إن النقاب كان للطبقة المتوسطة والعليا أما نساء الطبقة السفلى، حتى فى العاصمة، فلم يكن يرتدين النقاب، وإنما كن يكتفين بالطرحة وبقية الثياب المحتشمة.

ويصف لين تلك الملابس بأنها كانت تتعب النساء وتربكهن عند المشى، خاصة إذا اضطررن للسير بها مسافات طويلة لمن كانت لا تملك أجرة الركوب.

وأغرب ما كتبه لين فى وصف مصريات **النصف الأول من القرن التاسع عشر** هو أنهن فى ذلك الزمان كن يرين أن واجب تغطية الرأس وما خلفه أولى من تغطية الوجه، وحجب الوجه أولى من حجب أكثر أجزاء الجسد..! وزعم أنه كثيرا ما رأى نساء لا تكاد تسترهن أسمالهن البالية، بعضهن فى زهرة العمر أو فى متوسطه، لا يحملن على أجسادهن غير خرقة ضيقة تشد حتى الوركين(!)، وحتى هؤلاء كن يفضلن تغطية الرأس، وأحيانا يدفعهن الدلال إلى حجب الوجه بفضلة من النسيج بينما يترك الجسم كله مكشوفا [٤٣] (!) ويضيف فى فصل آخر "إن المرأة التى لا يمكن حملها على كشف وجهها أمام رجل، قد لا تخجل من الكشف على صدرها أو ساقها. وتسرع المرأة الجليلة، عندما يصادفها رجل،

(٤٣) المرجع السابق صفحة ٥٠ .

مكشوفة الوجه أو الرأس، بلبس الطرحة أو إحكام وضعها. وكثيرا ما تصيح "يا دهوتى" أو "يا ندامتى" ولكن كثيرا ما يدفع الدلال المرأة المصرية إلى كشف وجهها أمام الرجل متظاهرة أنها فعلت ذلك عفوا، أو ظنت أنها لا تراه[٤٤] ويعلق على ارتداء المرأة المصرية للنقاب قائلا:

"إلا أن هناك اعتبارا يقتضينا أن نلاحظ عدم ملاءمة هذه الثياب لغرضها الأصلى، وهو أن العيون، التى تكاد تكون دائما جميلة، يزيدها جمالا حجب تقاطيع الوجه، التى يندر أن يبلغ جمالها جمال العين، ثم إنها تجعل الأجنبى يتصورَ الوجه الجذاب معيبا دميما لاختفائه وراء القناع".

وقد أشار لين إلى أن استعمال النقاب يرجع إلى اليهود فى الزمن القديم، ودلل على ذلك بالآية ٢٤/٦٥ من سفر "الخروج" من التوراة: "وقالت للعبد من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائنا. فقال العبد هو سيدى. فأخذت البرقع وتغطت" والآية ١١/١٠ من سفر كورنثيوس: "لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة"، إلا أن المصريات فى ذلك العهد القديم، وفقا لنقوش الفراعنة ورسومهم كن سافرات.

ولا يفوت المستشرق الإنجليزى الشاب أن يصف تسريحات شعور المصريات وضفائرهن التى يصل عددها من إحدى عشرة

(٤٤) المرجع السابق صفحة ١٦٠.

ضفيرة إلى خمس وعشرين، على أن يكون العدد فرديا (!)، ويضاف إلى كل منها ثلاثة خيوط من الحرير الأسود يعلق بها قطع ذهبية صغيرة تسمى "صفا". وكانت جداتنا تحرصن على قص الشعر فوق الجبهة وتتدلى منه على الصدغين خصلتان غزيرتان وضفيرتان (٤٥)

وفى حديثه عن الزواج أشار إدوارد لين إلى أن كثيرا من المسلمين الأغنياء كانوا يتزوجون زوجتين وثلاثا أو أربعا، ويتخذ الرجل إلى جانب ذلك العديد من جواريه سرارى، ويلفت انتباه قرائه إلى أن الشريعة الإسلامية إذا كانت قد حددت عدد الزوجات إلا أنها لم تحدد عدد السرارى. ولكنه يعود فيؤكد أن المصريين قلما أباحوا لأنفسهم ما أباح الدين من تعدد الزوجات، ويندر أن يحتفظ الرجل بزوجتين أو أكثر فى المنزل نفسه، وأن عددا كبيرا منهم لا يزالون يعاشرون زوجة واحدة، ولا يتسرون ليتمتعوا بالهدوء المنزلى، إذا لم يكن لسبب آخر (٤٦). وذكر لين أن "الخلع" (٤٧) كان ساريا فى ذلك الزمان، وإذا طلق الزوج زوجته بناء على طلبها ومقابل تعويض، فان هذا يعتبر طلاقا بائنا، لا يمكن للزوج رد مطلقته أثناء عدتها إلا إذا وافقت على ذلك وبعقد زواج جديد. (٤٨).

---

(٤٥) المرجع السابق صفحة ٤٨ .

(٤٦) المرجع السابق صفحة ١٢٢.

(٤٧) أى أن تفــتدى المرأة نفسها وتفسخ الزواج بإعادة مقدم الصداق إلى الزوج والتنازل عن حقوقها المادية الشرعية .

(٤٨) المرجع السابق صفحة ٩٣ .

أفرد المستشرق الإنجليزى أربعة فصول من الكتاب فى وصف الحياة المنزلية والعادات والتقاليد وحكى حكاية طريفة حول إلحاح أصدقائه عليه باقتناء جارية "تنفى عنه عار العزوبية"، لأن الرجل الأعزب كان غير مقبول فى مجتمع ذلك الزمان، فلما أصر لين على الرفض اقترح عليه شيخ البلد أن يتزوج أرملة شابة جميلة من جيرانه على استعداد لأن يطلقها حينما يترك البلد، أو حتى قبل ذلك إذا لم تعجبه. وقد كانت الأرملة جميلة بالفعل فقد حرصت على أن تريه وجهها الجميل مرارا أثناء مروره بمنزلها، ومع ذلك رفض لين فكرة الزواج المؤقت رفضا تاما.

وقد كتب لين تفاصيل كثيرة عن عادات الزواج فى مصر القرن التاسع عشر وأغلبها لم يتغير حتى وقتنا هذا مثل ليلة الحنة، وبعضها تلاشى مثل الزواج بلا وثيقة مكتوبة حيث لاحظ أن الزواج فى مصر القرن الثامن عشر، كان يعقد دائما بلا كتابة، وأحيانا بلا شهادة. كذلك وصف المستشرق الإنجليزى بإسهاب زفة الحمّام وكانت تقودها الخاطبة والداية والبلانة من بيت العروس، مرورا ببيوت صديقاتها، حتى الحمّام، راكبات الحمير والبغال وهن ينشدن الأغانى وقد ترافقهن فرقة من العوالم. وذكر بعض الألعاب الغريبة التى وصفها له بعض شهود العيان من أجداد أبى لمعة المصرى، لأنها لا تخرج عن حدود القشر المفضوح. فيقول "الخواجة" لين إن السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى بداية القرن التاسع عشر، عندما زوج ابنته سار أمام الزفة شاب قد شق بطنه وأخرج أمعاءه على صينية من الفضة، ثم أعادها إلى موضعها بعد الزفة، ولزم السرير

عدة أيام (!) وضرب آخر ذراعه بسيف أمام المتفرجين، ثم سد جرحه بعدة مناديل لكى يحبس الدم (!).

وكان مجتمع القرن التاسع عشر فى مصر يفصل بشدة بين الرجال والنساء، فالنساء جميعا يعشن فى جزء مخصص لهن من البيت، الحريم، غير مخصص للرجال دخوله. والزوجة المصرية كانت تعامل فى بيتها كما تعامل الجارية، وتقوم بمعظم ما تقوم به من أعباء وواجبات خدمة زوجها. وكانت تقبل يد زوجها مثلما يقبل العبد يد صاحبه والخادم يد سيده، وكان الذوق السائد يفرض عليها أن تسمن نفسها كى تروق لرجلها، وبعض المسمنات كانت تتكون من الخنافس المسحوقة(!). وكانت بيوت الطبقة الموسرة تغص بالسرارى اليونانيات البيض اللاتى أسرهن جيش إبراهيم باشا بعد انتصاره على اليونان. وكثيرا ما كانت حالة السرية أفضل من حالة الزوجة، مادام سيدها يغرم بها. فالزوجة مهددة بسيف الطلاق الذى قد يقذفها به الزوج فى أى لحظة، فتطرد من بيته، وتتحول إلى الفقر، بينما يندر أن يطرد رجل جاريته دون أن يعتقها ويمنحها مهرا ويدبر لها زوجا أو يقدمها هدية لصديق.

وسواء ما كان وصف إدوارد لين لمجتمع القرن التاسع عشر فى مصر دقيقا أو مبالغا فيه، فلا بد وأن يكون قريبا من الحقيقة. وهناك ملاحظة لابد وأن تطرأ على بال كل من يقرأ الكتاب بإمعان، وهى أن المجتمع المصرى المعاصر مازال يحتفظ فى أعماقه بالكثير مما وصفه المستشرق الإنجليزى إدوارد لين، وأن بعض شرائح مجتمع

القرن العشرين فى مصر، مازالت قريبة الشبه إلى حد بعيد بمجتمع ما قبل قرنين من الزمان، فيما عدا الملابس التى تخففت المصريات منها، وأصبحن، باستثناء الفلاحات، يرتدين ملابس المرأة الغربية. وقد احتاج ذلك التغير فى الملبس إلى حوالى قرن من الزمان.

إن تغير مظهر المصريات، منذ بداية القرن العشرين، لم يصاحبه تغير جذرى فى الجوهر، لدى أغلبية كبيرة منهن، الأمر الذى يفسر ارتداد بعضهن إلى المظهر العثمانى، مؤخرا، لكى يتواءم المظهر مع الجوهر. وبهجوم العولمة، أو الموجة الأخيرة من الحضارة الغربية المسلحة بالتكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديثة (الدش والإنترنت والليزر..الخ)، عادت صورة المجتمع الذى استقبل ملك حفنى ناصف منذ مائة عام؛ مجتمع المشربية حيث نساء الحجاب والنقاب، ورجال الذقن والجلباب، المجتمع الذى كانت تخاطبه ملك، والذى شعرت أن من واجبها أن تحميه لكى تحمى به الهوية الدينية، وسعت بكل ما تملك لتمنعه من الذوبان فى الآخر، والتلاشى.

لبيبة هاشم

المرأة المصرية والصحوة ال[redacted]

أما ألكسندره أفرينو فقد كتبت فى مجلة "النهضة النسائية"، بعد سنوات من توقف مجلتها "أنيس الجليس": "كنت لا أزال أعتبر أن كل نهضة قومية لا تكون المرأة أساسها ودعامتها هى نهضة مقضى عليها بالفشل".

عندما ولدت ملك حفنى ناصف كان بمصر أديبتان لامعتان ملء السمع والبصر هما عائشة التيمورية (١٨٤٠-١٩٠٢م)، وزينب فواز (١٨٦٠-١٩١٤م). كانت الأولى تقرض الشعر بالفارسية والتركية والعربية وكتبت قصة "نتائج الأحوال" بلغة المقامات، و"مرآة التأمل فى الأمور"، الذى سبقت فيه قاسم أمين إلى النقد الاجتماعى والدعوة للإصلاح "٤٩". أما الثانية، فكتبت العديد من الأعمال من أهمها: "الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور"(١٨٩٣ م)، ونشرت روايتها الأولى "حسن العواقب" أو "غادة الزاهرة" فى أغسطس ١٨٩٢م، وهذا يعنى أنها سبقت "زينب" الدكتور هيكل فى ريادة الرواية، كما سبقت قاسم أمين فى المطالبة بتعليم البنات.

كانت عائشة التيمورية وزينب فواز من أصول غير مصرية، فعائشة ولدت لأم جركسية الأصول وأب كردى، وزينب فواز كانت لبنانية الأصل والمولد، وكانت شيعية، إلا أنهما كانتا تحظيان باحترام وإعجاب معاصريهما، فكانت مقالات زينب فواز تنشر فى الصحف وتقدم بتبجيل وتقدير شديد، لا نجده لغيرها حتى من أصحاب الأسماء اللامعة .. فهى عندهم:

(٤٩) الحركة النسائية فى مصر ما بين الثورتين ١٩١٩ و١٩٥٢. د آمال كامل بيومى السبكى صفحة: ١٥.

"حضرة الكاتبة الأديبة الكاملة، نادرة زمانها وفريدة عصرها وأوانها" و"نادرة العصر وأميرة النظم والنثر" و"حضرة الكاتبة النابغة بين طبقتها من النساء" الخ [٥٠].

إن الإنصاف يقتضينا أن نعترف بأن ظاهرة هجرة بعض المثقفين الشوام إلى القاهرة فى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، خلقت صحوة فنية وصحفية نمت وتطورت فيما بعد إلى ما أصبح يسمى بالعصر الذهبى للثقافة المصرية. فالشوام الذين استقروا بمصر هربا من استبداد واضطهاد العثمانيين وكسرا لحصار التخلف الذى ضربوه على العقل العربى، اعتبروا مصر وطنهم الثانى، ووجدوا فى أحضانها وفى سماحة أبنائها الدفء الذى افتقدوه فى بلادهم. وكانت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر أرفق بهم من العثمانيين أصحاب الطرابيش، والمصريون الذين بدءوا مسيرة الديموقراطية فى عهد الخديوى إسماعيل، اتسعت سماحتهم لقبول جنسيات عربية أخرى على الرغم من ارتفاع نغمة مصر للمصريين وبداية عصر الوطنية المصرية. ولقد ذكر الكثير حول ريادة الشوام للمسرح والصحافة المصرية، لكن القليلين التفتوا إلى ريادة المرأة الشامية للأدب والصحافة النسائية فى مصر، أضف إلى ذلك أن صدور كتابى قاسم أمين والضجة الكبرى التى أثيرت حولهما، تسبب فى خلق طفرة فى وعى المرأة العربية بالظلم الواقع عليها، وبحقوقها التى كفلها لها الإسلام. وكان قاسم قد حث نساء عصره على أن

(٥٠) "الرائدة المجهولة. زينب فواز" حلمى النمنم. دار النهر للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى.

ينشئن الجمعيات ويصدرن الصحف للدفاع عن حقوق المرأة. قبل ذلك لم تصدر بمصر سوى أربع مجلات نسائية؛ أولاهما دورية "الفتاة" التى أصدرتها هند نوفل السورية الأصل، فى الإسكندرية فى نوفمبر ١٨٩٢م، ولكنها لم تستمر سوى عامين ثم توقفت عن الصدور بعد زواج صاحبتها، ولحقتها مجلة "الفردوس" التى أصدرتها لويزة حابلين (سورية) فى يونيو ١٨٩٦م، ثم "مرآة الحسناء" وكان رئيس تحريرها شاميا يدعى سليم سركيس وإن كان قد تخفى تحت اسم امرأة (مريم مظهر)، ومجلة "أنيس الجليس" عام ١٨٩٨م، التى استمرت صاحبتها الكسندره أفرينو (لبنانية من أصل يونانى) تصدرها حتى عام ١٩٠٨م. وبعد كتاب قاسم أمين "تحرير المرأة"، صدرت مجلتان نسائيتان هما: مجلة "العائلة" ١٨٩٩م التى أصدرتها لبنانية يهودية هى استر أزهرى مويال، ومجلة "الهوانم" فى ١٩٠٠م التى أصدرها مصرى مسلم هو أحمد حلمى.

وفى عام ١٩٠١ م، بعد نشر كتاب قاسم أمين "المرأة الجديدة" تحمست عدة نساء لإصدار وإدارة الصحف، فأصدرت سعدية سعد الدين بالإسكندرية مجلة "شجرة الدر"، التى رأست تحريرها، وأنيسة عطا الله الشامية (مسلمة)، مجلة "المرأة"، نصف الشهرية، التى رأست تحريرها. وبدأ تحمس الرجال أيضا لإصدار المجلات النسائية فصدرت "المرأة فى الإسلام" وقد أصدرها مصرى مسلم، هو إبراهيم رمزى. وفى عام ١٩٠٢م صدرت مجلتان جديدتان هما "الزهرة" لمريم سعد بالإسكندرية، ومجلة "السعادة" ١٩٠٢م لروجينا عواد

بالقاهرة، ثم أصدرت روزا أنطون (لبنانية من أصل يونانى) مجلة "السيدات والبنات" عام ١٩٠٣ م [٥١] بالإسكندرية، وأصدر سليم خليل فرح مجلة "الموضة" بالإسكندرية عام ١٩٠٣م. وهذا العدد الكبير من المجلات: ثلاثة عشر إصدارا في عشر سنوات، يعنى أن المرأة فى مصر وجدت فى الصحافة وسيلة للتعبير عن نفسها، وإعلان آرائها ومواقفها من كل ما يدور حولها من قضايا ومظاهر اجتماعية.

وعلى الرغم من حالة الغليان التى كان يعانيها الشعب المصرى فى تلك الفترة تحديدا، نتيجة لتلكؤ المحتل البريطانى فى الجلاء وعدم وضوح أهدافه المضمرة، فقد نأت بعض رئيسات التحرير عن الخوض فى المسائل السياسية، ومنهن هند نوفل (السورية)، رائدة الصحافة النسائية فى مصر، التى كتبت فى مقدمة العدد الأول من مجلتها "الفتاة" تقول إنها "لاغرض لها فى الأمور السياسية ولا منزع لها إلى المشاحنات الدينية ولا غاية من البحث فى مواضيع لا فائدة منها للنساء، ولا مطمع لها فى المناظرات إلا ما كان فى أدب الهيفاء ومحاسن الحسناء". وحددت هدف المجلة بأنها صدرت للدفاع عن حقوق النساء والتعبير عن وجهة نظرهن، وشجعت النساء على أن يساهمن "بدرر أقلامهن" وطالبتهن بألا "يتوهمن أن مكاتبة الجرائد يحط من مقام العفاف أو يمس الطهر والآداب".

أما ألكسندره أفرينو فقد كتبت فى مجلة "النهضة النسائية"، بعد سنوات من توقف مجلتها "أنيس الجليس": "كنت لا أزال أعتبر أن كل

---

(٥٢) تاريخ الصحافة العربية. فيليب دى طرزى.

نهضة قومية لا تكون المرأة أساسها ودعامتها هى نهضة مقضى عليها بالفشل".

وقد استمرت مجلتها فى الصدور بانتظام لمدة عشر سنوات، ثم توقفت بعد الكساد المالى الذى عانته مصر عام ١٩٠٧م. وقد كانت ألكسندره شخصية عامة تشارك فى الأحداث الجارية، وتستحق منا وقفة تأمل طويلة، فهى تسافر عام ١٩٠٠م إلى باريس لتمثل نساء مصر فى مؤتمر السلام الذى عقده الاتحاد النسائى العالمى أثناء معرض باريس، وهناك تلتقى بأميرة إيطالية وتحظى بإعجابها فتوصى بأن تحمل لقبها من بعدها. ونجدها تقيم احتفالا بإصدار العدد الأول من مجلتها تدعو إليه زوجة الخديوى عباس الثانى ووالدته، وتقدم إليهما نسخا من العدد الذى صدرته بإهداء للخديوى. ونتيجة لجهودها وديناميكيتها نالت ألكسندره التكريم والتقدير من كل من السلطان العثمانى وشاه إيران وبابا روما ومن الحكومة الفرنسية. إلا أن ولعها الشديد بالمشاركة السياسية سرعان ما جر عليها المتاعب، فإذا بالسلطات المصرية تلقى القبض عليها فى يوليو ١٩٢٤م بتهمة الاشتراك فى محاولة اغتيال رئيس الوزراء وزعيم الأمة فى ذلك الوقت سعد زغلول، الذى لم يكن يشعر بالارتياح لها، وانتهى الأمر بنفيها خارج مصر فى نفس العام، فعاشت فى لندن ثم توفيت بعد عامين.

بعد تلك الموجة الأولى من المجلات النسائية، وحتى الحرب العالمية الأولى صدرت عشر مجلات أخرى كانت أولها: "مجلة فتاة الشرق" التى أصدرتها لبيبة هاشم (لبنانية) عام ١٩٠٦م ، ثم مجلة

"الريحانة" التى أصدرتها جميلة حافظ (مصرية مسلمة) عام ١٩٠٧م، ومجلة "ترقية المرأة"، أصدرتها فاطمة راشد (مصرية مسلمة) ١٩٠٨م، كما أصدرت ملكة سعد (مصرية مسيحية) مجلة "الجنس اللطيف" فى نفس العام، وفى عام ١٩٠٩م صدرت ثلاث مجلات: هى "مرشد الأطفال" أول مجلة للأطفال التى أصدرتها أنجيليكا أبو شاعر (مصرية مسيحية)، و"الأعمال اليدوية للسيدات" التى أصدرتها مدموازيل فاسيلا (يونانية)، "والبرنسيسة" التى أصدرتها فتنة هانم (تركية مسلمة). ثم أصدر سليم السلمى مجلة "العفاف" عام ١٩١٠م، وأصدرت فاطمة توفيق مجلة "الجميلة" عام ١٩١٢م، وأخيرا أصدرت سارة الميهية مجلة "فتاة النيل" عام ١٩١٣م [٥٢]. و بداية من عام ١٩١٥م بدأت مى زيادة تكتب خواطرها فى جريدة المحروسة التى كان يملكها ويديرها والدها تحت عنوان "يوميات فتاة" .

أغلب تلك المجلات النسائية أصدرتها سيدات شاميات، أو رجال مصريون وشوام، وقلة من المصريات من جذور تركية. ولكن الملاحظ أن تلك الجنسيات المختلفة (شامية، يونانية، تركية) والديانات المتنوعة:(المسيحية، الإسلام واليهودية)، لم تمنع أصحابها من الشعور بالانتماء للمكان الذى اختاروه بإرادتهم أو تبعا للظروف، والتأكيد على الوحدة العربية وأن يشتركوا جميعا فى التوجه للمرأة المصرية ومحاولة إصلاح أحوالها وتوعيتها والنهوض بها إيمانا

(٥٢) "النهضة النسائية فى مصر الثقافة والمجتمع والصحافة" تأليف بث بارون، ترجمة لميس النقاش. المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩م.

منهم بأن النهضة الشاملة لن تكون فى الاتجاه الصحيح ما لم تشمل المرأة والرجل معا.

والملاحظ أيضا أن أغلب المجلات الصادرة عن نساء مصريات أو رجال مسلمين فى تلك الفترة (من ١٨٩٢-١٩١٣م) كانت ذات توجه إسلامى، وأولها مجلة "شجرة الدر" التى أصدرتها باللغتين العربية والتركية مصرية من أصل تركى هى سعدية سعد الدين [٥٣] التى كانت تنتمى وتدين بالولاء لحكام مصر السابقين، العثمانيين من أتراك وجراكسة، واللاتى كانت نساؤهم وبناتهم من أوائل المصريات المتعلمات. وكان غريبا أن تصدر بمصر مجلة باللغة التركية فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر بينما الدولة العثمانية تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكن لم يكن غريبا أن تدافع بنات تلك الطائفة عن مميزات طبقتها، وأن تتذرع بالخلافة الإسلامية كوسيلة لاستعادة الأمجاد العثمانية، خاصة وإن مجلتها كانت توزع فى استنبول أيضا.

وقد ساهمت واقعة دنشواى وماتلاها من اشتعال الحركة القومية المصرية، فى تقوية الانتماء لمصر، وانصراف المثقفين عن الإيمان بتبعية مصر لدولة العثمانيين وتأسس "حزب الأمة" العلمانى الذى يركز على المطالبة بالديموقراطية واستقلال مصر. الملفت للانتباه أن المجلات النسائية، فى موجتها الثانية، لم تتأثر بهذا الاتجاه وظلت محرراتها على ولائهن لفكر واتجاه مصطفى كامل الموالى

(٥٣) المرجع السابق صفحة ٢٨.

للعثمانيين، وركزن على المطالبة بالحقوق التى شرعها الإسلام للمرأة كطريق لتحسين أوضاعها. وطالبن بتعليم المرأة دينها وهاجمن السفور ورفضن الاختلاط بين الجنسين. فى هذا الاتجاه سارت مجلة "الريحانة" التى كانت تصدرها جميلة حافظ فى حلوان عام ١٩٠٧م. ونجد فاطمة راشد رئيسة جمعية ومجلة "ترقية المرأة"، تكتب مرحبة بحرارة بإعادة العمل بالدستور فى تركيا عام ١٩٠٨م، وتترجم مختارات من الكتابات التركية لتنشرها بالمجلة، وتطالب بتدريس اللغة التركية فى المدارس المصرية. وقد كان محمد فريد وجدى زوج فاطمة راشد، من بين الرجال المصريين الذين رفضوا أفكار قاسم أمين وقام بتأليف كتاب "المرأة المسلمة" للرد عليه. واتبعت نفس الخط مجلة "العفاف": وكانت ملك حفنى ناصف من بين محرراتها، وكن جميعا يؤمن بالانتماء المصرى للأمة العثمانية. وفى أثناء الحرب العثمانية الإيطالية فى طرابلس (ليبيا) التهبت المشاعر المؤيدة للعثمانيين ضد الغرب المعتدى وشاركت محررات تلك المجلة، ومعهن "ملك" بالطبع، بالحشد والتعبئة السياسية المناصرة للإمبراطورية العثمانية. وقد استمر هذا الولاء للعثمانية حتى الحرب العالمية الأولى، وبدا واضحا فى توجهات المجلة النسائية التى صدرت عام ١٩١٣م "فتاة النيل". وقد أبدت هذه المجلات النسائية قلقا شديدا إزاء اتجاه بعض المصريات إلى تقليد الأجانب فى السفور والاختلاط بالرجال، وعبرن بلا تحفظ عن إعجابهن بالتركيات، وأنهن القدوة التى يجب أن تقتدى بها كل النساء المسلمات.

أما الملاحظة الثالثة والأخيرة فهى أن أيا من تلك الإصدارات الموالية للعثمانية لم تصمد طويلا، فبعضها لم يستمر سوى عام واحد، ومن بينها "ترقية المرأة"، أو عامين مثل "فتاة النيل"، على عكس مجلات الصحفيات الشاميات (المسيحيات). فقد استمرت مجلة "أنيس الجليس" لألكسندره أفرينو من ١٨٩٨-١٩٠٨م، وواصلت لبيبة هاشم المارونية اللبنانية إصدار مجلتها "فتاة الشرق" من ١٩٠٦-١٩٣٩م، والمصرية الوحيدة التى صمدت كانت ملكة سعد (مسيحية)، صاحبة "الجنس اللطيف" فواصلت الصدور من ١٩٠٨-١٩٢٥م.

لقد كرست الصحفيات المصريات كتاباتهن لموضوع منته، فلم تتنبه أى منهن إلى تلاشى الدولة العثمانية وعدم جدوى الولاء للعثمانية (خلافة ودولة وفكرا وأسلوبا للحياة)، بعد أن تغير العالم ودخل حقبة سياسية وثقافية جديدة ، وبعد أن هبت أعاصير الغزو الفكرى والسياسى الغربى التى أدخلت المصريين فى صراعات جديدة، تحتاج لأسلحة مختلفة. وأخيرا زالت التبعية المصرية للدولة العثمانية بقرار من بريطانيا، وتم إعلان فرض الحماية البريطانية على مصرفى ١٨ ديسمبر ١٩١٤م.

أما الصحفيات الشاميات فكانت كتاباتهن جسرا بين الثقافتين العربية والغربية، وكن يشعرن بانتماء عميق للشرق، فطالبن قارئاتهن بعدم الاندفاع فى تقليد الغرب ومحاكاة ما يصلح لهن فقط وتجنب ما يخالف الأعراف والتقاليد الشرقية ودافعن عن اللغة العربية وطالبن بتدريسها فى المدارس، بدلا من الفرنسية وغيرها،

وهاجمت روزا انطون فى إحدى مقالاتها مناداة المرأة المتزوجة ب "مدام" بدلا من السيدة، على اعتبار أن الألقاب والأسماء رموز للهوية الثقافية.(٥٤) وهاجمت ألكسندره أفرينو اللورد كرومر ورفضت ما كتبه عن التأثير السلبى للإسلام على المرأة، ودافعت عن الإسلام كعقيدة، مع أنها لا تنتمى إليه.

(٥٤) المرجع السابق صفحة ١٠٣ .

حيـــاة مـــلك

كان قاسم أمين، الشاب المصرى الذى تختلط فى عروقه دماء كردية بدماء مصرية جنوبية، فى الثالثة والعشرين من عمره، عام ١٨٨٦م، بينما كانت ثلاث سيدات عربيات يعانين من مشاكل الحمل. ثلاث نساء عربيات فى ثلاث مدن مختلفة؛[٥٦] الناصرة بفلسطين، و[٥٧] كفر الحكما بالزقازيق و[٥٨] الجمالية بالقاهرة، أنجبن للمرأة العربية ثلاث فتيات كن من أوائل النساء اللائى حملن لواء الحرية، وطالبن بها وتعذبن من أجلها وحاولن أن يوقظن وعى بنات جيلهن وأن يحرضنهن كى يتشبثن بها. هل كانت آلام المخاض تفوق غيرها بينما روح متمردة تعبر ذلك الممر الوعر الذى يفصل بين الوجود والعدم؟! أم تراهن قد انزلقن فى سهولة ويسر مرحبات بالدور التاريخى الذى ستلعبه كل منهن، متشوقات لأدائه، متطلعات لاجتياز الصخور الوعرة والمنعطفات الخطيرة التى ستواجههن؟!

لم تعش أمهات مارى (مى) ونبوية وملك ليصفن لنا ما حدث بالضبط وما إذا كان هناك ثمة تشابه أو اختلاف بين ميلاد كل من تلك النسوة المتميزات. على أى حال لو عاشت الأمهات فما كان أحد

(٥٦) "باحثة البادية وعائشة التيمورية" بقلم الآنسة مى. كتاب الهلال العدد٥٨٢ .

(٥٧) "نـبوية موســى ودورها فى الحياة المصرية" د. محمد أبو الإسعاد الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤.

(٥٨) "آثار باحثة البادية" مجد الدين حفنى ناصف. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٢ .

سيهتم بسؤالهن، وليس علينا إلا أن نخمن ونفترض. كانت الطفلة الأولى: مارى إلياس سلامة الشهيرة بمى، قد سبقت ملك إلى الدنيا بعشرة شهور وأسبوعين، أما نبوية موسى فقد وصلت قبل أسبوع واحد. وأخيرا وقبل أن يرحل العام، لحقت بهما ملك: أول فتاة مصرية مسلمة تحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة أميرية، كما كانت أولى الناجحات فى أول امتحان يعقد بمصر لتخريج المعلمات[٥٩]، وأول امرأة مصرية تجمع بين الشعر والمقالة والخطابة، والنقد الاجتماعى، وتحظى بشهرة واسعة وتصدر كتابا فى الفكر "النسوى".

أنجب محمد حفنى ناصف من زوجته السيدة سنية عبد الكريم جلال (١٨٦٩-١٩٤٢م) ولدا بكرا سرعان ما غادر الحياة قبل أن تكتمل فرحة والديه به، ثم جاءت ملك لتحصد لهفة الوالدين وحرصهما على حياتها، كما لو كانت جوهرة ثمينة لا تعوض. وقد كافأهما القدر بعد "ملك" بستة أبناء وبنات هم: جلال الدين ثم مجد الدين ثم حنيفة ثم عصام الدين ثم صلاح الدين وأخيرا كوكب. كانت السيدة سنية، فى الرابعة من عمرها يوم افتتحت الأميرة جشم آفت الزوجة الثالثة للخديوى إسماعيل فى ١٨٧٣م أول مدرسة للبنات بحى السيوفية بالقاهرة، ورغم أن الحظ لم يواتها للالتحاق بتلك المدرسة، فقد حرصت أسرتها على أن تتيح لها قسطا من التعليم بالبيت مثل أغلب فتيات زمانها. وقد شغفت بالقراءة وكانت تهتم

(٥٩) المرجع السابق.

بأخبار الناس والمجتمع وتتابع مع زوجها الأحداث السياسية، ولعلها تمنت أن تصبح واحدة من أديبات عصرها الشهيرات مثل زينب فواز أو هند نوفل أو عائشة التيمورية إلا أن المرض ما لبث أن أقعدها مبكرا، مما اضطر ملك، ابنتها البكرية، لأن تتولى الكثير من شئون البيت وترعى أشقاءها وشقيقاتها وتصبح فى منزلة الأم منهم. ويشهد شقيقها الأصغر، مجد الدين، فى كتابه عنها بأنها كانت تكرس إجازاتها الصيفية عادة لتنظيم البيت وتجديد كل ما يلزمه من أدوات، وكانت تخيط بنفسها كل المفروشات وملابس والديها وإخوتها ومن يعملون بالمنزل.

وعلى عكس ما كان شائعا فى ذلك الزمن، لم يفرق حفنى ناصف بين بناته وبنيه واهتم بتعليم أبنائه جميعا وأولهم ملك التى ألحقها بإحدى المدارس الفرنسية ثم بمدرسة السنية بالسيوفية، فكأن البنت جاءت لتحقق ما فات الأم، ولم يتردد فى إلحاقها بالقسم الداخلى فكانت ملك أول فتاة مصرية تحصل على شهادة الابتدائية من مدرسة حكومية. ولابد أن نتذكر أن الفتيات فى ذلك الزمن كن يمنعن من الخروج من بيوتهن، وأن القليلات منهن حظين بشىء يسير من التعليم داخل البيوت، عن طريق الدروس الخصوصية، ولم تكن تلك الدروس تزيد عن تعلم اللغة الفرنسية وعزف البيانو وبعض دروس النحو وحفظ ما يتيسر من آيات القرآن الكريم. وكان من الممكن أن يكتفى الوالد بما وصلت إليه من علم بعد الشهادة الابتدائية ولكن هذا لم يحدث، بل استمر حفنى ناصف على تشجيع ابنته ودفعها للمزيد من الدراسة. وقد أظهرت ملك نبوغا لفت أنظار المدرسين إليها وبدأت فى ذلك الوقت المبكر أولى محاولاتها

فى نظم الشعر وفى مناسبة تأبين الشاعرة عائشة التيمورية نظمت التلميذة ملك قصيدة فى رثائها وألقتها على زميلاتها طالبات السنية فى مايو ١٩٠٢م (وهى لم تزل فى السادسة عشرة من عمرها). وعندما توفى الأستاذ الإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية عام ١٩٠٥م، نظمت ملك قصيدة فى رثائه وألقتها على طالبات المدرسة.

إن الفتاة النابغة لم تخذل والدها بل سعت بكل جهدها إلى أن تجعله يعتز بها ويفخر بقراره الثورى باستثنائها من طابور الجهل وإعتاقها من سجن العدم وإصدار صك تحرير روحها وإمتاعها بالنور وبالحياة، فى الوقت الذى كان فيه أكثر من ٨٠ فى المائة من الرجال المصريين أميين، ولا يزيد عدد المتعلمات فى مصر عن ٠,٠٢% (اثنين فى الألف وأغلبهن من الجوارى التركيات والجركسيات المعتقات. وعلى الرغم من واجبات "ملك" العديدة والمسئوليات التى ألقيت مبكرا على عاتقها فقد أتمت دراستها بنجاح وكانت الأولى على أول دفعة بنات تنال الشهادة الابتدائية بمصر.

إن أباً كحفنى ناصف لا بد وأن يحظى بمكانة سامية فى قلب ابنته، ومن الواضح من كتابتها أنه قد تولدت صداقة وطيدة بين الأب وابنته، وقد أصبحت أثيرة لديه يلقنها دروس الحياة ويفضى إليها بأفكاره وهواجسه ويودع عقلها الغض أمانيه وأحلامه، ويربى ملكاتها الأدبية فيشجعها على حفظ المراثى وأولها رثاء الأندلس، ويدفع إليها بديوان المتنبى لتقرأه وتعجب به وتحفظ الكثير من أبياته. فهل كان الأب يسعى لما كان قاسم أمين يتمنى أن يراه فى كل امرأة مصرية: عقل رجل وروح الأنثى، أم لعله رآها صورته الأنثوية إذ

كانت تشبهه كثيرا فى الصورة كما أخذت عنه الكثير من صفاته. ويبدو أن "ملك" كانت ترسل من القسم الداخلى رسائل إلى أبيها تتبادل معه الأخبار والأفكار، إذ إن أباها عندما أجرى عملية جراحية فى إحدى عينيه بدون مخدر، عام ١٩٠٢م، كتب لها قصيدة يصف فيها شعوره قال فيها:

ولقد ذكرتك والطبيب بجانبى ... والجسم فوق فراشه مطروح
وجفون عينى بالملاقط فتحت ... وبها المباضع تغتدى وتروح
والخيط يجذب فى الجفون بإبرة ... جذبا تكاد تغيض منه الروح
فطربت من وخز الحديد كأنه ... قول برفض العذل فيك صريح

وكانت هى عندما تلقت رسالته مصابة بالسعال فردت عليه، وهى فى السادسة عشرة من عمرها، بقصيدة تصف فيها تألمها الشديد لما قرأته فى رسالته قالت فيها:

من مبلغ عنى طبيبك أنه يفرى ... بمبضعه حشاى وأضلعى
يخبرك صدرى بالحقيقة إذ بدا ... من إثر طعنته السعال مشايعى
فلئن سكت فمن ضرورات الأسى ... ولئن سعلت فزفرة المتفجع
ولئن بكيت فإنما لتذكرى عينيك ... تفتح بالسنان المشرع
عجبا إجفونك دائما مغموضة ... وأبيت محصية النجوم الطلع
مازلت أرقبها تروح وتغتدى ... بالليل حتى قد جفانى مضجعى
فاسلم أبى وانظر إلى برأفة ... عينى فداؤك كى أقر ومسمعى

والقصيدتان يظهران مدى تعلق كل منهما بالآخر، ومدى تأثر الابنة بثقافة أبيها وتبحره فى علوم النحو والشعر، وكذلك برقة مشاعره ورهافتها.

ولسوف تتأثر ملك بهذه الصفة الحميدة في والدها: الجلد واحتمال الشدائد، فنراها تتحمل علاجا مؤلما آخر بعد ذلك بسنوات، وصفه لها بعض العربان للتخلص من مرض عرق النسا. يصف شقيقها مجد الدين تلك الواقعة قائلا:

"ومن أمثلة جلدها وصبرها على المكاره أنها أقامت فى (حلوان) تنشد الجفاف بسبب اشتداد ألم (عرق النسا) عليها، وقد استدعى لعلاجها الدكتور طلعت (باشا) وطائفة من أشهر أطباء ذلك العصر، ولما لم تتحسن حالها أشار بعض البدو من قبيلة زوجها بالعلاج على طريقتهم وأرسلوا بدويين (من لدنهم) مختصين يتحسسان العصب من أعلى الفخذ إلى وسط الساق، ويضعان ثلاث علامات على خط سيره. ثم جهزا ثلاثة مسامير ضخمة (من مسامير تعليق الأستار إذ ذاك) فى موقد حتى احمر حديدها ثم أخذا يكويان بها المواضع الموسومة بدون تخدير، ويضعان على كل منها واحدة من ورق الخروع. ولقد أذعنت غير محاولة التأجيل أو طلب التخدير. وكان وقع المسامير المحماة على اللحم فظيعا فى منظره وصوته. فلم تصرخ حتى لا تهزل فى نظر البدويين ومن يتسامع بالخبر من رجال القبيلة الذين وصفوها بعد ذلك بالشجاعة والإيمان"[٦٠].

---

(٦٠) آثار باحثة البادية. مجد الدين حفنى ناصف صفحة ٤٥ .

فى أثناء وجودها بالمدرسة السنية نشر قاسم أمين، المستشار والأديب المعروف، كتابيه تحرير المرأة ١٨٩٩م ثم المرأة الجديدة ١٩٠١م، ولا شك أن "ملك" اطلعت على هذين الكتابين، أو تابعت المعركة الثقافية الضارية التى شنها المحافظون على قاسم أمين. أو لعلها قرأت واحدا من الكتب المائة التى صدرت لترد على القاضى وتهاجمه وتتهمه بأفظع التهم، أقلها الدعوة إلى الفجور والانحلال وأشدها الارتداد عن الدين الإسلامى. ولكنها لا تذكر صراحة فى كتاباتها أو أشعارها ما يدل على تأثرها بالسلب أو الإيجاب بأفكار قاسم، بل نجدها فى إحدى مقالاتها بعد أن اشتهرت وأصبحت هى أيضا تهاجم من الكتاب الآخرين، تنفى عن نفسها تهمة "القاسمية".

وفى عام ١٩٠٣م تقيم مدرسة السنية احتفالا كبيرا بمناسبة تخرج تلميذاتها وعلى رأسهن ملك التى كان ترتيبها الأولى، فهل كانت مصادفة أن تكون الثانية مسيحية تدعى فيكتوريا عوض والثالثة يهودية تدعى اللجرة بلانتر؟ أم أن اليد الخفية لسكرتير عام وزارة المعارف الذى سيصبح قريبا المستشار الإنجليزى للتعليم، دوجلاس دنلوب لعبت دورها لتحدث توازنا بين الطوائف الثلاثة!. ويحفزها نجاحها على طلب المزيد من العلم فتطلب من ناظرة المدرسة الالتحاق بقسم المعلمات لكى تتخرج بعد ذلك معلمة تربى الأجيال. وتدهش الناظرة الإنجليزية من ذلك الطلب الذى ينم عن شجاعة فائقة فى ذلك العصر؛ وتسألها هل يعنى ذلك أنك ستشتغلين بالتدريس؟ فتجيب الفتاة المصرية النابهة بالإيجاب. وهذا يعنى أنها استأذنت والدها ووافق، بل المؤكد أنه شجعها على أن تصبح رائدة فى تلك

المهنة النبيلة. و لا غرو فقد كانت مصر تتمطى مستيقظة من سبات طويل فرضه عليها احتلال عسكرى وسياسى وفكرى عثمانى، وكانت إرهاصات الوعى قد بدأت على يد أبنائها البررة أمثال رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وتلاميذ جمال الدين الأفغانى: الشيخ محمد عبده والمحامين سعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفى السيد وغيرهم من شباب مصر المتحفز لأعدائها الحالم بإعادة مجدها.

كان حفنى ناصف واحدا من هؤلاء، يعرف بعضهم منذ كان عضوا بجماعة الحزب الوطنى التى تحلقت حول جمال الدين الأفغانى، والبعض الآخر مذ درس لهم بمدرسة الألسن وتعلقوا به فصار لهم مرشدا وأستاذا موجها؛ ومن بينهم مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد وأحمد شوقى. ولا شك أن وجود كل تلك الشخصيات الرائدة فى حياة الوالد، إلى جانب شخصية ذلك الأب الفذ، وترديده "الأفكار "التنويرية"، ومحاولاته إحداث تغيير فى حياة أسرته، كان له تأثيره على ابنته الكبرى والأثيرة لديه "ملك". ولربما زاد حماسها للتعليم وللثقافة عندما تابعت فى مطلع عام ١٩٠٤م فى صحيفة "اللواء" إحدى الصحف التى كان والدها يحضرها للبيت، زيارة سيدة فرنسية عظيمة هى جولييت آدامز، التى لبت دعوة الزعيم الشاب مصطفى كامل ولم تتردد فى إعلان موقفها الصريح والتنديد بالاحتلال البريطانى لمصر. أو لعل ملك كانت تتابع مجلة "الفتاة" أول مجلة نسائية تصدر فى مصر، ورئيسة تحريرها هند نوفل، فاستيقظ فيها الإحساس بمكانتها كإنسانة وداعبت خيالها الأحلام بأن

تصبح مثل هند نوفل امرأة مشهورة تحتل موقعا بين صفوف الرجال. كانت "الفتاة" صحيفة شهرية، أصدرت أول أعدادها عام ١٨٩٢ بمدينة الإسكندرية، وبعدها بعامين نشرت زينب فواز كتابها "الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور"، فهل ترى حفنى ناصف لم يغفل أن يضعه فى طريق ابنته النابهة كى تقرأه وتعرف أن العرب كانوا يحتفون بالشاعرات والأديبات وراويات الحديث الشريف والمفتيات، وذلك قبل أن تهب عليهم الأعاصير السياسية وقبل أن تتمكن من بلادهم، وعقولهم قوى غاشمة تنتمى إلى الإسلام اسما وتسيء إليه فعلاً.

أو لعل "ملك"، بنت السابعة عشرة، كانت تقرأ بإمعان ما كان يكتبه قاسم أمين تحت عنوان "أسباب ونتائج" و"أخلاق ومواعظ" بجريدة "المؤيد"، وكان يحث فيها كل إنسان، رجلا كان أو امرأة، على أن يستقل بذاته ويكد فى طريقة تضمن له معيشته، إن لم يكن بعمل يعود نفعه على الهيئة الاجتماعية فعلى الأقل لا يعود منه ضرر عليها"

كان قاسم بمقالاته هذه يحاول أن يهز المصريين، لكى يفيقوا من نوبة الغيبوبة الطويلة التى فرضتها عليهم الهيمنة العثمانية، واستبداد الحكام، فجعلتهم كسالى متواكلين لا طموح لديهم ولا رغبة فى ترقية نفوسهم، لا همَّ لهم سوى الشكوى وحسد الآخرين على النعم التى يتصورون أنها هبطت عليهم من السماء "فالمصرى إذا طماع كغيره، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه"، وهو "يحب أن تمطره السماء ذهبا وأن

تنبته الأرض فضة، يحب أن يكون أغنى الناس على شرط ألا يتعب جسمه ولا يجهد فكره".

في هاتين السلسلتين نجد قاسم أمين يضرب بشدة على عيوب المصريين في بداية القرن العشرين مثل حب النفس، والكسل وعدم الاحترام للنفس أو الوطن أو العائلة أو العلم أو الفضيلة، ويرجع تفشى تلك العيوب بينهم إلى التربية، التى خصص لها العديد من المقالات على أساس أن "أكبر شيء يحق للإنسان المباهاة به والافتخار، بل والإعجاب والزهو، هو تربيته لنفسه". إن التربية هى التى يمكن أن تخلق فى الإنسان الإحساس الوطنى والوازع النفسى، أى الضمير، "فعلى كل نفس تحترم ذاتها متى كانت قادرة على الكسب أن تكون مستقلة، غير محتاجة للغير، تكفل نفسها بعملها ولا يباح لها مطلقا أن تكون عالة على غيرها. "ولقد أيقن قاسم مبكرا جدا تأثير الأمهات السلبى على أبنائهن فكتب غير مبال بما يكنه الرجل المصرى من حب عميق للأم، وما يتبع ذلك من إغفال تام لكل عيوبها: "ولما كانت الأم فى بلادنا مجردة عن كل تربية عقلية أو أدبية كان تأثيرها لغاية الآن على الأولاد رديئا سيئا، وكانت هى السبب فى عدم نجاح القليل من التربية التى يكتسبها الطفل من والده ومن تعليم المعلمين "(٦١).

(٦١) أسباب ونتائج. الأعمال الكاملة. تحقيق د. محمد عمارة.

هل يمكن أن نتجاهل تأثير تلك المقالات وغيرها على ملك، ونحن نراها على غير ما كان شائعا بين فتيات جيلها تنكب على التعلم لتحقق تربية نفسها، وتتطلع إلى تربية نساء عصرها حتى تزول عنهن تلك الصفات التى انتقدها قاسم بشجاعة ولم يكن فيها أدنى قدر من التجنى أو المبالغة.

وفى عام ١٩٠٥م يتحقق حلم "ملك"، فتتخرج بنجاح وتعين معلمة بمدرسة السنية، بمرتب كبير: جنيهان ونصف فى الشهر، فإذا عرفنا أن سعر الجاموسة فى تلك الفترة كان ١٤٠ قرشا، أدركنا كم كان ذلك المبلغ يحقق استقلالا ماديا لأول معلمة مصرية. ولأنها تذوقت حلاوة ونعمة العلم وأدركت قيمة العمل، تقوم ملك بتصرف غريب يظهر حماسها الشديد لتعليم الفتيات المصريات، تصرف لم يسبق أن قامت به امرأة مصرية، فتطوف بالأسر لتقنع الأمهات بإلحاق بناتهن بالمدرسة، معددة بالطبع مناقب التعليم، آخذة على نفسها التعهد بحماية الصغيرات والعمل بكل ما تستطيع على ألا يكون التعليم وسيلة لإفسادهن أو إبعادهن عن الطريق القويم، كما كان يشيع فى القرون الماضية. وتستجيب العائلات لا لشىء إلا للسمعة الطيبة التى تسبق "ملك" إليهن. وفى نفس العام تستقبل الأسرة مولودة جديدة هى الشقيقة الصغرى لملك، كوكب، التى ستحذو حذو شقيقتها وتكمل تعليمها وتسافر بعد سنوات إلى إنجلترا لتصبح أول طبيبة مصرية. وفى العام التالى (١٩٠٦م) تحصل ملك على دبلوم التربية بتفوق وتتخرج فتاة مصرية أخرى من مدرسة السنية، هى نبوية موسى، وتعين مدرسة بمدرسة عباس الابتدائية للبنات بالقاهرة.

ويحدث فى هذا العام ما يميط اللثام عن سلاطين تركيا ويبين حقيقتهم عندما يشتبك الجيش التركى مع أفراد من الجيش المصرى فى مدينة طابا على الحدود الشرقية لمصر ويحتلها، وهنا ينتفض المحتل البريطاني غضبا، ويرسل ضابطا كبيرا يعهد إليه بوضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش إلى العقبة، ويرغم الجيش التركى على الانسحاب من طابا فى مايو ١٩٠٦م. يفعل الإنجليز هذا تحت ستار حمايتهم للأملاك المصرية. ويؤكد هذا الحادث ضعف العثمانيين، وغباء سياساتهم التى كان من الممكن أن تقتطع من مصر جزءا عزيزا من أرضها. ولعلنا لا ننسى الصراع الذى حدث بعد ذلك بسنوات طويلة على نفس البلدة بين مصر وإسرائيل، استعانت فيه الحكومة المصرية بالوثائق التى تعود إلى عام ١٩٠٦م، وقد أقرت فيها كل من إنجلترا وتركيا أن طابا جزء من الأراضى المصرية.

المثير للتأمل أن زعيم الأمة الشاب مصطفى كامل كان يتعاطف مع تركيا، واستنكر موقف إنجلترا ودعاها إلى الجلاء عن مصر بدلا من فرض وصايتها على مصر والتظاهر بالدفاع عن حقوقها فى طابا! وقد صدق حدسه فإذا بالإنجليز يتمادون بعد ذلك فى مسألة الحماية هذه فتقرر الحكومة البريطانية زيادة عدد قواتها المحتلة لأرض مصر ومضاعفة النفقات التى تتحملها مصر لكى تتفضل إنجلترا وتحميها!!! لقد اتضح للمتابعين لتلك الأزمة السياسية أن مصر عليها أن تعتمد على نفسها، وعلى سواعد وعقول أبنائها، فالإنجليز ما كانوا ليتحركوا لو لم يكن خط السكة الحديد الذى تعتزم تركيا مده من معان إلى العقبة، يهدد مركزهم وقواتهم المحتلة

بمصر. أما فرنسا، التى كان مصطفى كامل يظنها مساندة للحرية وصديقة للمصريين، فقد وقفت موقفا سلبيا أملته عليها معاهدة الوفاق التى عقدتها مع بريطانيا قبل عامين (عام ١٩٠٤م) كذلك تخاذلت روسيا، وبقية الدول الأوروبية.

وما يمر شهر واحد حتى تقع "واقعة" دنشواى فى يوم مشئوم هو ١٣ يونيه ١٩٠٦م، التى يستغلها الزعيم الشاب مصطفى كامل لكى يشن حملة شعواء على المحتل البريطانى ورجله الأول اللورد كرومر. وتتمخض الحملة عن عدة نتائج ايجابية من أهمها استقالة اللورد كرومر أو فى الحقيقة إقالته وإعادته إلى وطنه إنجلترا، وجذب أنظار العالم الخارجي والصحف العالمية إلى "المسألة المصرية" وتنبه الأذهان فى العالم كله إلى توحش وبربرية أولئك الذين يدعون أنهم أصحاب التمدين والرقى فى العالم الحديث، حتى أن سلطات الاحتلال نفسها اضطرت لتغيير سياستها فى مصر فأرسلت ألدون جورست ليحل محل كرومر، ويبدأ سياسة اللف والدوران التى تشبه نعومة الثعبان. المهم أن هذا الحادث سلط الأضواء على الفلاح المصرى الذى كان العثمانيون يهملونه تماما ويحتقرونه علنا، ويعيرون المصريين بأنهم فلاحون. وسنرى فيما بعد أن الفلاح المصرى الذى أيقظته سياط الظلم الفادح في دنشواى سينتقم لكرامته، وسيكون واحدا من أهم عناصر المقاومة الوطنية ضد الإنجليز بعد خمسة عشر عاما فقط من هذا التاريخ.

ولعل حادثة دنشواى أعادت لأذهان ذكرى وقوف النساء فى صف الثائر أحمد عرابى ضد طغيان الخديوى الخائن الذي استدعى جيشا

أجنبيا ليحميه، كحاكم مستبد، من أبناء بلده. فإذا ببدايات الوعى تنتشر بين بنات الطبقة المتعلمة، فتصدر لبيبة هاشم مجلتها "فتاة الشرق"، وتطبع زينب فواز كتابها "الرسائل الزينبية"، وتستهل هدى شعراوى، التى ستحوز لقب زعيمة المرأة بعد أقل من عقدين، نشاطها بدعوة النساء للتبرع من أجل إنشاء جمعية لرعاية الطفل، أما ملك فعلى عادتها، تتبع مسيرة والدها الحبيب وتكون لجنة لجمع المال من السيدات من أجل مشروع الجامعة الأهلية. فعلت هذا وهى تعرف أن العقليات المظلمة التى كانت تسيطر على مصر فى ذلك العهد لن تسمح للمرأة المصرية بالالتحاق بالجامعة. ولكنها كأى امرأة نشأت على العطاء بلا حدود تمنتها للرجال المصريين، وكانت مثل رفيقاتها اللاتى بذلن غاية الجهد لجمع التبرعات، ومثل الأميرة فاطمة بنت الخديوى الراحل إسماعيل التى أوقفت أموالا طائلة وآلاف الأفدنة من أخصب أراضى الجيزة ليقام عليها المشروع، كن جميعا يعلمن أن اليوم سيأتى وستزين مدرجات الجامعة وساحاتها وستتصدر صفوفها جنبا إلى جنب الرجال الزهرات المصرية الجميلة.

أدرك أبناء الفلاحين أن السبيل الأوحد لاستقلال مصر ولحرية أبنائها هو العلم، وأن الإنجليز يقفون حجر عثرة لا يريدون لأبناء مصر إلا أن يكونوا فلاحين أميين أو موظفى مكاتب ينفذون أوامرهم وسياساتهم دون نقاش، وأنهم فرضوا أحد أبنائهم، السير دوجلاس دنلوب لينفذ تلك السياسة بلا هوادة. فيقرر الأعيان أن يلبوا نداء مصطفى كامل ويؤسسوا أول جامعة مصرية مدنية، ويقرر أحدهم، وهو أحمد باشا المنشاوى أن يتطوع بتنفيذ المشروع كله على نفقته

الخاصة. ولكن القدر لا يمهل المنشاوى باشا فإذا به يتوفى فجأة، ولا ييأس المصريون فينشر مصطفى كامل الغمراوى، أحد أعيان بنى سويف، فى ٣٠ سبتمبر، بكل الجرائد المصرية نداء ودعوة إلى كل طوائف الشعب المصرى وفئاته بالاكتتاب فى مشروع الجامعة المصرية. ثم يجتمع سبعة عشر رجلا مصريا، من بينهم حفنى ناصف، فى بيت محامٍ شاب كان نجمه قد بدأ يبزغ هو سعد زغلول حتى أنه عين مستشارا بمحكمة الاستئناف، ويقررون الدعوة لاكتتاب عام لتنفيذ المشروع. يتم هذا الاجتماع التاريخى فى السادس عشر من أكتوبر ١٩٠٦، بسكرتارية المستشار قاسم أمين الصديق الأقرب لسعد زغلول، ويعهد المجتمعون إلى كل من حفنى ناصف ومرقس حنا وعلى فهمى إعداد لائحة المشروع. ويدرك الإنجليز خطورة ذلك الوعى الجديد بأهمية التعليم، وتطبيقا للسياسة الجديدة يتم تصحيح المهزلة وفصل نظارة المعارف العمومية عن نظارة الأشغال، وتعيين الوطنى المحبوب سعد زغلول ناظرا للمعارف، ولكنهم لا ينسون أن يدقوا إسفينا للوزير الشاب، وذلك بترقية دوجلاس دنلوب من سكرتير عام إلى مستشار بالوزارة، وهو منصب يمنحه صلاحيات أوسع. ويضطر سعد زغلول إلى أن يعتزل موقعه كرئيس للجنة مشروع الجامعة فينتخب أعضاء اللجنة المستشار قاسم أمين رئيسا لها.

إنها روح الانتفاضة التى استيقظت بمصر، عام ١٨٨١م، منذ أن تمرد عرابى على الأتراك والجراكسة، وصاح صيحته الشهيرة فى

وجه الخديوى الخائن توفيق، مرددا عبارة الفاروق عمر بن الخطاب: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

كان نجاح "ملك" حفنى ناصف وحصولها كأول فتاة على دبلوم المعلمين حدثا شاذا جعل الصحف المصرية تحتفى بها، وينشر الخبر ليذيع صيت "ملك" وتلتفت إليها الأنظار. ويتقدم لطلب يدها من والدها واحد من تلاميذه؛ شاب نابه سيكون له شأن كبير فى الحياة السياسية بمصر فيما بعد هو عبد العزيز (باشا) فهمى (الذى سيصبح فيما بعد محاميا شهيرا ووزيرا ورئيسا لحزب الأحرار الدستوريين وعضو المجمع اللغوى). ولكن "ملك" كانت منتشية بخمر النجاح، مفتونة بروعة الريادة تتطلع ليوم تحقق فيه حلمها بالعمل معلمة تربى أجيال بنات بلدها وتحررهم من كهف الظلام اللاتى حشرن فيه عنوة. وتعتذر "ملك" عن الزواج قبل أن تنهى عامى التمرين وتتسلم شهادة دبلوم المعلمات، ولكنها تقترح على أبيها أن يوجه نظر الشاب اللامع إلى صديقتها المقربة. ويقبل الوالد الاعتذار ويفعل ما أشارت به ابنته. وبالفعل يتم زفاف صديقتها فاطمة بنت حشمت باشا لعبد العزيز فهمى.

كيف يرفض أب أن يزوج ابنته لواحد من تلاميذه النبهاء من ذوى المال والأصل الطيب، لمجرد أنها تريد أن تكمل تعليمها. بل من الذى سمع عن أب يستشير ابنته (عام ١٩٠٦ م) فى أى أمر من الأمور، فضلا عن سماع رأيها فى زوج المستقبل! إن أخذ رأى البكر فى زواجها واحد من حقوق المرأة المسلمة، لاشك فى ذلك،

وحفنى ناصف الذى تخرج فى دار العلوم وكان أزهرى النشأة والثقافة، يعلم ذلك تماما. ولكن المصريين كانوا فى تلك الفترة من تاريخ مصر بعيدى المسافة عن دينهم الحنيف، واقعين تحت سيطرة الفقه السلفى الذى هيمن على الفتاوى طوال الحقبة العثمانية، فأغلق باب الاجتهاد وعطل حاسة التأمل والتعمق حتى ظهر الأستاذ الإمام محمد عبده وحررهم منه.

ويمر عام، وتتفتح شهية المصريين للعمل السياسى بعد أن ينهزم اللورد كرومر أمام الزعيم الشاب مصطفى كامل بعد مأساة أو فضيحة دنشواى، ويقدم استقالته أو يقال، ويغادر البلاد إلى غير عودة. ويصبح عام ١٩٠٧م بداية لتأسيس الأحزاب المصرية. الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل الذى منحه الأعضاء رئاسة الحزب مدى الحياة، وحزب الأمة بزعامة محمود سليمان باشا، وحزب الإصلاح الدستورى بزعامة الشيخ على يوسف.

وعندما يؤسس أحمد لطفى السيد "الجريدة"، لسان حال حزب الأمة، يصدر العدد الأول منها فى مارس ١٩٠٧م وتقرأ ملك المقال الافتتاحى للجريدة، وتسرع بإرسال مقال تعترض فيه على بعض ما جاء به. لقد كان أحمد لطفى السيد يتابع مقالاتها وأشعارها التى تنشرها بين الحين والآخر فى الصحف المختلفة. ويشعر بالإعجاب الشديد بأبنة صديقه وبنبوغها وطموحها. فيطلب من صديقه حفنى ناصف أن يعرفه بأبنته ويتم اللقاء بمكتبه بمقر الجريدة وتوافق "ملك" على المساهمة فيها بكتابة عامود منتظم بعنوان "نسائيات".

ورغم هذا النجاح غير المسبوق فى حياة أى امرأة مصرية ورغم ثقافة الأب وحماسه الشديد لابنته وتشجيعه لها بلا حدود، فإن الأسرة تشعر بالقلق على ابنتها التى لا تفكر فى حياتها ومستقبلها. وبالنسبة للمرأة فى تلك الفترة لم يكن لها من حياة ولا مستقبل خارج إطار الزواج. ويأتى الفرج: الشيخ عبد الكريم سلمان صديق والدها الحميم يخطبها لعبد الستار الباسل رئيس قبيلة الرماح بالفيوم. وهذا يعنى أن تترك القاهرة حيث المحاضرات بالجامعة والكتابة بالجريدة والتدريس بالمدرسة. حيث الصديقات المصريات والأجنبيات وأصدقاء والدها من الصفوة المستنيرة بمصر. تترك هذا كله لتعيش فى محافظة وان كانت تتميز بجمال طبيعتها إلا أن أغلب سكانها من البدو والعربان، وهؤلاء لا يؤمنون بدور آخر للفتاة بعيدا عن الأمومة وخدمة الزوج ورعاية الأبناء. ولكن العريس، كما قال الشيخ عبد الكريم للأب، شاب متعلم ويجيد اللغات الأجنبية، وفضلا عن ذلك فهو معجب "بملك" الكاتبة ويتعهد بأن يتركها تكتب وتنشر وتخطب كما تشاء.، فهو عربى وتراث الأدب العربى يفيض بنوابغ الشاعرات والفقيهات. هكذا قيل للأب وهكذا أبلغ ابنته التى تضعف مقاومتها.، فلم يعد باستطاعتها أن ترفض عريسا آخر. لقد صارت فى الحادية والعشرين من عمرها، تدق بعنف على باب العنوسة التى قد تصيبها ولا تغادرها إلى الأبد. ولابد أنها رأت نظرة الإشفاق فى عينى والدها فاستسلمت للإلحاح وقبلت الراغب الجديد وقدمت استقالتها من مدرسة السنية. وأقامت المدرسة احتفالا كبيرا لوداع

ابنتها المعلمة المحبوبة، التفت فيه المعلمات والتلميذات حولها يعبرن بدموع حارة عن أسفهن لفراقها. وبعد أقل من شهر من بداية كتابتها النسائيات تزف "ملك" إلى عبد الستار الباسل، وينتشر الخبر بين عائلات التلميذات، فإذا بخمسة وسبعين أسرة تسحب بناتها من مدرسة السنية. كانت الفتاة المصرية هى التى دفعت الثمن. ولكن قبل أن ينتابنا القنوط نلمح بارقة أمل عندما تحصل فتاة مصرية على البكالوريا فى نفس العام، لأول مرة فى مصر: تلك هى نبوية موسى، رائدة أخرى من رائدات مصر. أراد لها القدر أن تنفرد بتلك الخطوة الرائعة لمدة ٢١ عاما، فهل أصيب تعليم البنات بنكسة بعد زواج "ملك" وانزوائها بعيدا عن القاهرة، واختفاء نشاطها وحيويتها وحضورها الألق عن الحياة العامة فى مصر.! أم أنها جهود المستشار الإنجليزى دنلوب التى نجحت فى تعطيل مسيرة التعليم فى مصر، من أجل تعطيل كل سبل التحرر والاستقلال!

وتنتقل بنت القاهرة إلى بادية الفيوم. تفتح قلبها وعقلها لهذا العالم الجديد عليها .. عالم يختلف كل الاختلاف عما ألفته ونشأت عليه. طبيعة ساحرة؛ صحراء تمتد بلا حدود مساحات شاسعة من الخضرة وبحيرة تخلب اللب بجمالها الآسر .. تألف الجمال والأبقار والخراف والماعز، وتعتاد على الحصان وتقلق لمرض جاموسة وتهيم حبا بكل أنواع الطيور. وتتهيأ لأن تؤدى دورها الذى تعشقه: الإصلاح، فترسم الخطط لتنهض بتلك البيئة التى كتب لها أن تعيش بها وأن يصبح ناسها هم أهلها. ابتعدت عن التدريس ومشاكله والهموم

المتراكمة من جراء تعسف دنلوب وإجراءاته وأوامره التى لا تنتهى. لقد أصدر أمرا عجيبا فى ذلك العام كأنما يخطط لضم مصر إلى إنجلترا، كما كان يتردد على ألسنة بعض ساستها؛ قرر دنلوب أن يجعل التعليم فى المدارس الأميرية باللغة الإنجليزية، ويطير النبأ الذى يقابل بالرفض والاستياء من الجميع، ولكن وزير المعارف سعد زغلول، يعلن موافقته على القرار ويسوق المبررات ومنها أن العمل فى البوستة والجمارك والبنوك وغيرها سيكون باللغة الإنجليزية، فإذا لم يُجدها المصريون كتابة وحديثا حرموا من العمل بتلك الجهات. وتدور مناقشات عاصفة بين الفريقين: أنصار الطربوش الذين يقولون إن الأتراك العثمانيين فى أحلك فترات عمرهم لم يحاولوا أبدا أن يستبدلوا اللغة العربية بلغتهم التركية، أما أنصار القبعة فيرون أن إجادة الشباب المصرى لتلك اللغة التى أصبحت عالمية سيكون وسيلة للاطلاع على العلوم والأفكار الحديثة، وسيفتح الأبواب على مصاريعها لينطلق المصرى إلى العالمية، ويشرح قضيته أمام الدول الأجنبية، وينشر حضارته وعقيدته فى أرجاء المعمورة.

وفى خضم ذلك الجدل العنيف تفجع مصر بحدث جلل. سحابة سوداء من الحزن العميق تنتشر فى سمائها، وتمطر دموعا غزيرة على الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل الذى وافته المنية فى الرابعة من بعد ظهر العاشر من فبراير ١٩٠٨م.

لقد شاءت الظروف أن تنشغل "ملك" بمشاكلها الخاصة بعد الزواج، بعد أن اكتشفت شخصا آخر فى الرجل الذى اقترنت به. لم تستطع الثقافة ولا الأسفار إلى أوروبا ولا اللغات الأجنبية التى

يرطن بها أن تخفى الروح البدوية المتأصلة. فإذا بالقناع ينتزع، وإذا بها أمام زوج أنانى مستبد، لا يقيم وزنا لمشاعرها ولا يحفل برغباتها ويعتبرها زينة أو تحفة ثمينة يضيفها إلى مجموعة مقتنياته الفاخرة. ويغيب عنها الليالى بل الشهور الطوال دون أن تعرف أين ذهب. وتنمو بذور الشقاق بينها وبين الزوج نتيجة لتأخرها فى الإنجاب. انه يبدو متعجلا لدرجة أن يعيرها بالعقم. فتسافر إلى الآستانة بصحبة شقيقها مجد الدين، وهناك تنتهز الفرصة لتعرض نفسها على الأطباء الذين يفاجئونها بأنها سليمة مائة فى المائة ولابد أن يكون العيب فى الزوج. وفى الآستانة يعود "ملك" طموحها فتلتقى بالأديبة التركية الشهيرة خالدة أديب (التى سيعينها كمال أتاتورك بعد سنوات قليلة أول وزيرة معارف فى دولة إسلامية بل ربما فى العالم كله)، وتسلمها مجموعة مقالات للنشر فى مجلة "تركيا الفتاة". وتستمر "ملك" فى مسيرتها عندما تعود إلى بلدها مصر وتفاجأ بإحياء قانون المطبوعات الذى صدر ليقيد حرية الصحافة، ورغم آلامها الخاصة فإنها تنتفض ثائرة على القيود التى فرضها المستعمرون وأذنابهم على حرية التعبير فى بلادها، وتنظم قصيدة تقول فيها:

يا أمة نثرت منظـومها الغـير	**حتـام صبر ونار الشر تستعر**
ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم	**حتى كأنكمــو الأوتاد والحمر**
ستسلبون غدا أغلى نفائسكـم	**حرية ضاع فى تحصيلها العمر**

القصيدة قوية تفور بالرفض والثورة لدرجة أن السلطات تفكر فى القبض عليها ثم تتراجع خشية إثارة الرأى العام. وللمفارقات العجيبة

يمنعها محمد باشا الباسل شقيق زوجها من الكتابة ونشر مقالاتها وأشعارها فى الصحف بحجة أنه يخشى عليها من الغزل!. ولا تستسلم "ملك" وإنما يتفتق ذهنها عن حيلة بارعة: فتوقع منشوراتها باسم جديد:"باحثة البادية". لقب قررت أن تمنحه لنفسها بعد أن عاشت فى البادية وأحبتها وقررت أن ترتدى زى بناتها.

ويتصاعد إحساس "ملك" بالقهر بعد تجربتها الفاشلة فى الزواج ،لقد جربت الزواج وتعرفت إلى نموذج لم تكن تتصور وجوده بين الرجال. رجل يختلف كل الاختلاف عن أبيها، بل هو على النقيض منه فى كل شيء. وتعترف للكاتبة الفلسطينية مى زيادة فى إحدى رسائلها: "أريد مما كتبت وأكتب للجريدة بعنوان النسائيات تخفيف ويلات الزواج على قدر الإمكان". وتأمل معى تلك الكلمة: ويلات الزواج ..! فكأنما الزواج شر لا بد منه. ولابد أن تلك التجربة المؤلمة فتحت عينى "ملك" على وضع المرأة المصرية وصنوف القهر والعذاب التى كانت تعانيها بنات جنسها فى أوائل القرن العشرين، أى منذ مائة عام، ولا زالت فئة منهن تعانى منها إلى اليوم على الرغم من تقدم الزمن واختلاف الحياة بين العصرين إلى حد كبير.

إنها حبيسة قفص الزواج مأمورة من الزوج بألا تبرحه بعد أن علم بأمر سفرها إلى الآستانة وما أخبرها به الطبيب التركى. يتوقف بها الزمن، لكنه يسير فى الخارج، فى القاهرة حيث يصعد نجم آخر لامرأة لا تقل عنها حماسا واجتهادا، هى نبوية موسى التى تحصل على دبلوم المعلمات رغم معارضة المستشار

الإنجليزى دنلوب. وتصدر كتابا لتثقيف الفتاة عنوانه "ثمرة الحياة فى تعليم الفتاة" تقرره وزارة المعارف للمطالعة فى مدارسها، ويتلقفها مدير مديرية الفيوم، محمد محمود باشا، فيستدعيها إلى الفيوم ويعينها أول ناظرة مصرية لمدرسة بنات: المدرسة المحمدية الابتدائية التى أنشأها مجلس مديرية الفيوم.

وفى عام ١٩١٠م يشعر الوالد بما تعانيه ابنته فى بعدها عنه وعن البحر الذى كانت تعشق السباحة فيه والانطلاق وسط أمواجه المتلاطمة: القاهرة. فيعكف على جمع مقالاتها بالجريدة ويشرف على طبع ونشر الطبعة الأولى من كتاب يحتويها جميعا تحت نفس العنوان "النسائيات" التى كتب المقدمة لها أحمد لطفى السيد واحتوى على تقاريظ لكتاب آخرين. وفى مقدمته للكتاب يعترف أستاذ الجيل (الذى كان فى الثامنة والثلاثين من عمره وقت كتابة تلك المقدمة) إن التفريط فى حقوق المرأة منذ زمن طويل كان بحكم قوة الرجل لا بحكم ضعفها الطبيعى ولا بحكم الشريعة السمحاء، وأن هذا التفريط أتى بنتائج محزنة وتسبب عنه تعطيل نصف الإنسانية عن خدمتها. وقال إن المرأة شريكة للرجل فى الضرر الذى حاق بها وبالمجتمع نتيجة إهمال تربيتها، لقد ظلمت نفسها بسبب قعودها عن الأخذ بأسباب رقيها " وعدم محاولتها تلطيف أحكام القوة القاهرة. وما يهمنا أن أحمد لطفى السيد اعترف "لملك" بالفضل وأنها أول من سارت على نهج قاسم أمين "نعم أولهن، لأنها أخذت تبحث فى نسائياتها بحث الجاد الذى يعلق على بحثه نتائج كبرى لصلاح المرأة بل لصلاح الجمعية الإنسانية"، ونعتها لطفى السيد بأنها "أكتب" سيدة

قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر"، وأنها تشبه الكاتبات الغربيات اللاتى تفوقن على كثير من الكتاب، وأهم ما أضافته ملك "أن جعلت أساس بحثها تقرير المساواة (بين الرجل والمرأة) لا على جهة الإطلاق، بل فى حدود الاعتدال والدين".

وفى العام التالى، ١٩١١م يدعو رئيس النظار رياض باشا "الممثلين الحقيقيين لجميع أنحاء القطر المصرى" إلى ما سمى "المؤتمر المصرى الأول"، والهدف من عقد هذا المؤتمر الذى كان بمثابة أول برلمان مصرى، بحث شتى الإصلاحات والتوجيهات التى يجدر بالأمة والحكومة انتهاجها. ويتقدم الجميع بمطالبهم ماعدا المرأة. وتلاحظ "ملك" ذلك ولكنها لا تستطيع مغادرة بيت الزوجية دون إذن الزوج الذى يرفض، فترسل من الفيوم بقائمة من عشرة مطالب لنصف الأمة لكى يصدر بها تشريع لتحسين أوضاع المرأة المصرية. أنابت عنها شخصا يدعى أحمد مصطفى تولى قراءة هذه المطالب على عدة آلاف من الرجال وهى:

١) تعليم البنات الدين الصحيح، أى تعاليم القرآن والسنة الصحيحة.

٢) تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى، وجعل التعليم الأولى إجباريا لجميع الطبقات.

٣) تعليم التدبير المنزلى علما وعملا، وقانون الصحة، وتربية الأطفال والإسعافات الطبية الوقتية.

٤) تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله وكذلك فن التعليم حتى يقمن بكفاية نساء مصر.

٥) إطلاق الحرية فى تعلم غير ذلك من العلوم لمن تريد.

٦) تعويد البنات من صغرهن الصدق فى القول والجد فى العمل وغير ذلك من الفضائل.

٧) اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم.

٨) اتباع عادة نساء الأتراك بالآستانة فى الحجاب والخروج.

٩) المحافظة على مصلحة الوطن، والاستغناء عن الغريب من الأشياء والناس بقدر الإمكان.

١٠) على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا.

الملاحظ أن "ملك" اعتبرت نفسها ممثلة لجميع النساء المصريات (نصف الأمة)، وسارعت بتقديم تلك المطالب، رغم أنها كانت تعرف سلفا أن نداءها سيذهب صرخة في واد. ونرى هنا بوضوح تمسكها "بتعاليم القرآن والسنة الصحيحة"، وبالدور الأساسى للمرأة كمربية أجيال والتركيز على تعلمها "صناعتى الطب والتعليم" كما سبق وكتب أستاذها قاسم أمين. أما الملاحظة الثالثة فهى تملقها للأتراك، أصحاب الطربوش، والنقاب الأبيض، ومطالبتها بأن تكون المرأة التركية هى القدوة والمثل الأعلى للمرأة المصرية، ويندرج تحت هذا الولاء مطالبتها بالاستغناء عن الغريب من الأشياء والناس بقدر الإمكان. والمقصود هنا الأجانب، أصحاب القبعة، وليس من بينهم الأتراك طبعا. لقد عبرت "ملك" بمطالبها عن مجمل تطلعات الكاتبات المصريات. ولم تكن تلك القائمة من المطالب كل أحلام "ملك"

وأمنياتها للنهوض بالمرأة شيء، وإنما نشر شقيقها مقالة أخرى اقترحت فيها ملك عودة النساء فى المدن والقرى لحضور الصلاة وسماع الوعظ بالمساجد أسوة بنساء الطوائف الأخرى اللاتى يذهبن زرافات ووحدانا إلى المعابد. ودعت ملك وزارة الأوقاف والجمعيات الخيرية لأن تخصص من الأموال الخيرية مبلغا لتعليم الفقراء، كما دعت وزارة المعارف لتعيين ما نسميه اليوم "مشرفة اجتماعية" بكل مدرسة، وطالبت وزارة الصحة بأن تعين فى كل مدينة وقرية طبيبة وممرضة، والإكثار من المستشفيات الخيرية والصيدليات، وليكن صرف الأدوية للفقراء مجانا أو بثمن زهيد. وكانت "ملك" أول من طالب بتخصيص بوليس للآداب، كما طالبت بتقييد تعدد الزوجات وهو ما اقترحه من قبل الإمام محمد عبده، كذلك طالبت بالعمل بقاعدة التحكيم المنصوص عليها فى القرآن الكريم، والتحكم فى الفوضى السائدة (الآن) فى الزواج والطلاق. ومن المطالب العملية التى نادت بها "ملك" فتح مدرسة لتخريج صانعات (فى التفصيل والتطريز، وتربية الطفل والخدمة) حتى لا تحتاج الوطنيات إلى غيرهن من الأجنبيات. أما أطرف ما طالبت به فكان: "منع النساء من السير فى الجنازات منعا باتاً، ومن الاجتماع للندب واللطم والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة التى لاوجود لها إلا فى مصر، وأن يتوقف الناس عن تشييع الجنازات إلى المقابر ويكفى الصلاة على الميت فى أقرب مسجد." وعلى الرغم من تحفظها الشديد إلا أن بعض مطالبها لاقت معارضة شديدة من أعضاء المؤتمر، وكلهم

رجال، وعند مناقشة المطالب المقدمة للمؤتمر فى اليوم الأخير ثارت مناقشات ساخنة حول مطالبتها السماح للمرأة بدخول المساجد للصلاة فيها وسماع الخطب، وتم رفض هذا الطلب بأغلبية الأصوات، مع أنه لا يتعارض مطلقا مع تعاليم الإسلام، والمرأة العربية فى عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، كانت تصلى فى المسجد وتستمع لخطب الرسول، (ﷺ)، والصحابة وتناقشهم .. الخ

وتظل ملك حبيسة قفصها وحيدة فيه لا يؤنسها حبيب ولا ولد. ثم تأتى المفاجأة الصاعقة.

عندما تقتحم خلوتها عجوز من أبناء الحى وتكاشفها بأن الزوج عبد الستار الباسل سبق له الزواج من بنت عمه وأنه أنجب منها فتاة تدعى ونيسة. ولم تكن تلك هى المفاجأة الوحيدة بل كان هناك ما هو أقسى وأمر: لقد أصيب الزوج بالعقم بعد أن أجرى عملية جراحية وأخبره أطباؤه بأنه لن ينجب بعد ابنته تلك. إذن لماذا كان يعيرها بالعقم وهو يعلم أنها سليمة ولماذا تركها تتردد على الأطباء وتجرى الفحوص والتحاليل دون كلل! وتنتظر عودة الزوج الغائب دائما على مضض. لابد أن تصارحه. لعله ينكر ويكذب تلك العجوز. لعله يملك تفسيرات أخرى أو أخباراً جديدة. ولكن الزوج لا ينكر وإنما يقر بأن كل ما قالته العجوز صحيح. وتتوتر العلاقة بين الزوجين إلى أبعد مدى. لقد بات يخشى أن تفضحه زوجته وتعلن الحقيقة. وبالتالى قرر أن يعزلها عن أبيها وأهلها وصديقاتها، وأمرها بما يتصور أن الشرع يفرضه على كل زوج": أن تقر فى بيت زوجها ولا تبرحه.

وتستمر "ملك" فى الحبس، داخل جدران عالية باردة بعيدا عن الأب الحبيب والأم الحنون وأشقائها وشقيقاتها وصديقاتها فى القاهرة. وداخل تلك العزلة الإجبارية تتأمل حالها، وحال ضرتها، بنت عم الزوج الذى أنكرها ولم يذكر زواجه منها عندما تقدم لملك. إنها ضحيته هى الأخرى، بل لعل مصيبتها أفدح، فلماذا تحقد عليها. وما ذنب البنت البريئة وما الذى يمنع أن تتبناها فتحاول أن تعلمها وتخيط لها ثيابها وتمد جسرا من المودة بينهما! وتبدأ المحاولات ولكن الطفلة لا تستجيب، أو لعلها "ملك" التى لا تبذل جهدا كافيا!؟ وتفشل التجربة وتضاف إلى رصيدها من الألم فيتضخم ويوشك أن ينفجر بعقلها. إنها تذرف الدموع على الورق فى مراسلاتها مع الأديبة الشامية مى زيادة التى اختارت الإقامة بمصر، تفتح قلبها وتسكب معاناتها على الورق، بينما الحياة تمضى فى القاهرة ورفيقات دربها يتقدمن وينتعشن. افتتحت مى صالونها الثقافى الذى سيصبح قبلة المفكرين والساسة من صفوة رجال مصر، والذى ستتواصل جلساته بانتظام لمدة عشرين عاما. كذلك تألقت نبوية موسى وأصبحت تلقى المحاضرات بالفرع النسائى لجامعة القاهرة حول "تاريخ مصر القديم والمعاصر"، وكذلك أصدرت لبيبة هاشم كتابا جديدا فى "التربية"، وأضيفت إلى المجلات النسائية العديدة التى تقاطرت فى الأعوام السابقة مجلة "الجميلة" وصاحبتها فاطمة توفيق.

يأتيها الفرج من حيث لا تحتسب. ففى شهر أكتوبر من نفس العام (١٩١١م) تقرر إيطاليا غزو ليبيا، فتعلن الحكومة العثمانية الحرب على إيطاليا وترسل جيشا لمقاومة الغزو، وفجأة يختفى عبد الستار،

زوج ملك، وتبحث الزوجة المسكينة عنه دون جدوى، وأخيرا يخبرها البعض بأنه سافر إلى ليبيا للانضمام إلى صفوف المجاهدين! ولأن عائلة الباسل تنتمى إلى جذور ليبية فإنها تصدق ما سمعته، ويطول اختفاء الزوج عاما كاملا، فترحل "ملك" إلى مصر،. وكأنما أُطلق سراحها من الأسر، تنتهز الفرصة لتلقي محاضرة بمقر الجريدة تعلن فيها تأسيس أول حزب نسائى مصرى تحت اسم "الاتحاد النسائى التهذيبى". كانت "ملك" قد سبقت هدى شعراوى ورفيقاتها بأكثر من عقد كامل فى الفكرة فقط، إلا أن الظروف لم تتح لها التنفيذ. المهم أنها كانت صوت يعلو ويعلن أن المرأة المصرية لن تتنازل عن حقها فى الحياة. وتعود "ملك" إلى سابق حيويتها ونشاطها، وتقرر ألا تكون أقل من زوجها إيثارا وعطاء، فتفتتح بالقاهرة جمعية التمريض (نواة الهلال الأحمر) وتعمل مع رفيقاتها عضوات الجمعية، وزميلاتها المحررات بمجلة "العفاف"، ليل نهار لإرسال الأدوية والأغطية والملابس والأغذية إلى الجهات المنكوبة بليبيا. وتفتتح مدرسة لتعليم الفتيات والسيدات التمريض ببيتها بشارع أفراح الأنجال بالمنيرة. تشترى الأدوات للمدرسة وتدفع المرتبات من مالها الخاص. ثم تسند إدارة الجمعية لسيدة أخرى لتتفرغ هى لبقية مهامها. ولأنها تجيد الخياطة فهى تخيط بيديها مائة بذلة لجرحى الحرب فى طرابلس ليبيا الذين داهمهم الجيش الإيطالى..

وأخيرا بعد غياب عام كامل يعود البطل الهمام، زوجها، ولكنها تكتشف أنه لم يكن يجاهد بين صفوف المقاومة الليبية بل غاب لأسباب أخرى.

ولا تتوقف طموحات "ملك" عند حد، فهى تخطط لإنشاء مشغل للفتيات وملجأ للمعوزات. وتصرح لصديقة من صديقاتها بأنها تنوى بيع ٣٥ فدانا من أملاكها للإنفاق على مشاريعها إلا أن المرض لا يمهلها. لقد ساءت صحتها كثيرا وباتت تعانى من آلام مبرحة فى جسدها. ومن الفيوم تأتى إلى القاهرة لتعالج من آلام عرق النسا فى إحدى المصحات بحلوان. وتتحسن صحتها بعض الشيء عندما تلتف حولها عائلتها وتلتقى بصديقاتها وبالذات بالأديبة المعروفة مى زيادة التى كانت تراسلها منذ فترة على صفحات الجرائد. لأول مرة تلتقى الأديبتان وجها لوجه بالمصحة فى حلوان، وتشعر كل منهما كأنها عرفت الأخرى منذ عشرات السنين. فالمعاناة واحدة والهموم متشابهة والأحلام تكاد تفجر القلب من التوق إلى الحرية وإلى حياة كريمة تحفظ للمرأة إنسانيتها.

تصف مى تلك الزيارة فى بداية كتابها عن باحثة البادية بقولها:

كانت تقضى فصل الشتاء فى حلوان، وقد دعتنى إليها على غير معرفة سابقة سوى معرفة القلم بعد أن تبادلت وإياها بعض الرسائل فى الصحف السيارة. دعتنى على اثر رثائى ساعة فقدتها يومئذ فكتبت تقول "إنى وجدت ساعتك المفقودة والتقطتها. رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسح دموعك لأنى أحب دائما أن أمسح دمعة المحزون. تعالى إلى لتأخذيها فإنها أحست بشوق لرؤيتك فأتت تقدمة

لمجيئك وتعارفنا. عثرت على وعثرت عليها لتؤكد لك أنك وجدت الصديقة التى لا تخون" (٦٢).

وتكشف مى عن اهتمام "ملك" الشديد بالفيوم وكل ما بها من نساء وديار ومواشٍ تسأل عنهم جميعا بلهفة المحب المهموم. ورغم مشاكلها الخاصة فإن "ملك" لا تظهر كآبة ولا تشكو، وإنما "تضحك بسرعة وسهولة وفى صوتها رنين كرنين أصوات الأطفال. تضحك بكل قواها كمن يضحك من قلب لم يخالطه بعد معنى الكآبة ولم تنزل بساحته وطأة الهموم."

كانت ملك فى قمة الألم البدنىّ والنفسى عندما التقت لأول مرة بمى، كانت قد خبرت الشعور بالمهانة القصوى وصهرتها نار الحزن بعد أن علمت أن زوجها خدعها ولم يخبرها بشأن زوجته الأولى التى هى بنت عمه وأم ابنته الوحيدة. لم يترك لها حرية الاختيار فى أن تصبح أو لا تصبح "ضرة" لامرأة أخرى لا ذنب لها. لقد أرغمها على أن تشارك فى كسر قلب وهدم أسرة وهى بريئة تماما لا تعلم ما خفى عنها. وفى كتابها النسائيات تصف تعدد الزوجات بأنه عدو النساء الألد وشيطانهن الفرد":

"انه لاسم فظيع ممتلئ وحشية وأنانية. كم أحرج رجلا وعلمه الكذب فأفسد عليه خلقه، وكم بذر مالا كان يعده البعض رزقه، وكم أحفظ قلب والد على ولد وكم علم الوشاية والحسد"

(٦٢) باحثة البادية بقلم الآنسة مى كتاب الهلال العدد ٥٨٢.

وعلى الرغم من أنها "العروس الجديدة" فهى تعبر بحرقة عن مشاعر الزوجة الأولى والأبناء كما لو كانت تصف مشاعرها هى.:

"فإذا ما لهوت أيها الرجل بعرسك الجديد، فتذكر وراءك بائسة تصعد الزفرات يتساقط من مآقيها أمثال لؤلؤ عروسك، ولكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلا."

وتعلق مى على هذه الفقرة بقولها "إن هذه الفقرة لا يكتبها إلا امرأة "[٦٣].

ويظهر الزوج فجأة ،لا ليواسى زوجته أو يشرف على علاجها، وإنما ليصر على عودتها معه إلى الفيوم رغم أنها لم تستكمل العلاج. وتظل ملك تعانى من آلام "عرق النسا" فى عظامها، ومن آلامها النفسية دون أن تشكو أو تكتب مذكراتها لتشرح للأجيال اللاحقة معاناتها، حتى تسقط صريعة الحمى الأسبانيولية وهى بالفيوم. وبينما هى راقدة وحيدة فى "المعتقل" الذى فرض عليها العزلة والبعد عن الأهل والأحباب، تصلها رسالة تنبئها بأن أخاها مجد الدين قبض عليه بتهمة تهريب ضابط تركى سجين، ويجاهد فى سبيل مصر، وأنه سيحاكم أمام محكمة عسكرية. ومجد الدين هذا هو الشقيق الأثير الذى تعتبره بمثابة ابن لم تلده، وهو الذى سيجمع كتاباتها فيما بعد وينشرها بعد أن يكتب المقدمة لها. وعلى الرغم من مرضها الشديد ومن تحذير الأطباء من السفر تقرر السفر إلى

(٦٣) المرجع السابق .

القاهرة لتكون بجوار أسرتها. كان عليها فى ذلك الزمان "أن تركب قطارين كبيرين وقطار شركة ومركبتين، مع ما كان يلابس ذلك من تعب وانتظار وما يحوطه من غبار" وتهرع الأسرة لاستقبالها بمحطة مصر، فيصدمون جميعا من التغير الكبير الذى طرأ على الابنة الغالية والأخت المحبوبة "ملك": شحوب شديد فى الوجه وهزال فى الجسد وإعياء شديد. ولكنها تنتظرها مفاجأة مفرحة. إن مجد الدين من بين مستقبليها: أى أنه قد أفرج عنه أما الأب الغالى فقد أصيب بشلل جزئى حزنا على ابنه، وغاب عن استقبالها. وتسقط ملك بين ذراعى أخيها فيصر على حملها إلى بيته هو فى شبرا لكى يمرضها ويعتنى بها بنفسه.

ولكن حالها يتدهور وبعد ليلة واحدة تفقد النطق، ورغم ذلك فإنها عندما تعود إلى وعيها لحظة تخط بيد مرتعشة واهنة كلمة: مبروك وعيناها شاخصتان إلى أخيها. ويكتب مجد الدين واصفا النهاية الحزينة لأخته:

"وافتنى بالمنزل الذى كنا نسكنه بشبرا، بالقاهرة، وكانت متنبهة كل التنبه فى اليوم الأول، ثم أخذت تغيب قليلا وتقص مقطعات من قصص زوجها التى كتمتها على مضض أكثر من إحدى عشرة سنة فحزت فى نفسها، ثم أخذت تهرف، ثم صمتت، ولم تمهلها هذه الحمى الأسبانية فى القاهرة أكثر من ثلاثة أيام. وتوفيت وشيعت جنازتها من شبرا، وصلى عليها فى جامع أولاد عنان بميدان باب الحديد (رمسيس) واستمرت الجنازة سيرا على الأقدام حتى مدفن

الأسرة بالإمام الشافعى، وكان ذلك فى صبيحة السابع عشر من أكتوبر ١٩١٨م "

ويصف مجد الدين جنازة أخته:

"وفى هذه الجنازة انقلبت القاهرة رأسا على عقب لأن النساء شاركن الرجال فى التشييع، فكانت جمهرة الكبراء ورجال الفكر وطلبة المدارس العليا والثانوية تسير يتقدمها مندوب من قصر السلطان (حسين كامل) لتقديم العزاء "الشخصى" (لأن المندوب لم يكن ليسير بصفة رسمية فى جنازات النساء) ورؤساء الوزارات والوزراء وكبار الموظفين وبعض النزلاء الأجانب، ومراسلو الصحف المحلية من وطنية وأجنبية. وكانت السيدات يملأن الشرفات على طول الطريق وهن يبكين بكاء مرا يقطع القلوب .."(٦٤)

وفى الخامس والعشرين من فبراير ١٩١٩م، أى فى أقل من خمسة شهور، يلحق حفنى ناصف بابنته الحبيبة ملك إلى العالم الآخر.

(٦٤) آثار باحثة البادية. المقدمة بقلم مجد الدين حفنى ناصف صفحة ٦٥ .

ملك حفنى والقضية الوطنية

كانت سنوات بداية القرن العشرين تموج بتيارات متعارضة وأفكار متباينة، وكانت مصر برجالها ومفكريها وساستها تقف فى مفترق الطرق لا تدرى أى سبيل تسلك. لقد ضاقت ذرعا بتحكم العثمانيين وتخلفهم الفكرى وأفقهم الضيق وسياساتهم الفاشلة التى جرت البلاد إلى المهالك، وفى نفس الوقت كانت قوى الاستعمار الغربى متمثلة فى إنجلترا وفرنسا تتربص بمصر وتتصارع على فرض حمايتها عليها، وتذويب هويتها الإسلامية فى تيارات التغريب والتمدين.

هكذا صارت مصر بين المطرقة والسندان، الأتراك من ورائها والإنجليز من أمامها، وإذا بفئة من المصريين يميلون نحو الأتراك، يتزعمهم مصطفى كامل ورفاقه، وفئة أخرى تنشد الخلاص من عنجهيتهم وتحكمهم فى المصريين وسيطرتهم على حكامهم ولا تجد مفرا من سلوك مسلك الغرب واتباع أساليبه ومهادنة رجال الاحتلال الإنجليزى. وقد ظهرت تلك التيارات واضحة مع تأسيس أول أحزاب سياسية فى مصر عام ١٩٠٧م. وقد عاصرت "ملك" المناضل الشاب والزعيم الوطنى مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) ولا بد أنها تابعت مقالاته الملتهبة وخطبه الحماسية وأيدت أو عارضت بعض أفكاره. فإلى أى مدى كان تأثير ذلك الشاب على أفكارها! لا شك أن تأثيره كان سياسيا لم يكن اجتماعيا، فمن المعروف أنه لم ينشغل

بقضية المرأة بل كان واحدا من معارضى قاسم أمين و[٦٥] من مؤيدى الناقدين له ومن بينهم طلعت حرب [٦٦].

كانت ملك من أوائل الذين تنبهوا للمعركة الدائرة بين الوطنيين المصريين من ناحية ورجال الاحتلال البريطانى، يساندهم بعض رجال البلاط من ناحية أخرى حول استقلال مصر. لقد ولدت فى عصر الخديوى توفيق من (١٨٧٩-١٨٩٢م) الذى سلم مصر للاحتلال البريطانى، وعاصرت الخديوى عباس الثانى من (١٨٩٢ م- ١٩١٤م)، وتابعت بدايته الوطنية نتيجة لعلاقته القوية بالزعيم الشاب مصطفى كامل ثم النهاية الحزينة لهذه العلاقة بعد توقيع فرنسا معاهدة الاتفاق الودى عام ١٩٠٤م الذى اتفقت فيه فرنسا على إطلاق يد إنجلترا فى مصر مقابل إطلاق يدها فى مراكش، وتحول الخديوى إلى الإنجليز بعد ذلك.

وكانت ملك فى العشرين من عمرها يوم حدثت (واقعة) دنشواى فى ١٣ يونيو ١٩٠٦م، ولا شك أنها تأثرت بتلك الحادثة التى اهتز لها ضمير العالم فى ذلك الوقت، وان كنا لا نجد صدى لها فى كتاباتها، ولا لقرار فرض الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤م، ذلك أنها ركزت أغلب كتاباتها على القضايا الاجتماعية، ولكننا نجد صدى حسها الوطنى فى موقفها من قضية السفور عندما تكتب:

---

(٦٥) "مصطفى كامل" عبد الرحمن الرافعى الطبعة الخامسة. دار المعارف صفحة ٤١٠

(٦٦) تربية المرأة والحجاب" طلعت حرب سنة ١٩٠٠ م .

"أترى لو كنا سافرات يوم ضرب الإسكندرية بالقنابل أكان يرتد على أعقابهم المحتلون؟ وهل كان ينفع إشراق وجوهنا فى تبرئة مظلومى دنشواى؟ " (٦٧)

وحول المعركة الثقافية التى بدأت تشتعل بين المطالبين باتباع التمدين الغربى والمتمسكين بالقيم الشرقية، تقول ملك فى نفس المقال:

"إننا لو سلمنا بما يقترحه الكاتب من ضرورة تقليد الغربيين فى أمور معاشنا ولباسنا وزى بلادنا مما قد لا يوافق روح الشرق فإننا ننمدج ونفقد قوميتنا بمرور الزمن، وهذا هو ناموس الكون إذ يفنى الضعيف فى القوى"(٦٨).

وقد عاصرت "ملك" صدور كتابى قاسم أمين "تحرير المرأة" ١٨٩٩م، و"المرأة الجديدة" ١٩٠٠م، ولا شك أنها قرأتهما فى بداية صباها وتأثرت سلبا أو إيجابا بما طرحه قاسم أمين من أفكار حول وضع المرأة المسلمة فى عصره ومطالبه التى كانت صادمة وتصادمية فى ذلك الوقت. إلا أن عوامل سياسية واجتماعية عديدة أدت إلى الموقف الذى تبنته "ملك" الوسطى من قضايا المرأة وبالذات قضية التخلص من الحجاب العثمانلى (النقاب الأبيض)، أو ما كان يسمى بمسألة السفور التى ثارت بشدة فى تلك الأيام، وسببت لها نقد وهجوم بعض الرجال فى عصرها، الذين اتهموها بالرجعية

(٦٧) "آثار باحثة البادية" مجد الدين حفنى ناصف ص ٢٧٧.

(٦٨) المرجع السابق صفحة ١٩٢.

واعتبروها مستسلمة لتخلف المرأة ومناهضة لتحررها. فلقد كتب قاسم أمين كتابيه ونشرهما فى نهاية القرن التاسع عشر، ولم تكن نوايا الإنجليز قد اتضحت بعد، أو قضية مقاومة الاحتلال ورفض كل ما جاء به، قد تبلورت كما حدث بعد ذلك. كان الإنجليز فى السنوات الأولى من احتلالهم لمصر يرددون كثيرا عزمهم على الجلاء وينفون بشدة أية نوايا لاحتلال مصر. ولقد توسم بعض المصريين فيهم المنقذ الذى أرسلته العناية الإلهية لإعانة مصر على التخلص من العثمانيين بكل تخلفهم الفكرى وسطوتهم السياسية والعسكرية. ولكن عشر سنوات انقضت دون أن يبدو على المحتلين أية بوادر للرحيل، وكان أن بدأ الصدام معهم بزعامة شاب صغير فى التاسعة عشرة من عمره هو الزعيم مصطفى كامل الطالب بمدرسة الحقوق الخديوية الذى أشعل شرارة الجهاد الوطنى، وكرس حياته حتى الرمق الأخير للدفاع عن حق مصر فى الاستقلال.

وقد توفى مصطفى كامل فى فبراير ١٩٠٨م بعد أن نجح فى بعث روح الوطنية بين مواطنيه. أما ملك حفنى ناصف فلم تبدأ النشر فى "الجريدة" إلا فى ربيع عام ١٩٠٧م، أى قبيل وفاته بعام واحد. ويلاحظ فى **كل كتاباتها التمسك التام بالدين الإسلامى**، حتى أنه قد قيل عنها إنها لا ينقصها سوى العمة لتصبح شيخا من شيوخ الإسلام. وكذلك نلمح فى كتاباتها الاعتزاز الشديد بمصريتها وبوطنيتها. ونتأمل[٦٩] ردود ملك على تلك الاتهامات ومحاولاتها

(٦٩) "آثار باحثة البادية" مجد الدين حفنى ناصف (ردى ومذهبى فى السفور) صفحة ٢٧١ .

المستميتة لإيجاد طريق وسطى تسلكه المرأة المسلمة بحيث لا تفقد هويتها الإسلامية أو تندفع فى تيار التغريب الذى بدأ فى تلك الفترة. أو كما عبرت هى: "طريقا وسطا بين الظلام الدامس الملقى إلى التهلكة وبين الضوء الشديد الخاطف للأبصار". فنجدها تعترف: "إذا لم تخنى الذاكرة فلم يبق من منتقدى إلا حضرة (الحقوقى الحر)، وقد استغرب سكوتى عن مسألة النقاب وخصوصا الجديد منه، وأنا شخصيا ممن يعجب بذلك المئزر التركى، ولكن يتساوى عندى الجديد والقديم ....". ثم تعود فتقول فى نهاية نفس الفقرة:

"وعندى أن المرأة السافرة الجادة فى أخلاقها وسيرها خير من المؤتزرة بأثقل الحرير وأمنع النقاب وهى خليعة لعوب.."

ثم تؤكد على ما سبق وأن أكد عليه قاسم أمين بأن التربية الصحيحة هى خير حجاب:

"ومن يتصفح الخطبة أو غيرها مما أقول وأكتب، يجدنى لا ألح على النساء بأكثر من اتباع الحشمة، ولا على القائمين بأمرهن إلا أن يحسنوا تربيتهن من الصغر حتى ينشأن على الفضيلة".(٧٠)

وفى رد على مقال لعبد الحميد حمدى، رئيس تحرير مجلة "السفور"، الذى طالب بسفور المرأة المصرية وندد بالحجاب، وكان يطلق عليه لقب "زعيم السفوريين"، تكتب ملك:

(٧٠) المرجع السابق صفحة٢٧٣ .

"فناشدتك الله أيها الأديب كيف تأمرنا الآن بالسفور ونحن إذا مشت أحدانا فى طريق لا تزال تنصب عليها العبارات الوقحة ويرشقها هذا بنظرة فاجرة، وذاك ينضح عليها من ماء سفالته حتى يتصبب عرقها حياء، فمجموع رجال مثل مجموعنا الحالى لا يصح بحال أن يوكل إليه أمر امرأة وتترك عرضة لسبابه وقلة حيائه، ومجموع نساء كنسائنا الآن لا يفهمن إلا ما يفهمه الرضيع يصبح سفورهن واختلاطهن بالرجل بدعة لا انتهاء لشرها" (٧١).

ومن ناحية أخرى نرى أن ملك ترفض أن يملى الرجال على النساء ما يفعلن، فالنساء وحدهن صاحبات الحق فى تقرير مصيرهن، فهى تعلن:

"وعليه فلسنا متبعات رأى من يأمرنا بالحجاب ولا رأى من يقول بخلعه لمجرد أن هذا تعب وكتب، وذاك نقب وخطب، إلا إذا تبينا الرشد من الغى، وعلمنا من التجارب أولى الخطتين بالاتباع". "إن الرجال لا يشعرون بما يثور بين أضلع النساء، كما أننا نحن النساء لا نكاد نشعر بحاجاتهم ولا نتنبأ بما بين أضلعهم، فكيف بهم يبتون فى مسائلنا الخاصة بت من شعر بالداء وعرف الدواء"(٧٢).

إن هذا هو موقف مصر التى ترفض أن تفرض بريطانيا أو فرنسا حمايتها عليها، وترغب فى أن تختار طريقها بنفسها.

---

(٧١) آثار باحثة البادية " صفحة ١٩٠.

(٧٢) المرجع السابق صفحة ٢٧٥.

وعندما تعلن نبوية موسى موقفها الرافض للحل الوسط من الحجاب العثمانلى "فاما السفور وإما الحجاب" تكتب ملك:

"إنما أريد أن نوجد مذهبا وسطا بين السفور الغربي والحجاب المصري القديم، بحيث لا يكون اختلاطا يبعث على الشطط ويفنينا في الأفرنج، ولا حبسا يضايق الجسم والعقل ويضيع المصلحة"(٧٣).

وهكذا نجد أن ملك تتفق مع قاسم أمين فى مجمل رأيه المبكر فى الحجاب ولا تتطور معه في مرحلة المرأة الجديدة بل تتراجع عنه خطوتين إلى الوراء. وتقف ملك فى منتصف الطريق وقد أمسكت العصا من وسطها، فهى تعارض السفور وتراه (بدعة لا انتهاء لشرها)، لا لأنها تحبذ الحجاب وإنما لأنها ترى أن الوقت لم يحن بعد لمثل تلك الطفرة (فى بداية القرن العشرين). فالفتيات لم يتسلحن بعد بسلاح العلم والفتيان فى حاجة إلى التأديب والتهذيب. وتشرح ملك موقفها الوسطى من قضية السفور، فتقول:

"أكثر من كتب عنى إنما كان يظن أنى من رأيه وشيعته فأصرح بأنى مستقلة تماما عن رأيهم، فلا أنا "قاسمية" متطرفة كما يريدنى حضرة الكاتب (هيكل)(*) ويحرضنى فى رده (بالجريدة) أن أجهر برفع الحجاب، فإنى لا أوافق على ذلك الآن، وربما أيده المستقبل فى

---

(٧٣) المرجع السابق صفحة ٢٨١.

(*) د. محمد حسين هيكل.

رأيه، ولكنى حكمت على حسب الأحوال الحاضرة؛ ولا أنا ممن يرمين إلى تقليد الفرنجة كما يخاف حضرة (الغزالى أباظة) .."[٧٤]

نفس الموقف الوسطى من قضية السفور اتخذته نبوية موسى التى ولدت فى نفس عام ميلاد ملك (١٨٨٦م أو ١٨٩٠م) وقطعت معها نفس الطريق فى العلم فلحقتها عام ١٩٠٣م وحصلت على الشهادة الابتدائية، ثم سبقتها إلى شهادة البكالوريا لتصبح أول فتاة مصرية تحصل على هذه الشهادة، ثم حصلت على دبلوم المعلمين عام ١٩٠٨م. وبينما تخلفت ملك فى منتصف الطريق لكى تتزوج عام ١٩٠٧م، أكملت نبوية موسى المشوار حتى نهايته متخلية عن الزواج وما يتبعه من تكوين أسرة وإنجاب ..الخ. وأصبحت من أعلام التربية فى مصر فهى أول امرأة مصرية تعين ناظرة مدرسة ابتدائية عام ١٩٠٩م، ثم أول ناظرة لمدرسة معلمات (بالمنصورة) عام ١٩١٠م. وهى أول امرأة مصرية ترقى إلى درجة التفتيش فى وزارة المعارف، وقد شاركت نبوية موسى الرائدة المصرية هدى شعراوى ورفيقاتها عضوات اللجنة المركزية لنساء الوفد فى كفاحهن ضد الاحتلال الإنجليزى، وكانت بين وفد السيدات المصريات المشاركات فى المؤتمر النسائى العالمى اللائى تمردن على الحجاب العثمانلى بعد عودتهن من الخارج. كذلك كانت نبوية موسى تنتدب مثل ملك فى الجامعة المصرية كل يوم جمعة لإلقاء المحاضرات فى موضوعات مختلفة لتثقيف سيدات الطبقة الراقية. وقد التحقت بكلية الحقوق عام ١٩١٢م منتسبة ووصلت إلى السنة النهائية، ولكن

(٧٤) المرجع السابق .

المستشار الإنجليزى دنلوب أقنعها بعدم دخول الامتحان النهائي بزعم أن تلك كانت رغبة وزارة المعارف [٧٥].

وقد أمهل القدر نبوية موسى لتعيش أحداث ثورة ١٩١٩م وماتلاها وقد تركت العمل الحكومى وأنشأت مدارس بنات الأشراف فى الإسكندرية والقاهرة، وأصدرت مجلة "الفتاة" الأسبوعية عام ١٩٣٧م، وامتد بها العمر حتى بلغت الخامسة والستين وتوفيت عام ١٩٥١م فى الإسكندرية، فى حين توفيت ملك حفنى ناصف وهى فى ريعان شبابها ولم تكن قد بلغت الثالثة والثلاثين من عمرها (عام ١٩١٨م). ومع ذلك لا نجد تقدما يذكر فى موقف نبوية موسى من الحجاب، بل نفس التناقض. إنها تهاجم الحجاب السائد فى عصرها (النقاب الأبيض)، وتربط بينه وبين تقدم الأمم أو انحطاطها. واستشهدت نبوية موسى" بما كانت عليه نساء روسيا حيث كن يلبسن الحجاب بالمعنى المعروف عندنا اليوم، فلما تولى الملك بطرس الأكبر أمر بترك هذه العادة فرفعت النساء الحجاب وترك الرجال الملابس الشرقية، ومن ثم أخذت روسيا فى النمو والتقدم. أما الهنود فكانوا يبالغون فى استرقاق المرأة إلى حد بعيد حتى كان من جملة عاداتهم الوحشية أن المرأة إذا مات زوجها أحرقت نفسها يوم مماته.... وكانت النتيجة انحطاط الهنود واستعباد الغرب لهم. أما أوروبا فقد التفتت إلى تحرير المرأة وتعليمها التعليم الصحيح الذى تشعر فيه بإنسانيتها فسبقت أوروبا بذلك غيرها بخطى واسعة".[٧٦]

(٧٥) "نبوية موسى" د. محمد أبو الإسعاد. فصل: سيرة ذاتية.

(٧٦) المرجع السابق صفحة ٦٩عن كتابها: المرأة والعمل ١٩٢٠م.

وعلى الرغم من هذه الأفكار فقد التزمت نبوية موسى بالحجاب وأسفرت عن وجهها وكفيها فقط، على اعتبار أن هذه هى الحشمة فى الزى واعترفت:

"كنت أخشى إذا تكلمت فى السفور أن ينسب إلى جهلاء الناس ما نسبوه ظلما إلى قاسم أمين[٧٧]... لكنى مع ذلك أعطيت تلميذاتى مثالا صادقا للسفور الذى أريده .. الذى يدل على حشمتها ووقارها فهى تخرج لعملها سافرة حتى لا يعوقها الحجاب (النقاب) عن حسن تأدية ذلك العمل، ولكنها تظهر فى ملبسها بمظهر الجد فلا زينة ولا تبرج[٧٨].

"ومع هذا الموقف المتحفظ الذى سلكته نبوية موسى فى مسألة الحجاب، فإنها لم تسلم من الانتقادات الشديدة لكشفها عن وجهها ويديها فقد كان المحافظون يرفضون ذلك ويعتبرونه خروجا عن الشرع، حتى أن الشاعر المعروف حافظ إبراهيم فى زيارته للمدرسة التى تعمل بها نبوية موسى تصادم معها وانتقدها انتقادا شديدا لكشف وجهها، فقد كان وجه المرأة فى نظر هذا الفريق فتنة يجب إخفاؤها."[٧٩].

(٧٧) المرجع السابقة صفحة ٧٣ نقلا عن الفتاة-١١١-١٩٤٠/١/٤م .

(٧٨) المرجع السابق عن: حياتى بقلمى لنبوية موسى.

(٧٩) المرجع السابق صفحة ٧٣.

ملك بين محد وقاسم أمين

"فيجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها - أولا - لا أن تكون متاعا لرجل ربما لا يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها".

ولعل أول من أثار طرح القضية على العصر، وفرض على الكتاب الآخرين أن يفصحوا عن آرائهم فيها كان القاضى المصرى الشاب قاسم أمين، (الذى كان فى السادسة والثلاثين من عمره يوم كتب" تحرير المرأة عام ١٨٩٩ م).

ولد قاسم أمين أول ديسمبر عام ١٨٦٣م لأب كردى كان أميرا للبحر وأم من صعيد مصر. التحق بمدرسة رأس التين الابتدائية ثم بمدرسة الخديوية الثانوية (القسم الفرنسى) وتخرج فى مدرسة الحقوق والإدارة عام ١٨٨١م، وكان الأول على خريجى ذلك العام، وعمل محاميا بمكتب مصطفى فهمى باشا لفترة، ثم سافر إلى فرنسا ليحصل على إجازة القانون من جامعة مونبيلييه فى نفس العام، وفى عام ١٨٨٣م التقى بالشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى باريس وعاونهما فى إصدار جريدة "العروة الوثقى" وكان المترجم الخاص للشيخ محمد عبده. وفى عام ١٨٨٥ عاد قاسم أمين الى القاهرة وفى أول ديسمبر عين قاضيا ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف. كان قاسم أمين صديقا مقربا إلى سعد زغلول والدكتور محمد حسين هيكل، وكان يتردد معهما على الصالون الأدبى الذى كانت تقيمه الأميرة نازلى هانم فاضل، حفيدة إبراهيم باشا، ويضم صفوة مثقفى مصر ومن بينهم الشيخ محمد عبده. وفى عام ١٨٩٣م قرأ قاسم أمين كتابا بالفرنسية كتبه فرنسى يدعى الدوق داركور، هاجم فيه مصر بشدة وزعم أن تأخر المصريين بوجه عام يرجع إلى احتقارهم للمرأة وعزلهم نسائهم عن الحياة العامة، على زعم أن ذلك مما يدعو إليه الدين الإسلامى. وشعر قاسم بالدماء تغلى فى عروقه وأصابته حمى

شديدة ألزمته الفراش لعشرة أيام لم يُشفَ منها إلا بعد أن قرر أن يرد على ذلك الدوق الفرنسى. وفى عام ١٨٩٤م نشر قاسم كتابه الأول بعنوان "**المصريون**" باللغة الفرنسية، دافع فيه بحرارة عن الإسلام وعن المصريين والمرأة المصرية. والكتاب يفيض بروح قاسم أمين الوطنية وعشقه لكل ما هو مصرى، ويظهر عمق ثقافته الغربية والإسلامية على حد سواء. إلا أن حماسه وعاطفته الدينية الدافقة إلى جانب حداثة سنه، أديا إلى أن يدافع عن كل ما عاد وهاجمه بعد ذلك فى كتابيه الشهيرين. فنراه يقول عن المرأة المصرية:

"حقا إنه ليست لدينا سيدات بلاط، ولا نساء سياسيات، ولا متحذلقات مدعيات تأليف أدبى، ولكن، هل يعد ذلك سيئا؟ كلا. ومع إنى لا أذهب إلى حد التأكيد بانحطاطا ذكاء المرأة، وهى نظرية بعض الفلاسفة الأوروبيين من أمثال سبنسر ولومبروزو. ولا أغالى بمثل ما يغالى شامفور حين يدعى "أن رأس المرأة تنقص ركنا فى حين يزيد قلبها وترا"، فإننى لا أرى الفائدة التى يمكن أن يجنيها النساء بممارسة حرف الرجال. بينما أرى كل ما سوف يفقدنه، فإن هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التى تبدو أنهن خلقن من أجلها، كما أن هذه الأعمال لن تجعلهن أكثر فائدة للمجتمع، ولن تزيد من سحرهن، بل على العكس من ذلك. إن مشهد الأم المتفانية يملؤنى حنانا، كما يحرك سرورى مشهد الزوجة التى تعنى ببيتها، فى حين أنى لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل على فى خطى الرجال، ممسكة كتابا فى يدها، وتهز ذراعى فى عنف، وهى

تصيح بى: "كيف حالك ياعزيزى؟" بل لعلى أشعر بشىء غير بعيد من النفور."

إلا أن قاسم أمين سرعان ما يعترف فى نفس الصفحة "ولكن فلنوضح الأمور. إننى أحتقر ادعاء النساء وتحذلقهن، لكننى نصير متحمس لأخذ المرأة قدرا نسبيا من التعليم، إننى أنعى تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق."، وبشجاعة يعترف قاسم بدونية مستوى المرأة المصرية عن مستوى المرأة الأوروبية "غير أن هذه ليست إلا دونية ناتجة عن الجهل وعن القصور فى تثقيف الفكر، كما جعل غياب التعليم المواطن المصرى دون مستوى نظرائه فى أوروبا. ليست هذه الدونية إذن وليدة الدين الإسلامى، أو من أثر العادات والتقاليد، إنها تتوقف على تعليم النساء، وإذا كان قد أهمل الآن، فإنه لم يكن مهملا دائما، وهو ما يثبتها لعدد كبير من النساء الشاعرات والأديبات اللائى لمعن بين المسلمين الأوائل "ثم يقرر قاسم عن ثقة كأنه يستشرف المستقبل" فما نعيشه اليوم هو وضع عابر، ولو أمعنا النظر فيما يجرى حاليا لأصدرنا حكمنا بأنه سيختفى قريبا، وإننى أختلف تماما مع الدوق داركور حين لا يرى فى نسائنا إلا ضحايا بائسات لنظام المجتمع الإسلامى" .

كذلك دافع قاسم أمين عن قوامة الرجال على النساء "إن الوضع الذى أعطاه الإسلام للمرأة هو أكثر تميزا مما تتمناه، فهى كزوجة تتمتع بجميع حقوقها المدنية، فلها الأهلية القانونية لممارسة أى عمل من أعمال الإدارة أو نقل الملكية، دون حاجة للحصول على إذن من زوجها أو تصريح من المحكمة. إنها تستمد شخصيتها من ذاتها.

وليست للقوامة الزوجية هنا إلا دور معنوى خالص. فليس عليها حين تريد البيع أو الهبة أو تلقى منحة أو التقاضى إلا مشاورة نفسها هى، بينما لا تستطيع أختها الفرنسية ممارسة أى عمل من ذلك إلا إذا راق لسيدها وزوجها أن يأذن لها بذلك"

والكتاب فى مجمله ينفى تماما انبهار قاسم أمين بالغرب أو رغبته فى تقليده دون قيد أو شرط أو عدائه للدين الإسلامى، تلك الدعاوى التى انهمرت عليه بعد نشره كتابه الثانى **"تحرير المرأة"** عام ١٨٩٩م. وفى رأيى أن ما جاء به من دفاع حار عن الإسلام لا يتناقض مع ما جاء فى كتابيه التاليين بل يعتبر مرحلة أولية لابد منها. فقاسم فى هذا الكتاب المبكر لم يدافع مطلقا عن حرمان المرأة من التعليم، وأبرز أن الإسلام يعتبرها كاملة الأهلية، واعترف أن جميع الحجج التى ساقها له أستاذه لمادة القانون المدنى بجامعة مونبيلييه فى تبرير "إنقاص أهلية" المرأة لم تنجح فى إقناعه كمسلم، ويعلن اعتزازه بأن الزوج المسلم لا يطلب بائنة من المرأة كما يفعل الفرنسى، ويشرح أن تعدد الزوجات لم يشرع للرجل إلا عند الضرورة القصوى وبشرط أن يعدل بين زوجاته عدالة كاملة ومساواة دقيقة وإلا فليكتفى بواحدة، وانه قد أقر ليضمن المأوى للمرأة والأبوة الأكيدة الدائمة للأبناء، ناعيا على فرنسا ذلك العدد الضخم من العانسات والعشيقات والأطفال غير الشرعيين.

وعلى الرغم من أن قاسم يرفض فى "المصريون" أن يتم الطلاق عن طريق التقاضى، فهو يؤكد مبدأ التحكيم ويذكر الآية الكريمة

التى تنصح المسلمين بأن يعاشروا زوجاتهم بالمعروف، والحديث الشريف "أبغض الحلال إلى الله الطلاق" أما الحجاب فقد تفادى قاسم الحديث عنه فى ذلك الكتاب كلباس للمرأة وإن كان قد دافع عن نظام فصل الرجال عن النساء وعدم اختلاطهم ببعض.

وفى كتاب "تحرير المرأة" نجد أن قاسم أمين أكثر نضجا وهدوءا وشجاعة، وقد بدأ يتلمس طريقه الذى سيسير فيه إلى آخر مدى. انه يهاجم النقاب التركى ويعلن أنه ليس فى الشريعة الإسلامية ما يوجب الحجاب .. وإنها عادة أخذها المسلمون عن بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين والدين منها براء، وأن المرأة السافرة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة، ومن ثم فقد طالب "**بالأمر الوسط وهو الحجاب الشرعى .. كشف المرأة وجهها وكفيها .. ونحن لا نريد أكثر من ذلك**" ويطالب بوضع الطلاق تحت سلطة القاضى، وتقييد الحق المطلق الممنوح للرجل فى إنهاء رابطة الزوجية، وينتقد تعدد الزوجات، ويدعو إلى ضبطه وتقييده بالإشهاد والتحكيم وضرورة جعله من اختصاص القاضى.

وقد خصص قاسم أمين فى "تحرير المرأة" فصلا كاملا عن الحجاب، ذكر فى أوله أنه سبق وأن عالج الموضوع فى كتاب باللغة الفرنسية ردا على "الدوك داركور". وكرر أغلب ما كتبه فى ذلك الكتاب ثم أضاف أن كل من عرف التاريخ يعلم أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم، وأن المعجم الفرنسى "لا

روس" يقول تحت كلمة خمار إن نساء الإغريق كن يضعن الخمار إذا خرجن، ويخفين وجوههن بطرف منه كما هو الآن عند الأمم الشرقية، وقد ترك المسيحيون تلك العادة فلم يغيروها فدامت فى بلادهم حتى القرون الوسطى. ويعلق قاسم على هذا بأنه دليل على أن الحجاب ليس خاصا بالمسلمين وحدهم ولا أنهم استحدثوه، ولكنه عادة معروفة عند كل الأمم تقريبا ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع وجريا على سنة التقدم والترقى.

وقد حرص قاسم على تبيان موقف المذهبين الشافعى (الذى ينتمى إليه أغلب المصريين)، والحنفى (الذى ينتمى إليه العثمانيون) وتصريحهما بكشف الوجه والكفين لنساء المسلمين، ثم يتساءل يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة أو تباشر أى عمل شريف للتعيش منه إن كانت فقيرة! ولما ذا لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه! إن من يخاف الفتنة من الرجال والنساء عليه أن يغض بصره كما هو وارد فى الآية القرآنية، وهو لا يخشى أن يقرر أن النقاب أشد فتنة من كشف الوجه، وهو يحرض المرأة على أن تأتى كل ما تشتهيه من إثارة الفتنة وتحريك الرغبة بالمشى والحركات لأنها تخفى شخصيتها ولا تخاف أن يعرفها أحد. وكان قاسم أمين أول من نبه إلى أن الآيات الخاصة بالتحجب فى سورة الأحزاب خاصة بنساء الرسول وحدهن من حيث الخطاب

ومن حيث سبب النزول وأنه لا يوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أى مذهب كانت ولا فى كتب التفاسير فى أن هذه النصوص الشريفة لا تفرض التحجب على نساء المسلمين ولا يجوز لنساء المسلمين أن يتخذن من أمهات المؤمنين أسوة:

"وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن"، و"يا نساء النبى لستن كأحد من النساء. إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض. وقلن قولا معروفا، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى"

والأهم من ذلك أن قاسم دافع بشدة عن حق المرأة فى الخروج إلى الحياة للاستزادة من التجربة التى لا تحدث إلا بالمخالطة والمعاشرة والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم فى جميع مظاهر الحياة:

"لو أخذنا رجلا بلغ الأربعين من عمره وحجبناه عن العالم وألزمناه أن يعيش بين أربعة جدران وسط النساء والأطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والأدبية ولا بد أن يأتى يوم يجد فيه نفسه مساويا لهم"(٨٠) .

وقد عدد قاسم أمين فى "تحرير المرأة" عيوب الحجاب وكيف أنه يهىء الذهن فى الرجال وفى النساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت، ودافع عن الاختلاط بين النساء والرجال، لأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة

(٨٠) "تحرير المرأة" فصل الحجاب صفحة ٥٦ الأعمال الكاملة تحقيق وتقديم د. محمد عمارة

المحجوبة، فإذا رأت رجلا أيا كان لم يحرك منظره فيها شيئا من الشهوة، أما الثانية فمجرد أن يقع نظرها على رجل يحدث فى نفسها خاطر اختلاف النوع من غير شعور ولا تعمد.

"وبديهى أن المرأة التى تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهى مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والأجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة، فإن عفة هذه قهرية أما عفة الأخرى فهى اختيارية، والفرق بينهما كبير. ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الأقفال وارتفاع الجدران؟

لقد آمن قاسم بالتطور واعتبر أن "سنة الله فى خلقه بأن الانتقال من طور إلى طور آخر لا يكون دفعة واحدة، وإنما يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بها من كانوا موضعا لها"، لهذا هاجم الحجاب على استحياء فى "تحرير المرأة" وشرح ما يعنيه بالحجاب: "إنى أطلب أن يكون مطابقا للشريعة الإسلامية، وهو على ما فى تلك الشريعة يخالف مـا تعارفـه الناس عندنا .." وطالب بالتدرج فى رفع الحجاب:

"أرى أنه من الواجب على أن أنبه القارئ إلى أنى لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة، والنساء على ما هن عليه اليوم، فإن هذا الانقلاب ربما تنشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب، كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى، وإنما الذى أميل إليه هو إعداد نفوس البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغيير،

فيعودن بالتدريج على الاستقلال، ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة فى النفس لا ثوب يختفى دونه الجسم .." (٨١).

وعلى الرغم من الهجوم الضارى على قاسم أمين بسبب ما جاء فى كتابه ذاك، إلا أنه خطا خطوة أبعد فى كتابه التالى، الذى نشر بعد عام واحد من الأول فى ١٩٠٠م "المرأة الجديدة". فنجد أن قاسم أمين اعتبر الحجاب معطلا لحرية المرأة؛ "وأول عمل يعد خطوة فى سبيل حرية المرأة هو تمزيق الحجاب ومحو آثاره"، ذلك أن الحجاب: "أثر من آثار تلك الأخلاق المتوحشة التى عاشت بها الإنسانية أجيالا قبل أن تهتدى إلى إدراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها أنثى، كما اهتدت إلى أن تفهم أن سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبدا للأبيض"، **"والمرأة التى تلزم بستر أطرافها والأعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشى ولا من الركوب، بل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم إلا بمشقة، تعد رقيقة، لأن تكليفها بالاندراج فى قطعة من قماش إنما يقصد منه أن تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الإنسانى الطبيعى فى نظر كل رجل ما عدا سيدها"** (٨٢). وقد اعتبر قاسم الحجاب عائقا يحول دون استكمال تربية المرأة وطالب بتخفيفه وذهابه شيئا فشيئا إلى التلاشى" (٨٣) وكتب يقول:

---

(٨١) المرجع السابق صفحة ٦٨ .

(٨٢) "المرأة الجديدة". فصل "حرية المرأة" صفحة ١٤٤.

(٨٣) "المرأة الجديدة" الخاتمة: (حالة الأفكار الآن بمصر بالنسبة للنساء) الأعمال الكاملة.

"لو لم يكن فى الحجاب عيب إلا أنه مناف للحرية الإنسانية وأنه صار بالمرأة إلى حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التى خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية، فجعلتها فى حكم القاصر، لا تستطيع أن تباشر عملا بنفسها، مع أن الشرع يعترف لها فى تدبير شؤونها المعيشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل، وجعلها سجينة، مع أن القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل - لو لم يكن فى الحجاب إلا هذا العيب - لكفى وحده فى مقته وفى أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية، ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو أنه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها"[٨٤].

لم تكن قضية الحجاب هى الشاغل الأوحد لقاسم أمين وإنما كان يهدف من كتابيه إلى إعادة الاعتبار للمرأة باعتبارها شقيقة الرجل وشريكة الزوج ومربية الأولاد ومهذبة النوع! وقد توسع قاسم فى دفاعه الحار عن المرأة فذكر نماذج من التاريخ البعيد والقريب ومن الحضارات المختلفة، وخاطب المرأة نفسها وما يجب عليها أن تفعله لتنال حقوقها، ونبهها إلى حرفتين أو صناعتين كما سماهما: هما صناعة تربية الأطفال وتعليمهم وصناعة الطب، وكذلك أشاد بعمل المرأة فى مجالى التجارة ومزاولة الحرف الأدبية. فإذا أردنا للمرأة أن تستبدل "المنزلة المنحطة" المفروضة عليها بأرفع منها:

---

(٨٤) المرجع السابق، فصل "التربية والحجاب".

"فيجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها – أولا – لا أن تكون متاعا لرجل ربما لا يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها.

يجب أن تربى المرأة على أن تدخل فى المجتمع الإنسانى وهى ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيف شاء.

يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها لا فى غيرها".

إن كتابى "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة" يكملان بعضهما البعض، وقد اكتملت فيهما كل عناصر عرض القضية وشرحها بإتقان المحامى الماهر الذى يؤمن بقضيته والقاضى العادل الذى يملك كافة أدوات الحكم النزيه. ولم أقرأ لأى كاتب عربى ممن تابعت خطابا هادئا متزنا واعيا شريفا حول مسألة المرأة يفوق ما قدمه قاسم لرجال عصره فى مستهل القرن العشرين، والذى يصلح أن يكون هاديا لكل الأجيال اللاحقة.

مي زيادة : الشرقية الراقية

أما قاسم فلا يصرخ ولا يخاف ولا يرتعش. في فكره مقدار الكمال الكافي لإختلاط النظريات وفي أصالة رأيه وحزمه من الجدارة ما يحول النظريات إلى ما يطابق الواقع، بل هي الواقع بعينه .. *

ومن الكتاب الذين عاصروا ملك وتبادلوا معها المقالات والأفكار ثم تناولوا آراءها بالتحليل والنقد الكاتبة مى زيادة. ولدت مى بالناصرية بفلسطين فى نفس العام الذى ولدت فيه ملك. ثم انتقلت للحياة فى مصر مع والديها عام ١٩١١م حيث اشترى والدها امتياز مجلة "المحروسة"، وكانت تشارك فى تحريرها. وحصلت على الجنسية المصرية. وقد اشتهرت مى بصالونها الأدبى الذى استمر منذ عام ١٩١٣م إلى عام ١١٩٣٦م، وكان يتردد عليه كبار الأدباء والكتاب أمثال أحمد لطفى السيد وعباس محمود العقاد وطه حسين وشبلى شميل وغيرهم. ويقال إن مى كانت تجيد سبع لغات مما جعلها تستمتع بدائرة معارف واسعة ورؤية أعمق وأكثر رحابة للحياة من أغلب معاصريها. وقد صارت مى بمقالاتها التى كانت تنشرها فى المحروسة وفى "المقتطف" وبعض الصحف الفرنسية من ألمع كتاب عصرها. والأهم من ذلك أنها كانت أول كاتبة عربية تحمل فكرا "نسويا" متقدما ظهر جليا فى اهتمامها بتأريخ وتحليل ثلاث كاتبات عربيات هن: عائشة التيمورية ووردة اليازجي وملك حفنى ناصف. وفى ترجمتها لأولئك الكاتبات نقرأ أفكارها ونتعرف إلى منهج مى زيادة نفسها فى تحليل شخصيات مترجماتها وردود أفعالها وتفسيراتها لأقوالهن وأفعالهن مما يوضح الفروق التى تميزها عنهن. وكانت هدى شعراوى هى التى أطلقت عليها لقب: الشرقية الراقية، إعجابا بشخصيتها المتوازنة بين الشرق والغرب.

لم تستطع مى زيادة أن تبدى رأيا صريحا فى مسألة الحجاب يمكن مقارنته برأى ملك. وفى معرض نقدها لبعض آراء ملك حول

الرقص الغربى نجدها تصف نفسها: "أنا فتاة سافرة تسرى على عادات مجتمع هو أقرب إلى "التفرنج" منه إلى أى نزعة أخرى. وقد تعلمت الرقص واشتركت مع قومى فى السهرات الراقصات ولم أر فيها شيئا يصح أن يسمى إخلالا بالشرف .."[٨٥] وقد أفردت مى فى كتابها عن ملك فصلين كاملين للمقابلة بينها وقاسم أمين الذى اعتبرتها "ابنته بالفكر والجرأة وتلميذته فى المناداة بإصلاح شئون النساء [٨٦]"، وانتقدت إنكار ملك اتباع مذهب قاسم والتشيع له فى قصيدة ترد بها على قصيدة لشوقى (بك):

"فعلام أكثرت الملا	مة وانضممت لعذلى
وسقيتنى من مرقو	لك مثل نقع الحنظل
ونسبتنى حينا لمـــذ	هب قاسم وابى على
تعنين ويـــلك اننـــى	أمـــارة بتبـــــذل"

وقد رأت مى أن ملك ظلمت قاسم بهذا الإنكار "وهو إنكار يدل أيضا على أنها لم تنصفه ــ ولا أجرؤ أن أقول إنها لم تفهمه. وكيف أجرؤ على ذلك وأنا أعتقد على رغم منى بأن تأثيره فيها كان عظيما، وأنها لم تتناول القلم بشجاعة إلا لأن قلمه أوحى إليها مهيئاً لها فى النفوس سبيلا وواضعا فى الأفكار قابلية واستعدادا"

وتعترف مى بإعجابها بكتابات قاسم على الرغم من اعترافها مقدما بـــأنها قرأت كتبـــه بعد قـــراءة نسائيات الباحثـــة فـــى عـــام واحـــد

(٨٥) باحثة البادية وعائشة التيمورية كتاب الهلال ٥٨٢ صفحة٤٩.

(٨٦) المرجع السابق صفحة١٢٦ .

(١٩١٤م). وهو اعتراف غريب لأنه يعنى أن مى أهملت قراءة كتابين أثيرت حولهما زوابع كثيرة، وعلقت عليهما أقلام لا حصر لها. ولكن ربما حدث ذلك لأن مى لم تكن مسلمة، فاعتبرت ما جاء بالكتابين لا يخصها. وما يعنينا هنا نقدها القوى لملك لإنكارها فضل قاسم عليها، أو تأثرها بإفكاره و"هل يمكن أن لا تنفعل امرأة راقية بكتابات هى الأولى من نوعها، ممن لم يرد للمرأة وللأمة إلا خيرا؟ (٨٧) " وقد رأت مى أن الخلاف بينه وبين ملك ليس إلا خلافا زهيدا، أملته طبيعة كل منهما كامرأة ورجل؛ ملك أكثر تشبثا بالماضى لأن هذه هى طبيعة المرأة "تسير بتحفظ بين تشعب الأفكار الجديدة والآراء المستحدثة، وكلما خطت خطوة التفتت إلى الوراء لتتثبت من أنها تابعة السبيل الذى يربط الأمس بالغد "أما قاسم فلأنه رجل فهو" يرسل نظره أبدا إلى الأمام. هى حريصة على الاعتدال، وعلى مراعاة العادات المألوفة ما أمكن، وقد تصرخ أحيانا لتؤكد أنها غير خائفة، **"أما قاسم فلا يصرخ ولا يخاف ولا يرتعش. فى فكره مقدار الكمال الكافى لإخطاط النظريات وفى أصالة رأيه وحزمه من الجدارة ما يحول النظريات إلى ما يطابق الواقع، بل هى الواقع بعينه.."(٨٨)** .

وهكذا نجد أن ملك اتفقت مع قاسم أمين فى مجمل رأيه المبكر فى الحجاب، إلا أنها لم تتطور معه فى مرحلة المرأة الجديدة بل تراجعت خطوتين إلى الوراء.

---

(٨٧) "باحثة البادية وعائشة التيمورية صفحة ١٢٥ .

(٨٨) المرجع السابق صفحة ١٣٩ .

فما هى حكاية الحجاب فى الإسلام ؟

لم يبدأ الحجاب (بمعناه الحالى) فى الإسلام، بل كما ذكرنا آنفا كان مفروضا على نساء اليهود بعد أن ذكر فى التوراة، وقبل عصر الرسالة كان الجلباب والثوب هما الزى الخاص بنساء شبه الجزيرة العربية اللاتى كن تغطين رؤوسهن بالخمار، شأن نساء العالم كله فى ذلك الوقت. الخمار والجلباب إذن كان الزى السائد بين النساء زمن الجاهلية.

كانت النساء فى الزمن القديم ترتدى الخمار ليحميها من تقلبات الجو كالرياح والأتربة والأمطار وأشعة شمس الصيف الحارقة ..الخ كما كان الرجال يرتدون العمامة أو أغطية الرأس التى مازالت سائدة حتى اليوم فى شبه الجزيرة العربية (كالغترة والطاقية والطربوش ..الخ). وكان من الطبيعى قبل أن تتبدل الحياة على الأرض من خيام وغرف بلا أبواب (حجاب)، فى البوادى، إلى مساكن وعمارات، أن يتحصن الإنسان داخل ملابسه.

أما القرآن الكريم فقد ذكر لباس المرأة المسلمة فى ثلاث آيات فقط هن:

آية الحجاب

".. وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ.."

(سورة الأحزاب. الآية ٥٣)

آية الجلباب:

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ"

(سورة الأحزاب الآية ٥٩)

آية الخمار:

"وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ"

(سورة النور الآية ٣١)

بعد خمس سنوات من هجرته إلى المدينة، أمر نبى الإسلام بأن يبلغ زوجاته ونساء وبنات المسلمين بأن يسحبن الخمر التى اعتدن أن يرتدينها كزى خاص بنساء منطقة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، على فتحات رقابهن، وهذا تفسير عبارة "يضربن بخمرهن على جيوبهن"، وأن يوسعن جلابيبهن ويجعلنها سابغة فضفاضة، وهذا تفسير عبارة "يدنين عليهن من جلابيبهن" والهدف المذكور فى الآية الكريمة واضح تماما: ليس الغرض تعبديا أو دينيا وإنما لحمايتهن من شباب المنافقين ومن المستهترين الذين قد يظنونهن جوارى فيلحقوا بهن الأذى: "ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين" .أما آية الحجاب فقد أجمع الفقهاء على خصوصيتها بنساء النبى، (ﷺ)، وأنها لا علاقة لها بلباس المرأة بل هى خاصة بآداب زيارة المسلمين لبيت الرسول صلى الله عليه وسلم، ومراسم مخاطبتهم لزوجاته داخل البيت، إذا اقتضت الضرورة، فيتم ذلك من وراء حجاب، أى ساتر، يخفى شخوصهن، رضى الله عنهن، وشخوص من يتحدث إليهن.

كانت المرأة، قبل الإسلام، واحدة من اثنتين؛ إما من الجوارى (الإماء)، أو من "الحرائر". كان الناس يعرفون الحرة من الجارية، أو الأَمة، عن طريق الزى الذى ترتديه، فالحرة كانت ترتدى ثوبا سابغا فضفاضا لتتحرك بحرية، فضلا عن أنه كان دليل العز والثراء والحرية؛ أما الجارية فلم يكن يستر بدنها عادة إلا الأسمال أو ملابس بسيطة. وقد أجمع الفقهاء القدامى على التفرقة بين المرأتين: الأمة والحرة. فالأَمة (الجارية أوالعبدة) ممنوعة من ارتداء الخمار. قال ابن تيمية فى تفسيره لآية الخمار: الحجاب مختص بالحرائر دون الإماء كما كانت سنة المؤمنين فى زمن النبى، (ﷺ)، وخلفائه، أن الحرة تحتجب والأَمة تبرز، وكان عمر (رضي الله عنه) إذا رأى أمة تختمر ضربها وقال: أتتشبهين بالحرائر، أى لكاع![٨٩].

وجاء فى تفسير الطبرى: "ذكره لنبيه، (ﷺ)، يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المسلمين لا تتشبهن بالإماء فى لباسهن". وقد انشغل فقهاء المسلمين قرونا طويلة ماذا يظهر وماذا يختفى من بدن الحرة وبدن الأَمة، كذلك اختلفوا حول ماهية الزينة الظاهرة التى يمكن أن تبديها المرأة للغرباء (وألا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها). وأفتى بعض الفقهاء، بأن الإماء المسلمات لهن (وعليهن) أيضا أن يكشفن عن رؤوسهن وبعض أطرافهن (مثل قدر من الذراع وقدر من أسفل الساق)، أثناء العمل إعمالا لقاعدة "المشقة تجلب التيسير"،

(٨٩) "فتاوى بن تيمية" مجلد١٥، ص٣٧٢ .

أو قاعدة" الحاجات تنزل منزلة الضرورات فى إباحة المحظورات"، بل إن البعض الآخر أفتى بجواز كشف الذراع أثناء الصلاة لأنها من الزينة الظاهرة (كالسوار)، وذلك إعمالا بمبدأ "الابتلاء بالإبداء"(٩٠).

إن الإسلام لم يبتدئ الخمار ولم يبتكر الجلباب وإنما نظم عملية ارتداء المسلمة لهما لكى يحميها من الإيذاء، فى وقت كان الناس قريبى عهد بالوثنية، لم تتعمق فى نفوسهم التقوى والخوف من الله ومن حسابه يوم الدين، وقد غلبت فيهم، قبل الإسلام، الهمجية وإنعدم في زمانهم العلم وغابت السلطات التى تحمى المواطنين من بعضهم البعض كالقوانين والشرطة والمحاكم ..الخ.. وقد ساوى الإسلام بين كل البشر، وبالتالى لم يعد مستساغا أن تتم التفرقة بين نساء المسلمين. كل من دخلت الإسلام صارت حرة محصنة وتبعا لذلك الفهم كان من المفروض إذا أعلنت السبايا (أسيرات الحروب) إسلامهن أن يتم إعتاقهن على الفور، ولكن رجال المسلمين غضوا الطرف عن ذلك، واستمروا يستعبدون أسرى الحروب من رجال ونساء ويبيعون البشر فى الأسواق، حتى أرغمت أوروبا الحكومات الإسلامية على إلغاء الرق بقوانين فى بداية القرن العشرين!! لم يشغل فقهاء العصور السالفة أنفسهم بمسألة الإماء والحرائر، لأن الرق (سواء بالسبى أو بخلافه) ظل ساريا فى عصورهم. واليوم، بعد إلغاء الرق، وانتهاء عهده إلى الأبد، لم يحاول أى من الفقهاء

(٩٠) تحرير المرأة فى عصر الرسالة" عبد الحليم أبو شقة ج٤. الباب الخامس. الفصل الأول

المحدثين أن يخوض فى مسألة شائكة كالرقيق، وأن يقول لنا من هن الإماء ومن الحرائر؟، وهل تعتبر المرأة العاملة اليوم فى حكم الإماء لأنها تنفق على نفسها من كدها، وتخضع لقوانين وتعليمات صاحب العمل (حكومة أو قطاع خاص ..الخ) وتضطر للخروج ومخالطة الرجال، وبالتالى أصبح من الضرورى أن تكشف رأسها وجزءا من ذراعيها وساقيها، كما كان مسموحا للإماء فى عصر الرسالة؟.

اعتمد الفقهاء المحدثون على أسلافهم كل الاعتماد، ولم يحاول أى فقيه من المحدثين أن يجتهد فى مسألة وضع المرأة بعد أن تغيرت أحوال الدنيا وعلاقات البشر، وتجنبوا تماما الخوض فى مسائل شائكة مثل "وما ملكت أيمانكم"، وعما إذا كان الرجل المسلم لا يزال يملك الحق فى أن يشترى امرأة بماله يمتلكها ويستولدها دون زواج، ويصبح من حقه أن يتحكم فيها، له أن يبيعها أو يهبها للغير أو حتى يحكم عليها بالموت!

جاء الإسلام والرق واقع وعرف وأساس اقتصادى واجتماعى فى العالم كله. فالإسلام لم يشرع الرق، ولم يلغه، أو يحرمه بآية قرآنية صريحة. ولكنه أيضا لم يشجعه أو يتجاهله مثلما فعلت الأديان الأخرى، وإنما حث وعمل على تصفيته تدريجيا من خلال تضييق مصادر الاسترقاق وتوسيع منافذ الإعتاق. إن عتق رقبة كفارة للحنث فى اليمين، (سورة المائدة: ٩٨)، وكفارة الظهار (المجادلة: ٣،٤) وكفارة القتل الخطأ (النساء: ٩٢) وكفارة الإفطار المتعمد فى رمضان، وإذا رغب العبد فى أن ينال حريته فعلى سيده أن يمنحها

له مقابل بعض المال (المكاتبة. سورة النور: ٢٣)، بل إن الجارية تنال حريتها إذا ولدت لسيدها، هى وكل من تأتى بهم من بنات أو بنين (المستولدة)، كما خصص الإسلام جزءا من مال الزكاة لعتق الرقاب. ومسألة الرق مثلها مثل تعدد الزوجات ومثل شرب الخمر، كلها كانت موجودة قبل الإسلام وتقررت حكمة الخالق عز وجل فى أن يتدرج المسلمون فى الامتناع عنها حتى يتم تحريمها. وكان المفروض أن يتلاشى الرق تماما من بلاد المسلمين، ولكنهم تشبثوا به وتحايلوا على التشريعات الإلهية، فظل ساريا بين الشعوب الإسلامية، وتجارة مربحة اشتهر بها بعضهم حتى أرغموا قسرا على إلغائه بواسطة الحكومات الغربية المسيحية. وقد لا يعرف الكثيرون من الجيل الحالى أن ثورة المهدى اندلعت فى السودان ضد الخديوى إسماعيل لأنه قرر إلغاء تجارة الرق فى السودان.

أصبح الرق اليوم ممنوعا، لأن الزمن عفى عليه وتخطاه، فلماذا لا يسرى نفس الحكم على حجاب المرأة الذى لم يعد يفيد اليوم فى منع الإيذاء عنها، بل ربما جلب عليها المشاكل إذا عرفت عن طريقه، فى ظروف معادية؟

كذلك كان المفروض أن تكون المرأة المسلمة أول امرأة تنال حقوقها كاملة فى العالم، وفقا لشريعة الإسلام التى ساوى فيها الله بين كل البشر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣). إن التقوى وحدها هى معيار التكريم عند الله سبحانه وتعالى، وليس الجنس أو النوع أو العرق أو العقيدة، والله لا يقيم الناس بمظهرهم

الخارجى، بملابسهم أو أزيائهم، سواء كانوا يرتدون الخمار أو الطربوش أو القبعة، ولكن بما تحمله عقولهم وقلوبهم: "**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**" (حديث شريف رواه مسلم).

لقد تجاهل المسلمون القدماء آيات قرآنية عديدة، تساوى بين المرأة والرجل، وترفع منزلة المرأة إلى المواطن كامل الأهلية، له كل حقوق المسلم وعليه كافة التكليفات، واستمروا يستعبدون نساءهم على مر العصور، على الرغم من أحكام القرآن الكريم وسنة الرسول، ووصيته، (ﷺ)، الحارة فى خطبة الوداع. ونتذكر فى هذا المقام قول الأستاذ الإمام محمد عبده "**وقد كان الناس لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها لا يرون للنساء شأنا فى صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها، حتى علمهم الوحى ذلك ولكن الناس لا يأخذون من الوحى فى كل زمان ومكان إلا بقدر استعدادهم، وان ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه فى هذا الزمان وعادت إلى جهالة الجاهلية**" (٩١).

وقد تنبه بعض المفكرين الإسلاميين للقهر الواقع على المرأة، وكان ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) أول من تنبه إلى حقيقة أن عبودية المرأة وأوضاعها المزرية هما من أسباب تخلف المجتمع الإسلامى، وتدنى أحوال المدن الإسلامية، وذلك لحرمانها من قدرات وإمكانيات

---

(٩١) "الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده" تحقيق ودراسة د. محمد عمارة. القاهرة للثقافة العربية ص٨٣.

النساء، ولأن الرجال المسلمين حولوا نساءهم إلى قوى عاجزة مشلولة، فصرن عبئا على كد الرجال وعلى كسبهم مع أن عددهم يكون أحيانا ضعف عدد الرجال. وكان ذلك المفكر الأندلسى الذى درس الطب والفلسفة وعلم الكلام وتولى قضاء إشبيلية، وأصبح الطبيب الخاص للسلطان، أول من رأى أن للرجل والمرأة طبيعة واحدة، ولكنهما يختلفان نتيجة لميراث طويل من قهر المرأة. وظل الحال على ما هو عليه ثلاثة عشر قرنا ميلاديا، إلى أن انتفضت بعض المثقفات فى بداية القرن العشرين وطالبن بحرية المرأة، وكانت أبرزهن وأكثرهن احتراما وتشجيعا من الرجال الشاعرة الخطيبة والصحفية ملك حفنى ناصف. وقد اعتمدت ملك فى حيثياتها على ما منحه الإسلام من عزة واستقلال للمرأة المسلمة ومساواة تامة بينها وبين الرجل فى الفرائض الدينية والحقوق، وفى مسألة الحجاب لم تذكر أبدا أنه فريضة (مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج)، ولم تزعم أن هناك زيا إسلاميا مفروضا على النساء فى كل مكان وزمان. ولكنها لم تملك الشجاعة على أن تخطو الخطوة التالية لقاسم أمين، فتطالب بإلغاء الحجاب تماما وتحرير جسد المرأة وروحها من رمز الاستعباد والقهر الذى كان مفروضا على المرأة قبـــل أن يحررها الإسلام.

وكما فعلت ملك فى كتاباتها وخطبها، عانت من ذلك الموقف المتناقض فى حياتها. فبينما هى تطالب بحقوق الزوجات وتهاجم استبداد الأزواج، إذا بها تتحمل المعاملة السيئة من زوجها وتتقبل استمرار الحياة معه على الرغم من خديعته لها وإخفائه خبر زواجه

من أخرى، وسفره دون علمها وغيابه عنها لمدة عام كامل ثم اكتشافها كذبه فيما ادعاه [٩٢]. كل هذا وهى صابرة تتحمل فى صمت ولا تجرؤ على المطالبة بالطلاق حتى لا تصدم والديها فى مشاعرهما، و"خشية أن يقال إن أول امرأة تعلمت لم تستطع أن تكون زوجة طيبة لأن التعليم أبعدها عن البيت" [٩٣]. فهل كان ذلك الصراع المتأجج بداخلها سببا غير مباشر لنهايتها المأساوية... ؟!.

لم يمهل القدر ملك حفنى ناصف لتشارك فى ثورة ١٩١٩م التى عاشت إرهاصاتها وشاركت مع هدى شعراوى فى بعض الاجتماعات السابقة عليها. لم تعش لتتلقى الصدمة التى تلقتها سيدات نساء الوفد اللائى شاركن فى العمل الوطنى بكل ما يملكن من جهد ووقت ومال، من محاضرات ومقالات وخطب واجتماعات ومؤتمرات ومسيرات وخرجن فى أول مظاهرة نسائية فى العالم الشرقى مطالبات بالاستقلال لبلادهن والحرية لرجالها، فلما تمكن أولئك الرجال من حكم مصر ضنوا على شقيقاتهم المصريات بالحرية، ولم يستطع الزعيم سعد زغلول أن يمنحهن الحقوق السياسية فى دستور ١٩٢٣م، بزعم أن فتوى من الأزهر الشريف أفتت بعدم جواز منح المرأة المسلمة حقوقها السياسية (الانتخاب والترشيح) لأنها يجب ألا تخرج من بيتها، والعمل فى السياسة يدعوها للخروج !!

(٩٢) "آثار باحثة البادية" مجد الدين حفنى ناصف صفحة٢٧ مقدمة بقلم د.سهير القلماوى

(٩٣) المرجع السابق صفحة ٦١.

رؤية عصرية

قصة حياة الأديبة والشاعرة ملك حفنى ناصف تكاد تكون معادلا موضوعيا لما مرت به مصر من أحداث فى العقدين الأولين من القرن العشرين. كانت البداية فى نهاية القرن الثامن عشر عندما استيقظت مصر على مدافع نابليون بونابرت وخاض أبناؤها معارك ضارية ضد غزو "الفرنسيس" الذين جاءوا ليستولوا على أرض بلادهم ويضموها إلى فرنسا. وكانت الثورات التى انتهت بفشل الحملة الفرنسية على مصر هى البداية المبكرة لتيقظ الروح الوطنية، التى أنقذتهم من مصير المغرب العربى الذى حقق الفرنسيون فيه انتصارهم، فهيمنوا على الأراضى والعقول وألغوا اللغة العربية وحاولوا أن يمحوا الذاكرة العربية. ثم حدثت المواجهة الثانية مع الغرب، أصحاب القبعة، فى نهاية القرن التاسع عشر بزعامة الشاب الوطنى مصطفى كامل الذى أثار فى المصريين الروح القومية وندد بالاحتلال البريطانى لمصر وأشعل حربا شعواء ضد محاولة الإنجليز تقويض العلاقة السياسية والمعنوية بين مصر وتركيا (رمز العزة الشرقية والخلافة الإسلامية حتى ذلك الوقت). وكانت ثورة ١٩١٩م بزعامة سعد زغلول أول من تنبه إلى ضرورة فك أسر مصر من أى سيطرة، شرقية أو غربية، واعتماد المصريين على أنفسهم يؤهلهم لذلك ميراثهم الضخم من الحضارة والاستقلال. واستمرت المواجهة بعد ذلك ضد الإنجليز حتى تحولت بعد ثورة يوليو إلى صدام عسكرى فى حرب تواصلت معاركها حول قناة السويس منذ ١٩٥٦م حتى انتهت بالنصر فى ١٩٧٣م. وما كاد

المصريون يتأهبون لنفض الغبار عن عقولهم وابتداع أفكار ورؤى وبناء حياة تتبع من تراثهم وتواصل ما انقطع من حضارتهم وعقيدتهم حتى اكتشفوا أن القبعة التى خرجت من الباب عادت لتتسلل من النافذة؛ عن طريق التقنيات الحديثة للعلم (التكنولوجيا) التى توجت بالأقمار الصناعية (الدش والإنترنت).

ولقد لعب الغرب فى المرحلة الاستعمارية دورا كبيرا فى إيقاظ روح المقاومة لدى الشعوب العربية التى لم تستطع القرون المنصرمة أن تنسيها ضراوة الحروب الصليبية، وماجره التعصب الدينى المسيحى (الكاثوليكى) من أهوال على مسلمى الأندلس (أسبانيا) فى القرن الخامس عشر. ثم جاء كرومر ودنلوب وأشباههما لينعشوا الذاكرة المصرية ويوقظوا آلام الماضى ويحيوا ذكرياته المريرة ويزرعوا فى الأعماق توجسات وهواجس وشكوك ضد كل من يرتدى القبعة أو يتشيع لأصحابها. وهكذا عاد الصراع الداخلى، ومازال، يضطرم فى أعماق الحركة الثقافية فى مصر ويكاد أن يشطرها إلى شطرين: أحدهما يتمسك بكل ما لديه من قوة بالانتماء للشرق وبما يظن أنها الهوية الإسلامية، وبموروثات الحضارة الإسلامية التى تهيمن على الشخصية المصرية وتمتلك فؤادها وتحتل مكانة عزيزة فى قلبها، والآخر يرنو بإعجاب شديد إلى الغرب ويتطلع ليوم تلحق فيه مصر بركب الشمال كى تستمتع بما حققه من ديمقراطية وحرية فكر وتعبير وتعددية عقائدية متمثلة فى أحزاب تملك حرية الحركة والفرص الكاملة لتبادل السلطة. بل سوف نقرأ لبعضهم مقالات تدعو المصريين إلى خلع الطربوش وارتداء القبعة،

ليس لأنها أنسب لطقس مصر ومزاج شعبها، بل لكى تبعث في المصريين العقلية الأوروبية التى لم يخف الكاتب غرامه بحضارتها.(٩٤).

وللأسف نرى أغلب شباب اليوم يقتتلون على القشور الظاهرية فقط، وقد تلخص الإسلام لدى أنصار الفريق الأول فى الحجاب العثمانلى والجلباب الباكستانى وحقوق الرجل فى الطلاق وتعدد الزوجات.. الخ أما الفريق الثانى فينجرف إلى تقليد الغرب فى كل بدعه وتقاليعه التى يمطرها عليهم "الدش" والإنترنت ..الخ. وبين هؤلاء وهؤلاء تحتار المرأة المصرية، وتقف، مثلما وقفت منذ قرن كامل ملك حفنى ناصف الصحفية والشاعرة والخطيبة المصرية الأولى، فى الوسط تماما غير قادرة على التخلى عن جذورها أو تجاهل الفروق الهائلة بين وضعى المرأة الشرقية والمرأة الغربية، والبون الشاسع بينهما إن المنبهرين بالقبعة نسوا أن كل مجتمع له ظروفه وتقاليده التى توائم التطور التاريخى والفكرى، وكذلك المتشبثون بالطربوش تجاهلوا فروق الزمن والتطورات التى حدثت فى حياة الإنسان وغيرته عبر خمسة عشر قرناً من الزمان. وتسبب صراعهما فى بلبلة المرأة المسلمة .. امرأة القرن الحادى والعشرين، عصر التقدم العلمى المذهل، التى عاصرت الوقوف على سطح القمر واختراق الذرة بأشعة الليزر، والحوار المباشر بين البشر فى كل مكان على سطح الأرض عبر جهاز أصغر من

---

(٩٤) مقال لسلامة موسى فى "اليوم والغد" فلسفة اللباس المطبعة العصرية ١٩٢٧م.

كف اليد (الهاتف المحمول) ..الخ مازالت عاجزة عن أن تحسم أمرها، ومازالت أصداء بعيدة تطن فى أذنيها وتغريها بأن تعود إلى الوراء .. إلى عصر الحريم، والاحتماء خلف حجب كثيفة هروبا من مواجهة الواقع.

كانت ملك تتمتع برؤية شاملة تتسع للماضى والحاضر، للشرق وللغرب، وكانت تحلم بيوم تجتمع فيه للمرأة المصرية شمائل الماضى وفرص الحاضر وبشائر المستقبل. وكانت على اتصال بالعالم الغربى، تسافر إلى الخارج بصحبة أبيها أو شقيقها مجد الدين، وتستقبل فى بيتها بالفيوم وفى حلوان الكاتبات الأمريكيات والإنجليزيات والفرنسيات اللاتى ربطتها ببعضهن صداقات وطيدة فكن يراسلنها ويكتبن عنها فى بلادهن [٩٥]. ومع ذلك ظلت على ولائها للخلافة العثمانية وإعجابها بالمرأة العثمانية، لم تواتها الشجاعة الكافية لرفض الحجاب بكافة أشكاله كما فعل قاسم أمين والعديد من معاصريهما مثل الدكتور محمد حسين هيكل فى روايته "زينب" التى ظهرت طبعتها الأولى عام ١٩١٤م [٩٦]. فهل قرأت ملك تلك الرواية التى نشرت قبيل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م !

إن رواية "زينب" التى أعطاها كاتبها عنوانا ثانويا: "مناظر وأخلاق ريفية"، وأهداها إلى مصر وإلى أخته، ما هى إلا صورة صادقة لحيرة الشباب المصرى فى العقد الأول من القرن العشرين،

---

(٩٥) "باحثة البادية". مجد الدين حفنى ناصف.

(٩٦) د. محمد حسين هيكل :زينب. مناظر وأخلاق ريفية. الطبعة الثالثة. كتاب الهلال يناير ١٩٥٣ صفحة ١٦٥ .

وعذابه وحرمانه وحاجته الشديدة إلى امرأة تشاركه أحلامه وتحقق آماله. ومسألة الحجاب تحتل جزءا كبيرا من الخطابات المتبادلة بين حامد، بطل القصة وعزيزة، بنت عمه. إن كلاهما يعانى أشد المعاناة من ذلك الفصل التعسفى الذى فرضته التقاليد العثمانية بين النساء والرجال. فبسبب فرض الحجاب، بمعناه المادى والمعنوى أى الاحتجاب، على بنت عمه، يعانى البطل بشدة ثم لا يجد مفرا من عقد صداقة بريئة مع إحدى الريفيات، وهى زينب، بطلة الرواية. وهو يصف تلك العلاقة البديلة بقوله: "إذا كنا حرمنا التمتع بالحب وملذاته – ذلك الأمل الواسع الكبير – فإن لنا فى غيره عزاء. لنا فى العاملات السافرات يحببننا من كل قلوبهن لكلمة نحسن بها عليهن أو قبلة نضعها على ورد خدودهن لنعم العوض عن القصيات المتحجبات حتى عن حبنا المتمنعات ان يقلن لواهب قلبه "إنى أحبك". هكذا كتب محمد حسين هيكل فى الرواية التى بدأ كتابتها فى باريس فى إبريل ١٩١٠، وفرغ منها فى مارس ١٩١١م، أثناء بعثته للحصول على الدكتوراه فى القانون.

"حقا. أليس فى بنت الطبيعة العذبة المفتولة الجسم القوية تنفذ بساذج نظراتها المستعطفة إلى سواد القلب ما ينسينا هاتيك المصونات فى خدورهن. جهل بجهل، والأولى (الفلاحة) عركت الأيام وعركتها، ونضارة بدل ذلك الشحوب الذى يصيب ربات الخدور وكرم وحلاوة نفس، وإلى جانب ذلك كله العفة الموروثة عن الأجيال السالفة إلى ما قبل التاريخ."(٩٧)

(٩٧) المرجع السابق صفحة ١٦٥ .

وتكتب عزيزة إلى ابن عمها حامد تصف له عذابها داخل سجن الاحتجاب الذى فرضته التقاليد العثمانية عليها ولم تعرفه نساء عصر الرسالة" هل تظن يا أخى حامد أنا معشر البنات سعيدات فى ذلك السجن العتيق؟ إنكم تحسبوننا دائما راضيات ولكن الله يعلم علقم ذلك الوجود المر الذى نحتمله مرغمين، ثم نعود عليه قليلا قليلا، كما يعود المريض مرضه وفراشه".

إن عزيزة تحسد خادمتها الفقيرة على ما تملكه من حرية" وقد دخلت خادمتى متهللة فرحة راجعة من الهواء العظيم فى المزارع الواسعة وتقول فى ابتسامتها (كم كان حلوا غروب الشمس هاته الليلة). مالى أنا يا بنية وغروب الشمس وشروقها! قد وجد أهلى فى نقوش الحيطان ما يكفينى ..... آه يا حامد لو تعرف الوحدة التى نشعر بها ونحن بين أهلنا وحيطان دارنا وقلوبنا تأجج بالنار فى صدورنا ونضطر لكتمها وإخمادها حتى تموت وقد تآكل من وجودنا أعزه وأحلاه".

هكذا تخيل الدكتور محمد حسين هيكل مشاعر فتاة مصرية محجوبة، ومع ذلك لم يجرؤ على توقيع الكتاب باسمه بل صدر الكتاب عام ١٩١٤م على أنه بقلم "مصرى فلاح"، وقد برر ذلك فيما بعد بأنه كان يحس ــ إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ــ كما يحس غيره من المصريين، ومن الفلاحين بصفة خاصة، بأن أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر "ينظرون إلينا جماعة المصريين والفلاحين بغير ما يجب من الاحترام".

ولربما لعبت ملك حفنى دورا أكثر إيجابية وشجاعة لو كان العمر امتد بها وسافرت إلى فرنسا مع السيدة هدى شعراوى، فى تلك الرحلة التى رفعت بعدها الحجاب. وقد اشتهرت هدى شعراوى بأنها كانت أول امرأة مصرية تواتيها الشجاعة لتتخلص علنا من الحجاب وقد قصت حكايتها مع الحجاب إلى إحسان عبد القدوس، الذى نشرها فى مقال بجريدة " الزمان " فى ٨ يناير ١٩٤٨م :

"كنت قد تعودت أن أرفع الحجاب كلما سافرت إلى أوروبا، وأذكر أننا دعينا مرة إلى حضور مؤتمر نسائى عام ١٩٢٠م. وكانت الدعوة موجهة إلينا من الاتحاد النسائى البريطانى. فاكتشفت أننا دعينا للتشهير بنا وإظهار بشاعتنا وهمجيتنا أمام نساء العالم إلا أننا عندما بدونا سافرات بين أعضاء المؤتمر صاحت كل المندوبات: إنكن لستن مصريات ..!

قلنا: لم ؟

قلن: إن لكنَّ وجوها مثل وجوهنا !

ثم التفتت إحداهن إلى السيدة الجليلة نبوية موسى وقالت:

- ربما كانت هذه مصرية ..؟

واستطردت عصمتها فى حديثها فقالت :

- أما كيف رفعت الحجاب فى مصر فكان ذلك عام ١٩٢٠م، وكنت عائدة من فرنسا بصحبة ابنتى وزوجها على نفس الباخرة التى عاد عليها سعد زغلول، وحينما وصلت إلى الميناء استأذنت زوج ابنتى فى أن أنزل أنا وابنتى إلى الجموع الزاخرة المحتشدة لاستقبال

سعد، سافرات الوجه، فأذن لنا ورفعنا النقاب. قرأنا الفاتحة ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتى الوجه - وتلفتنا لنرى تأثير الوجه الذى يبدو سافرا لأول مرة بين الجموع .. فلم نجد له تأثيرا قط، لأن كل الناس كانوا متوجهين نحو سعد متشوقين إلى طلعته.

ومن يومها رفعت الحجاب وانضمت إلي كثيرات من فضليات السيدات، ولكن الجرائد بدأت تهزأ بنا إلى حد تجاوز اللياقة. وكنا كلما خرجنا سافرات إلى الطريق أشار إلينا الناس وتهامسوا حولنا وضحك بعضهم هازئا وشتم البعض الآخر .. وكنت أتحمل كل ذلك صابرة متحدية ولكن كثيرا من النساء لم يستطعن أن يتحملن ما تحملته فعدن يختفين تحت النقاب" (٩٨).

تخلص الأتراك، منذ العقد الثانى للقرن العشرين، من حكم العثمانيين على يد مصطفى كمال الذى لقبوه بأبى الترك " أتا تورك"، وتنصلوا من كل ما فرضه السلاطين العثمانيون عليهم وعلى الشعوب التى استعبدوها وحبسوها داخل سجن مظلم دام عدة مئات من السنوات، ومن بينها الطربوش العثمانى الذى ألبسوه لرعاياهم قسرا، أما المصريون فما زال بينهم من يعتبرون العصر العثمانى، عصرا ذهبيا، ويحنون لأيام السلاطين والملوك والباشوات والبكوات، ويحلمون بعودة الحريم، والحجاب، ويكنون احتراما بالغا للطربوش على اعتبار أنه رمز للإسلام !!

---

(٩٨) "هدى شعراوى. الزمن والريادة" د. جورجيت عطية إبراهيم. دار عطية للنشر.

تراثنا

آثار باحثة البادية

ملك حفني ناصف

١٨٨٦ - ١٩١٨

جمع وتبويب

مجد الدين حفني ناصف

تقديم

الدكتورة سهير القلماوي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الحجاب أم السفور

رد على خطبة ألقاها حضرة عبد الحميد أفندى حمدى بشأن الحجاب

تتبعت خطبة الأديب عبد الحميد أفندى حمدى عدداً عدداً فى الجريدة ، فشكرت له اهتمامه بترقية المرأة وأثنيت على اجتهاده وشجاعته الأدبية . وقد وجدت خطبته صحيحة المقدمات متينة المبنى ، إلا أن لى رأياً أبديه فيها . وقد يمر بخلد أحد القارئين أننا ننتقد الخطيب حباً فى النقد أو تمسكا بحب القديم وجموداً منا عليه ، لكن الحقيقة لا هذا ولا ذاك ، وكل امرئ حر فى فكره حر فى قبول فكرة غيره أو رفضها حسبما يشاء بشرط أن لا يضر ذلك الرفض أو القبول بالغير .

أما ما يرجوه الكاتب من تعليم المرأة تعليما صحيحاً فإنى أوافقه فيه تمام الموافقة ، ويجب أن نحث غيرنا عليه بما نستطيع ، وقد أصبح هذا القول بديهياً لا يحتاج لأن أطيل فيه الكلام لا سيما وقد وفاه الخطيب حقه فى خطبته ، فجزاه الله عنا خير الجزاء . بقيت مسألة الحجاب وهى تلك المسألة العويصة التى قامت من أجلها منذ سنين حرب قلمية عنيفة وضعت أوزارها على غير جدوى ، فلم يفز فيها (المحافظون) على القديم ولا (الأحرار) .

ولست أنتقد اقتراح السفور من الوجهة الدينية لأنى أعلم أن الدين لم يحرجنا فى هذه المسألة كما بين ذلك حضرة الخطيب ، ولا من الوجهة الاقتصادية فإن فى اقتراحه أن نلبس لباساً يضارع ما ترتديه الراهبات المسيحيات توفيراً كبير لما كنا عانانا نصرفه فى تأنيق اللباس الخارجى كما يفعل نساء الفرنجة مثلا .. كذلك لست انتقده من الوجهة الأدبية فإن ذلك اللباس وبساطته لأليق بتآزرنا،

به من تلك (الحبرة) المهلة كما سماها الخطيب ولأدل على حشمة صاحبته وإن كانت سافرة مما تلبسه الآن مبرقعة ، وشتان بين هذا البرقع الوهمى والبرقع الصحيح .

إذن لم يبق للموضوع إلا وجهة واحدة وهى الوجهة الاجتماعية ، وإذا انتقدته من تلك الجهة فإنى لا أقلد فيه عادة ولا أتبع رأى غيرى بل أصرح بما أشاهده عياناً وبما أعرفه من أحوال شتى جربت فيها النساء المختلفات ، والتجارب يجب أن تقدم أوامرها على أوامر البحث والتخيل ، إذ هى تعلم بعد أن تترك أثراً فى النفس لا يزول ، أما التخيل فقد لا يطابق الحقيقة ، وإن طابقها فقد لا يعلق كثيراً بالذهن لأنه لا أثر له إلا فى المخيلة ، بعكس التجارب فأثرها يبقى فى الحواس والذاكرة . فإذا نصحت طفلاً أن لا يلمس النار لئلا تحرقه فإن ولعه بالحركة والاستكشاف ما يزال يغريه بلمسها حتى يفعل ولا تنفع نصيحتك له ، أما إذا لمسها مرة وأحرقت أصابعه فإنه يبتعد عنها كلما رآها ولو أمر بلمسها . وعليه فلسنا متبعات رأى من يأمرنا بالحجاب ولا رأى من يقول بخلعه لمجرد أن هذا ذهب وكتب ، وذاك نقب وخطب ، إلا إذا تبينا الرشد من الغىّ ، وعلمنا من التجارب أولى الخطتين بالاتباع . وأمامنا الطبقات المختلفة والأجناس العديدة يجب أن نبحث كلاً منها على حدته ونجمع منها كلها حكماً واحداً نحكم به على أنفسنا إما بالحجاب أو بالسفور أو غير ذلك مما سنوضحه بعد . وطبقات النساء (كالرجال) فى كل أمة ثلاث : العامة والخاصة والوسطى ، وأصحها آداباً فيها كلها على الإطلاق الوسطى ، ولا بد لذلك من سبب . نعم والسبب راجع إلى التربية . فالخاصة أو طبقة الغنيات يرخين لأنفسهن العنان فى الملاهى والملاذ ، والجدة مفسدة فى الغالب خصوصاً إذا اقترنت بالفراغ ، وهؤلاء عندهن من الخدم من يقوم بشئون بيوتهن وأمور أولادهن وقد تعودن عيش الكسل والراحة .

والطبقة الدنيا تجد من حاجتها باعثاً لها على طرق الطرق المختلفة لتجلب

ما تسد به الرمق و يختلط نساؤها برجالها فى المصانع والمزارع وغيرها ، وهذه الطبقة شر على الآداب فى كل أمة حتى عند الإفرنج ، وهم ليسوا مقيدين بحجاب ولا عادة يقال معها إنهم لما خالفوها وقعوا فى شر منها كما يجوز تطبيق ذلك علينا .

والطبقة الوسطى وهذه دائماً أحسن الطبقات آداباً وأكثرهن حشمة ووقاراً ، ولرب معترض يقول : مالنا وللطبقات وآدابها ومامناسبة ذلك للحجاب، وقد أدخلت فى حكمك هذا كل الأمم حتى التى لا حجاب عندها !! فأقول متى عرفنا ذلك التقسيم وقارنا بين درجة اختلاط النساء فى كل طبقة برجالها علمنا تماماً أن الأكثر اختلاطا هن الأشد فساداً .

وإنك إذا استقصيت حوادث النساء فى مصر وجدت أكثرها فى الطبقة الدنيا منها بما فيها الفلاحات اللواتى وصفهن الخطيب الفاضل بالنزاهة والحشمة . وقد رأيت القرويات كثيراً وحادثتهن واستخلصت من أحوالهن أن ظاهرهن الجد دائماً وذلك لعدم رؤيتهن من يقتدين به فى أسباب الخلاعة ، وقد سمعت أن كثيرات منهن يهمن برجال ممن يختلطن بهم ، فلو كانت القرى كالمدن فيها متنزهات بعيدة عن أعين الرقباء أو كانت الفتاة يستغنى أهلُها عن شغلها وتعبها قليلا لأفنت ولساوت طبقة المدنيات السفلى (وأعنى بهن البائمات بالشوارع ومثيلاتهن) فى الفساد والوقاحة . فهؤلاء فسادهن من سوء التربية لامحالة ، ولكن الاختلاط بالرجال زادهن فجوراً .

وإذا رجعت لغنيات مصر وهن (الذوات) ويقلدهن بعض نساء الوسط ، فهؤلاء يتفنن فى الملابس ويكثرن من الخروج تحككا لأن يسمح لهن برفع الحجاب ولكن على طريقة بعيدة من الأدب ، فإنهن لو كن يطلبن ذلك رغبة فى الحرية الشريفة مثلا ، أو أنهن يشعرن أن الحجاب يمنعهن عن الاستفادة من

العلماء ، أو غير ذلك من الأسباب الجائزة ، لوجب إعطاؤهن مايطلبن بغير تكلف البحث والعناء . أما ونساء مصر على هذا الجهل المطبق ورجالها إلا القليل على هذا الفساد المستحكم فلا يجوز مطلقا إباحة الاختلاط . على أن الإفرنج وهم المتمدنون نساء ورجالاً يشكون من فساد مجتمعهم وقلة وفاء أزواجهم ، وإذن نعلم أن الطبيعة البهيمية فى الإنسان تجتاز عقبات التربية وتخترق سياجها إلا الشاذة والشاذة لا حكم لها .

بقيت مسألة واحدة أجملها إجمالاً وهى المثل القائل (إن الطفرة محال) فنساء مصر متعودات الحجاب فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت مايجلبنه على أنفسهن من الخزى وما يقعن فيه بحكم الطبيعة ، والتغيير الفجائى من أسباب البلاء وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين . وإذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلا قليلا إلى أن يتم الهدم فتبنى على أنقاضه أحسن منه ؟! فإذا فرضنا محاولة هدم البناء دفعة واحدة (مستعملين الطرق والآلات التى نستعملها الآن) تصورنا كيف يستحيل ذلك مع بقاء المارة والبنائين سالمين فضلا عن الأنقاض كزجاج الشبابيك والخشب وما أشبه ذلك ، فهذه الباقيات الصالحات فى المرأة هى العفة والحياء ، والمنزل البالى حجابها الآن ، والسابلة الوطن والدين والفضائل .

فناشدتك الله أيها الأديب كيف تأمرنا الآن بالسفور ونحن إذا مشت إحدانا فى طريق لاتزال تنصبّ عليها العبارات الوقحة ويرشقها هذا بنظرة فاجرة وذاك ينضح عليها من ماء سفالته حتى يتصبب عرقها حياء ، فمجموع رجال مثل مجموعنا الحالى لايصح بحال أن يوكل إليه أمر امرأة وتترك عرضة لسبابه وقلة حيائه ، ومجموع نساء كنسائنا الآن لايفهمن إلا مايفهمه الرضيع يصبح سفورهن واختلاطهن بالرجل بدعة لا انتهاء لشرها . ثم أفدنى أيها القارىء بالله ماذا تقول

امرأة جاهلة أو متعلمة تعلماً ناقصا لشاب تجتمع به ؟ أتباحثه فى العلوم وهى لاتدرك أهميتها أو تعلم منها قشوراً لايعتد بها أم تناضله فى السياسة وهى لاتعلم أين انكلترا من جزائر الأرخبيل ولاتمكنها أن تفسر لفظة دستور أو استعمار مثلا ، أم ماذا تفعل ؟ اللهم إنها لاتجد شيئاً تقوله إلا ماقد تستحسنه من هيئته وحسن بزته ، وهناك الضلال الكبير .

والمتعلمات فى مصر الآن يزددن عدداً وفيهن من يصح أن تلقى إليهن قيادة أخواتهن . وسيجيء زمن ينشأ فيه جيل من النساء غير جيل (السحر والزار والرق) وهؤلاء يثمر فيهن البذر ، فإذا أتعب الباحث نفسه فى نصح النساء الآن قد يجد من تسمع ولكنه لا يجد من تسمع وتعقل ، ولا يبعد أن يكون من بين سامعات خطبة عبد الحميد أفندى من قد تقلدت القبعة وتزيت بزى الإفرنج وسارت فى الشوارع تفاخر بأنها من ذوات الفكر الحر ومن صاحبات التمدين الحديث .

والخلاصة إن خروجنا بغير حجاب لا يضر فى نفسه إذا كانت أخلاقنا وأخلاق رجالنا على غاية الكمال ، وأظن هذا مستحيلا أو بعيد الحصول ، فإذا حصل التمازج وكان على هذا الشرط فلا اعتراض لى عليه .

وهناك قوم يشددون فى تقدير الحجاب فيحبسون المرأة مؤبداً ويمنعونها من زيارة جاراتها ، ويضيقون عليها بحيث لا تستنشق الاهواء بيتها الضيق الدائرة فتفسد صحتها وتكسل عن الحركة ، ومنهم من يفتخر بأن امرأته لم تبرح بيتها طول عمرها ، وهؤلاء أيضاً متطرفون ، لأن المرأة لها رجلان يجب أن تتحركا وعينان يجب أن تبصرا ، فإذا صاحبها أبوها أو أخوها أو زوجها مثلا فى نزهة وأراها محاسن الطبيعة ودقائق الموجودات وجدد قواها بالحركة واستنشاق الهواء

الجيد وهى بمئزرها محتشمة فلا يخرج ذلك عن معنى الحجاب (وهنا استسمح الخطيب الأديب فى استعمال لفظة حجاب على غير مامر لأننا لو رددنا كل المجازات إلى الحقيقة لصارت اللغة أضيق من سم الخياط) .

على أن هذه المسأله واختلاف الآراء فيها ، قاضيها العادل الزمن والمستقبل ، فكم من مسألة أبى قوم إلا اتباعها وآخرون نبذوها نبذ النواة فاختلفوا وجاء الزمن مؤيداً فيها لفريق دون فريق ، فصارت له القوة ورجع له الحول فاتحدوا فيها . ورأيى أن الوقت لم يؤن لرفع الحجاب ؛ فعلموا المرأة تعليما حقا وربوها تربية صحيحة وهذبوا النشء وأصلحوا أخلاقكم بحيث يصير مجموع الأمة مهذبا ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة . وإن هذا الموضوع وأمثاله لما يدعونا إلى التفكر والتبصر ، فإننا بدأنا أن نجارى الإفرنج فى كل شىء والمجاراة ليست ضارة فى حد ذاتها ماديا ولكن ضررها اجتماعى محض . فضلا عن كل ما بينت فى مقالى هذا . فإننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين فى أمور معاشنا ولباسنا وزى بلادنا مما قد لا يوافق روح الشرق فإننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا بمرور الزمن ، وهذا هو ناموس الكون إذ يفنى الضعيف فى القوى . وإنه لمن العار أن نترك هذا الأمر يجرى مجراه . فأدعو الكتاب والباحثين للتفكير فيه وفى إيجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده ، ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدين الحديث .

ردی ومذهبی فی السفور والحجاب

اطلعت بعد خطبتی الأخیرة علی ما کتب الکاتبون والکاتبات بشأن المرأة فأسدیهم الشکر جمیعاً ، سواء فیهم من مدح ومن ذم بحق أو بغیر حق ؛ لأنهم علی اختلاف نزعاتهم وتباین لهجاتهم قد أظهروا أنهم یهتمون بموضوع المرأة ویریدون لها الرقی . ولقد صبرت لأستوعب کل مایقال ، وکنت أحسب أن سیتصدی للدفاع عن رأیی أحد الناس ممن فهموا خطبتی علی النحو الذی تؤدیه عبارتها (والذی أقصده منها) فلم أجد منصفاً ، وأرانی مضطرة للدفاع عن رأیی وإن کنت أبغض الناس لتزکیة النفس ، وإنما کان هذا بیاناً أو رداً لا تزکیة .

أکثر من کتب عنی إنما کان یظن أنی من رأیه وشیعته ، فأصرح بأنی مستقلة تماماً عن رأیهم ، فلا أنا قاسمیة متطرفة کما یریدنی حضرة الکاتب (هیکل) ویحرضنی فی رده (بالجریدة) أن أجهر برفع الحجاب ، فإنی لا أوافق علی ذلك الآن ، وربما أیده المستقبل فی رأیه ، ولکنی حکمت علی حسب الأحوال الحاضرة ؛ ولا أنا ممن یرمین إلی تقلید الفرنجة کما یخاف حضرة (الغزالی أباظه) إنه لم یذکر صریح العبارة ولکنه لایفتأ یذکر لی مساوئ نساء الغرب الناتجة عن اختلاطهن بالرجال ، ولو ألقی نظرة ثانیة علی خطبتی لرأی أنی ذممت الاختلاط والتقلید معاً ، ولم أشذ عن رأیه إلا فی مسألة الخطبة فقط ، ولکنی اشترطت ألا یکون السفور اختلاطاً ونصصت علی وجود محرم مع الفتاة ، وأظنه لایجهل البون البعید بین قولی « سفور مع وجود محرم » وبین قوله (اختلاط بالرجال) أما حضرة الفاضلة « سیدة صبری » فلا إخالها تدافع عن مجموع النساء المصریات ، لأن اللاتی تدخل

بيوتهن بحكم مهنتها كا تقول هن من طبقة الموسرات وبعضهن راقيات ، وإنى لم أقصد هؤلاء بكلامى ونصيحتى ، وإنما قصدت من يحتجن لسماعها ، فلا يغضب على السيدات الراقيات فإنهن قليلات جداً بالنسبة لمجموع النساء الأخر . والتعميم فى الكلام لا يقصد به البتة أن يشمل كل سيدة على حدتها وإنما القليل لا حكم له .

انتقدتنى السيدة (ج . ع) ولم أر أصدق منها نقداً لخطبتى وأبعد عن التحامل ، فإنها استصعبت الكتب التى ذكرتها فى الكلام عن (دور المراهقة) ، استصعبتها على الناشئات وهو انتقاد حق ، ولكنى لم أذكر تلك الكتب إلا أمثلة من تلك الكتب النافعة ، وقصدى أن تقرأها الفتيات متى وجدن استعداداً منهن لفهمها ، وقد أشرت فى ذلك الموضع من الخطبة على الآباء أن يختاروا ما يروق لهم من الكتب الأدبية لتقرأها بناتهم ولم أقل بالاقتصار على ما ذكرت منها ، وكلامى عليها فى دور المراهقة لا يؤخذ منه أن يمتنع عن قراءتها من كانت فى غير هذه السن ؛ كذلك ذكرت الأزياء فى تلك القطعة من الخطبة ، ولا يفهم منه أن الشابات وغيرهن يخرجن من حكمها ، وإنما كان هذا التقسيم ، لأن الاهتمام بالقراءة والزى يبتدئ عادة فى دور المراهقة ثم يستمر إلى ما بعد . أما مذهبها فى الروايات فصحيح متى كانت أدبية تاريخية ، ولكن هل ترى السيدة (ج . ع) أن كثيراً من الروايات لم توضع لحكمة ولا لتاريخ حادثة وإنما يقصد بها أصحابها الكسب فقط ، فنجدها حشوا ولغطاً ؟ وإذا كنت انتقد قراءة الفتيات الروايات فلست أعتقد فيها إلا ما كانت من الشكل الأخير ، ولو راجعت السيدة خطبتى لوجدت أنى أنتقد الروايات الغرامية فقط لا مجموع الروايات .

من منصفى من (بنت الحضارة) التى كتبت فى (اللواء) وهى شديدة التحامل على ولا أدرى لماذا . فإنها - سامحها الله - لم تجد لى عملا إلا قلب الحقائق وتشويه

ماقلت ومسخه فزعمت أني أريد الفتيات على أن يكن خادمات ، وأني نصحت الرجال بضرب النساء ، ولن أدافع عن نفسي معها وإنما أنصحها أن تسأل عمن تفقهن أن تفسرن لها الخطبة فقد فاتها معناها ، هذا إذ لم يكن لها من التغابي مأرب ·

إذا لم تخن الذاكرة فلم يبق من منتقدي إلا حضرة (الحقوقي الحر) ، وقد استغرب سكوتي عن مسألة النقاب وخصوصاً الجديد منه ، وأنا شخصياً ممن يعجب بذلك المئزر التركي ، ولكن يتساوى عندي الجديد والقديم متى روعيت فيهما شروط الحشمة والوقار ، والعبرة باللابسة لا بما تلبسه ، فماذا يضر المبرقعة بالبرقع الأبيض والحبرة القديمة إذا راعت الجد في مشيتها وفي تفصيل مئزرها . وهل إذا تزيت كل النساء بالنقاب الجديد الذي يدعو إليه حضرة (الحقوقي الحر) طهر المئزر الجديد قلوبهن من الرجس وأجسامهن من التثني والتبختر ؟ وهل يسكم المنديل الأسود أفواههن عن الضحك والحديث ؟ كلا — إنما العبرة بتربية المرأة وإرادتها ، فلتلبس ماشاءت من اللباس اللائق ولتحتشم في مشيتها فلن يمسها سوء وعندي أن المرأة السافرة الجادة في أخلاقها وسيرها خير من المؤتزرة بأثقل الحرير وأمنع النقاب وهي خليعة لعوب . ومن يتصفح الخطبة أو غيرها مما أقول وأكتب ، يجدني لا ألح على النساء بأكثر من اتباع الحشمة ، ولا على القائمين بأمرهن إلا بأن يحسنوا تربيتهن من الصغر حتى ينشأن على الفضيلة .

لكل فئة مذهب ، ويستحيل على صاحب الرأي الواحد أن يرضى شتى الآراء ، وأرى أن الخلاف لم يشتد كثيراً على خطبتي إلا في مسألة سفور الفتيات للخاطبين ، وإنما يعذرني على اقتراحي هذا من يفيض قلبه أسى كقلبي ويئن مثلي من شقاء مجتمعنا البيتي (السائلي) . أما والله لا يستسهل تلك الحالة إلا المستهين بالحياة غير

(١٨ — باحثة البادية)

المقدر للسعادة البيتية قدراً ، وإني لا أطلب ترائي الخاطبين إلا وأنا واجدة نسبة الهناء في البيوت المصرية ضئيلة جداً ، لا تكاد تذكر بجانب الشقاء المستحوذ عليها ؛ على أني اشترطت أن يكون الترائي مع وجود محرم منعاً للقيل والقال ، وقد أنكرت طريقة الفرنجة في الخطبة وتماديهم في الحرية بلا رقيب .

اللهم إني اتبعت طريقاً وسطاً بين الظلام الدامس الملقي إلى التهلكة وبين الضوء الشديد الخاطف للأبصار ، ولكن قومي لا يرضون . لم يكن رأيي القول الفصل في هذا الموضوع ، ولست بمسيطرة على الورى ، إنما أنا رأيت الداء فوضعت الدواء ، فما على حضرات الناقدين والمخطئين لرأيي إلا أن يصفوا ذلك الدواء كما يتراءى لهم أنه المفيد الناجع ، فكلنا طالب السعادة للأمة بإسعاد بيوتها ، وكل طريق تؤدي لتلك السعادة المنشودة هي منتهى آمالي كائناً من كان راسمها . فأدعو حضرات الكتاب والناقدين رجالاً ونساء أن يفكروا فيما يصلح الحياة الزوجية ويسعدها لأن الرضا بحالتنا الحاضرة لا يخرجنا من شقائها المستحكم . وقد أبديت ما عنّ لي ، وعليهم أن يحلوا هذه المسألة العويصة لا أن يقتصروا على النقد فقط فإنه لا ينقع صدىً بل يزيد الناس حيرة وارتباكا ، وإني أول المتبعات لما يظهر بعد البحث أنه الصواب .

هذا رد على ما عثرت عليه انتقاداً لخطبتي ، فأرجو المعذرة عن سكوتي على ما لم أعثر عليه . والسلام .

المرأة والحجاب

سكتت عاصفة الحجاب فترة من الزمن ولـكنها عادت فثارت ، ولا أراها تهدأ إلا وقد جادها غيث من الرأى ترضاه هذه الأحلام التى ظلت مجدبة ، تدرى أنها ظمأى ولـكنها لا تدرى من أى ورد تستقى . ولا أى طريق تنتجع ! ولعمرى لقد أصبحنا بمنعرج جم الشعب فضللنا .

يعجبنى اهتمام الرجال بأمرنا وأمر أمتهم ، ولـكنى أعلم أننا لا نكاد نشعر بحاجاتهم ولا نتنبأ بما بين أضلعهم ، فـكيف بهم يبتون فى مسائلنا الخاصة بت من شعر بالداء وعرف الدواء ؟ !

أنا أحترم رأى مخالفىّ وإن كنت لا أعضده ، وعلى هذا المبدأ جئت أناقش حضرات الـكاتبين فى موضوع الحجاب . فأما فريقهم الذين فتنتهم المدنية الأوربية حتى خروا لها سجداً فتعليلهم فى هذه المسألة من الغرابة بمكان ، يقولون : إن الأمة المصرية متأخرة فى الفنون الجميلة ، متأخرة فى الآداب القومية ، متأخرة فى كل شىء ، نعم نحن نعترف معهم بذلك ونسعى ونجدّ فى إزالته . ولـكن أليس من المدهش حقاً أن نعزو ذلك التأخر للنقاب ؟ يستشهد أحدهم بشعر امرىء القيس على أن شيطان الشعر أصله المرأة فقط ؛ وبصور روفائيل وبوتشيلى ، على أن عبقرية التصوير لم يبلغها كالها إلا أن ينقش المصور «العذارى يرفرف عليهن ملائك الحب وهن تائهات فى أحلامهن» إلخ إلخ كما يقول ؟ ؟ إن الشعر العربى لم يكن لينهدم بنيانه لو لم تدخله قصائد امرىء القيس . وليس فيها من حسن الوصف ومعجز البلاغة ما يضارع وقاحته وجنايته على الآداب : على أنه وإن كان شعر عنترة وجميل وبعض من ذكر حضرة الـكاتب مؤثراً فليس معنى ذلك

أن كل شاعر غيرهم ممن لم يشبب ويتغزل كان شعره غير مؤثر . وهل أفاد اللغة العربية أو الحكمة شعر جماعة المحبين كما سمع أساليبها وأبدع تشبيهاتها شعر البحترى، وأبى تمام والمعرى وابن الرومى وأمثالهم ؟ وإذا كان متفرنجو هذا العصر والمصر لاتستفز شيطانه إلا المرأة فماذا عليهم أن يغربوا ويبدعوا فى وصفها وهى متنقبة، ويأتوا بالجديد فى وصف الحبرة والبراقع بما لم يسمع به فى شعر المتقدمين . أظنهم لايعنون بالحجاب إنهم لم يروا امرأة قط ، وإخالهم لايجهلون أن بعض الشعراء الذى شببوا بالمرأة رووا فى شعرهم أن تلك الحورية التى وصفوها وافتتنوا بها لم تقع أعينهم عليها، أو أن نقابها سقط فتناولته واتقتهم به، وعليه فقد سقط برهانهم فى أن الحجاب سبب تأخرنا فى الشعر . وليس بأمكن منه برهانهم على أن عبقرية التصوير لاتكون إلا بسبب المرأة ، فإن روفائيل وغيره من المصورين إذا كانوا برعوا فى تصوير المرأة فليس ذلك بدليل على أنهم أحبوها أو أنهم لايتقنون تصوير غيرها من الأشياء والمناظر ؛ وكذلك الموسيقى فإن لها استعداداً خاصاً فى نفس المرء ، وقد كان (فردى) أشهر موسيقى عصره ، ولاأدرى أ كان يرضى بهالغوانى فإنه كان أشمط ، ومن بلغ سنه لاأظن أن فى نفسه أثراً من نزق الشباب ! !

لم تكن براهين هذا الفريق المتفرنج ، وهى مدفوعة من نفسها ، بأغرب من قول أحدهم: « إنه يحمر حياء ويرتعدخجلا إذا تذكر بائسة مصرية ، وأنه تأخذه الرأفة ويحس فى قلبه بالعطف على بائسات أوربا لأنه لم يدفعهن للسقوط إلا الجوع» الخ . بالله أيمكن أن تبلغ عبادة المصرى للأوربيين إلى أكثر من هذا الحد ؟! وكيف للغريب أن يعلم سر اتو المرأتين البائستين الأوربية والمصرية ؟ ألأن الأولى وجدت من قلم دكتور هيجو خير مدافع عنها فى حين أن الثانية لم تجد مدافعاً ؟ لبئست النغتان ، ولبئس دفاع هيجو فقد جعل قومه يستهينون بالشرف و ينتحلون من

فساد أنفسهم أعذاراً على الجوع والظمأ .

من يقرأ مقالات هؤلاء المسبحين بحمد الأوربيين يرى أنهم يعذرونهم في كل شر أتوه حتى إنهم ليعذرون بأنسانهم على إراقة ماء الوجوه ، ولكنهم بالضد من ذلك ينظرون إلى كل شيء في وطنهم بعين المقت ، ويعزون تأخر مصر المادي والأدبي إلى النقاب . أترى لو كنا سافرات يوم ضرب الإسكندرية بالقنابل أكان يرتد على أعقابهم المحتلون ؟ وهل كان ينفع إشراق وجوهنا في تبرئة مظلومي دنشواي ؟

قد يكون حجابنا مؤخراً لنا بعض الشيء ، ولكن لا يصح نسبة كل تأخر له ، وإلا فإن الأمم الغربية كلها نساؤها سافرات فلماذا تجد إحداهن راقية جداً والأخرى منحطة إلى الدرك الأسفل ؟

إن تربية المرأة وحدها عليها مقدار فلاحها وهي من أهم الأسباب لإعلاء شأن أمتها ، ولا دخل لزيها بتة في ذلك الإعلاء . ألم تكن نساء الأتراك المتنقبات أمهات لأولئك الأحرار الذين هزوا قلب المعمور ، وقلبوا السلطنة العثمانية رأساً على عقب ؟ ! نعم كن متنقبات ولكن تربيتهن القومية غير تربيتنا .

رأيتهن تبعث الواحدة منهن وحيدها للجندية فرحة تشجعه ، ورأيت الشباب الذاهبين للحرب يضحكون ويغنون كأنما هم ذاهبون لعرس لا إلى حيث تتطاير الرءوس وتتطاحن الأبدان ؛ رأيت هذه الحال في بلد فيه الحجاب بالغ أشده ، أي أنه حجاب بالمعنى الصحيح .

فالمرأة لها أكبر يد في ترقية الأمم أو تأخرها ، ولكن المدار على تربيتها : تربية نفسها ، وتربية عقلها، وتربية جسمها ؛ والأولى أهم في نظري لأنها عماد الأخلاق. أما التنقب والسفور فلا يعدمان أثراً في تكوين أخلاق الأمة ولكنهما ليسا

كل شىء كما يتوهم جلمة المتفرنجين . وإنا — معشر النساء — فى أشد الحاجة للتربية الحقة والتعليم الصحيح .

نطالبكم بتهذيب أرواحنا وبتثقيف عقولنا ولسنا نطالبكم برفع نقابنا ، فمن المروءة أن تلبوا طلبنا وتتركوا ماعداه لنا ، فسيأتى الوقت الذى نشعر فيه بحاجتنا إلى السفور . إذا قمتم بواجبكم نحونا، وهو تعليمنا وتهذيبنا ، كنا بعد ذلك أبصر منكم بما ينفعنا وما يضرنا . قوّموا أخلاقكم وأصلحوا من أنفسكم فإن فسادكم أدعى الأسباب إلى تحجبنا ، ولا ترمونا بالجمود وأنتم المقصرون آباء وأزواجاً ! تالله إنكم لأحوج لنصحكم هذا منا ، وما نحن إلا تابعات لكم إن خيراً و إن شراً .

على أن السفور والحجاب ليسا من المسائل التى يمكن إبرامها فى يوم أو مقالة فلو فرضنا أننا اتبعنا رأى القائلين بالسفور وسفرنا ثم ظهر أننا لا نزال متأخرات أو ترتبت على ذلك الطامة الكبرى فماذا يكون العمل ؟ . أنرجع إلى ما كنا عليه بعد أن تكون قد فسدت الطبائع ونخر العطب عظام الأمة ، أم نستمر على غينا وضلالنا ؟ لقد أثرت فيكم طبائع الاستبداد حتى صرتم تستهينون بالتجارب . إنكم تجوبون كل آونة على شاكلة من الحكم ثم يعاد بكم إلى ضدها ، ولعمرى إن ضرر التغيير الفجائى لأشد وطأة من الاستمرار على الظلم إذا كان مألوفاً . إن مسألة الحجاب يستحيل أن تحل إلا من نفسها لأنها كالثمر لها إبّان النضج ، ولا أزال أكرر أنها لم تنضج للآن ولن تنضج إلا متى تربى جمهور النساء وصار على درجة من العلم مرضية . إن السياسى الحكيم يقرر فى خطته رسماً ولكنه لايمشى عليه بمجرد تفكيره له ، ولا يزال يتحين الفرص حتى تسنح له واحدة موافقة يبرز فيها خطته لا غبار عليها ، كذلك نحن نعلم أن هذا الحجاب لن يدوم ولكن ليس هذا أوان السفور لأننا غير مستعدات له ، ونفوسنا ركب

فيها أن تتنقب ونفوسكم لا تصلح الآن لاستقبال هذا السفور بالرضاء. خذونا بأيدينا للعلم والتربية، ولا تأمروا بالبر وتنسوا أنفسكم، فقربوا ذلك الوقت إن كنتم تريدونه، وتذكروا أنكم عاجزون، والله عز وجل هو وحده الذى يقول للشىء كن فيكون، وإلا فصيحوا فإننا من ندائكم فى صمم ثقيل، ولن نفعل إلا ما توحى به إلينا أنفسنا، ولما توح إلينا بالسفور.

إما السفور وإما الحجاب

وجهت الآنسة نبوية موسى إلى الباحثة مقالاً بهذا العنوان بدأته بقولها :

« رأيت اليوم مقالاً لك أيتها الفاضلة بعد مضى زمن طويل لم أحظ فيه بقراءة نسائياتك الشائقة ، فكنت كمريض نال البرء أو معدم صادف كنزاً ، فقرأته بسرور الظافر بما أراد ، وتلهف الطالب وقد عاين المطلوب ، قرأته فإذا هو كما أعهده فى مقالاتك العديدة رقيق العبارة شديد التأثير . ولست فى حاجة الآن إلى مدح مقالاتك بعد أن اشتهرت ، ولئن فعلت فما أنا إلا كمن أخذ يبرهن لذوى الأبصار على بهجة الشمس أثناء النهار واحتياج الإنسان إليها ، ولذا أترك تقريظ تلك المقالات لا إنكاراً لفضلها ولكن عجزاً عن مدحها ، لا سيما وقد تناولت هذا الموضوع أقلام ولا ذكر لقلمى بجانبها .

« وإنى أعجب بإنشائك ، أعجب بأفكارك ، أعجب بكل شىء فى مقالاتك ، إلا أن لى فكراً يخالف ما قرأته فى مقالتك الأخيرة وهذا بالطبع لا يدل على خطأ فيها ولكنه يدل على اختلاف مشارب الناس وتباين آرائهم وقد يكون الخطأ كل الخطأ فيما أراه أنا ، إلا أن هذا لا يمنعنى من عرض ما عن لى عليك لعلك تهدينى سواء السبيل » . ثم أبدت رأياً يبدو جلياً من الرد وقد ختمت الآنسة نبوية مقالها بقولها : « أقول إما السفور وإما الحجاب حتى عن الخاطب » فردت الباحثة بما يلى :

رأيي في الحجاب[1]

أطلعت على ما وجهته إليّ صديقتي السيدة (نبوية موسى) بشأن الحجاب والسفور فأثنيت على أدبها الجم وحسن ظنها بي .

مذهبي في الحجاب والسفور قد أشكل على كثيرين قبل السيدة (نبوية) لأنه لا يلائم أنصار الحجاب القديم ، ولا يعجب مقرري السفور على علاته ومقرري الاختلاط بين الجنسين . وإني وإن كنت رددت على المنادين بالسفور وخالفتهم في كثير مما يذهبون إليه فإني لم أقل قط بوجوب اتباع العادة القديمة في الحجاب بحذافيرها ، إنما أريد أن نوجد مذهباً وسطاً بين السفور الغربي والحجاب المصري القديم ، بحيث لا يكون اختلاطاً يبعث على الشطط و يفنينا في الإفرنج ولا حبساً يضايق الجسم والعقل و يضيع المصلحة . أريد أن نمشي على سنة العرب أيام النبي صلى الله عليه وسلم والفترة التي تلته أيام كان الإسلام صحيحاً لم تعبث به أيدي الفقهاء وذوي الأغراض من الملوك والسلاطين ، أريد أن نطبق عاداتنا على الشرع والسنة الشريفين بغير جمود ولا تعصب ، فلا نحرج أنفسنا بالاختباء إذا لزم السفور ، ولا نرخي لأهوائنا العنان بالسفور لمجرد تقليد الغربيين ، و إنما نختار أنفعهما لنا وأدفعهما للضرر . فإذا أنا لمت المنادين بالسفور فلأنهم متسرعون ، يريدون أن يقلبوا السكون دفعة واحدة ولا يتريثون لنيل بغيتهم بالتدريج ، وأكثر هؤلاء من الشبان المتفرنجين الذين يرون كل شيء غربي حسناً لمحض كونه غربيا ، ولم تحنكهم التجارب فيعلموا أن الانتقال الفجائي من

---

[1] هذا هو رد الباحثة على الآنسة نبوية موسى التي سبقت الإشارة إليه .

حال لضدها شديد الضرر وخيم العاقبة . ولو اتبعوا الحكمة وسلكوا مسلك الحذر بأن ارتقوا لمذهبهم درجة فدرجة ماصعب الانتقال إليه ، وما لقوا معارضة كالتي لقوها . وإني لمن الذين يقدرون صعوبة التغيير ولا يميلون لتعميم مذهب السفور الآن لاستحالة قبوله عند من كبرن وتعودن الحجاب ، ولكني أحب أن نغرس الغرس الجديد في النشء . ولولا كثرة حوادث الخلاف في بيوتنا المصرية وشعور أغلبنا بشقاء العيش من جراء زواجنا النبقي أو القصري لما ناديت بتغيير البتة في اتباع نظامنا العتيق . وقد كررت القول في كتاباتي وكلامي بأنه يتساوى عندي السفور والحجاب مادامت العفة والحشمة لاغبار عليهما .

أما طريقة زواجنا الحاضرة ففيها غبن علينا وشقاء لنا ، ولا إخال أحداً ينكر ذلك ، وأما أننا نرى الشر عميقاً بنا ولا نتجنبه فما لا يحكم به عاقل . ولو رأت صديقتي السيدة (نبوية) أو غيرها ممن لا يريدون أن يفهموا وصية النبي في الخطبة والزواج ، ولو رأوا رأياً آخر غير رأيي يخيلنا ما نبتغيه من السعادة بزواجنا لكنت أول المعضدين له . إذا كان أحدنا يصلي وأبصر ثعباناً يوشك أن يلدغه فهل يستمر على صلاته ويعرض نفسه للخطر صلاحاً منه وتقوى ، أم يقتضب صلاته ويقتل الثعبان ثم يصلي آمناً مرتاحا ؟ ولا أدري لِمَ يشغل الكتاب أنفسهم بالبحث في مسألة الحجاب الآن ولا فائدة تحتها إلا إثارة الأقلام والخواطر بغير جدوى . ولا تزال النساء جاهلات أمسّ الأمور بهن وأهمّ واجباتهن !! وقد نصحت مراراً بأن نأخذ الأهم قبل المهم . والأهم الآن هو تربية الفتيات وتعليمهن حتى يصلحن يوماً لأن يكن قيمات على أنفسهن فيخترن السفور أو الحجاب . وأجدني ميالة للاختصار في هذا الموضوع لأني كتبت فيه مراراً ومذهبي فيه معروف ، ألا وهو تربية الفتيات على آداب الدين والفضيلة وتخفيف وطأة الحجاب عنهن مادمن لم يتزوجن حتى يتسنى للشباب رؤيتهن ، ولكني أشترط دائما وفي كل

حال أن يكون مع الفتاة محرم تسترشده وتخشاه . و بالجملة أريد تعويد الناشئات السفور إلى الحد الذى يبيحه الدين الإسلامى الشريف بغير شطط فى تأويل معناه . أما الاختلاط الغربى بلاحد ولا قيد والجرى وراء الخلاعة والتهتك فما لا أوافق جماعة المتفرنجين عليه أصلاً ، وكفى أنه مذموم عند أهله فما بالك به عندنا ! !

هذا ما أعتقده فى مسألة الحجاب والسفور ، ولكل امرئ ما يرى .

رأى فى الحجاب

أهملت أقلامى وحيناً منطقى ... فى النصح والمأمول لم يتحققِ
وظننت إخلاصى يفيد وهمتى ... تفضى بمن أشقى لهن إلى الرقى
أكبرت نفسى أن يقال تملقت ... لا كان عيش يرتجى بتملق
وإذا تملق بالخديعة كاتب ... يبغى بها العلياء لم أتملق
تخذوا مناطيد الدهان ذرائعاً ... للمجد لكنى بجدى أرتقى
سيّان بعد رضى ضميرى من غدا ... لى مادحاً أو قادحاً لم أفرق
إن الحقيقة كيف يخفى ضوءها ... مدح المحب وترهات الحنق
والرأى يجلوه التباين مثلما ... يجلو الحكُّ العسجد الحر النقى
أيردنى عما رأيت معاند ... ومقال حاسدة وكذب ملفق
لعدمتُ آدابى وحسن تجلدى ... إن صدنى قول البغيض الأحمق
أيسوؤكم منا قيام نذيرة ... تحمى حماكم من بلاء محدق
أيسركم أن تستمر بناتكم ... رهن الإسار، ورهن جهل مطبق
هل تطلبون من الفتاة سفورها؟ ... حسن. ولكن أين بينكم التقى؟
تخشى الفتاة حبائلاً منصوبة ... غشيتموها فى الكلام برونق
لا تتقى الفتيات كشف وجوهها ... لكن فساد الطبع منكم تتقى
لا تطفروا بل أصلحوا فتياتكم ... وبناتكم وتسابقوا للأليق
أرضيتمو عن كل شىء عندنا ... وخشيتمو أمر القناع إذا بقى
هل قمتمو بفروض نسوتكم وهل ... هذبتمو من طبعهن الأخرق؟
أسبقتمونا بالفضيلة والتقى ... وخشيتمو الملكات إن لم نلحق؟
تتنقلون لمنتدى من قهوة ... ونساؤكم فى ألف باب مغلق
إن الزواج على خطورة شأنه ... آلت روابطه لشرٍ ممزق

اليوم عرس باحظّ نفقاته وغـداً تقام قضية لمطلق.
أتعاقدون على الحياة شريكة غيباً ، أيعقت عاقل من ينتقى؟
من سار أعزل للقتال فإنه لايشتكى طعن العدو الأزرق.
من يطلب العلياء دون تدبر لاتعجبن اسميه أن يخفق
هلا صرفتم بعض وقتكمو على رأب الصدوع ورتق ما لم يرتق؟
لاتدخلون الدور إلا برهة تردونها لضرورة كالفندق
لاتصدر الآراء ينقض بعضها بعضاً فتمسى فى مجال ضيق.
ياليت شعرى، وللمشارب أمرها متيا كس ، من أى ورد نستقى.
فدعوا النساء وشأنهن فإنما يدرى الخلاص من الشقاوة من شقى.
وأمامكم غير القناع مآزق أولى بها التفكير من ذا المأزق
ليس السفور مع العفاف بضائر وبدونه فرط التحجب لايقى.

تسألينني ياسيدتي أن أدلك وسط هذه الأحوال المضطربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجة ، وإنها لحال توجب الحيرة ولا ندري أي الطرق تسلك لنصل سريعا إلى الغاية التي نقصد إليها !! كلنا يرى إلى تقدم الفتاة وتطورها وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأماً ناقعة أبناءها ووطنها ، ولكن لكل مناد بالإصلاح وجهة هو موليها . فبعضهم لايرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعا للحجاب ، وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالاً ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل ، تكتنفه المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التي تكاد تغشي الأبصار .

وفريق لايرى للسفور فائدة ويقول إن الحجاب لاينفي العلم ، وإن إطلاق الحرية للمرأة أخيرا كان سببا لفسادها ، وإن اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب وخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت أختها الغربية الآن . فأي الطريقين نسلك ومن نتبع ؟ إننا معشر النساء - لانزال - تحت ظلم الرجل وعنفه واستبداده يأمر وينهى فينا حتى أصبحنا ولا رأي لنا في أنفسنا . فإذ قال لنا اختبئن حتى تدفنّ بالحياة صونا لسكن وتدليلا كما يقول المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة

على المدفون قبل الترب صوناً

وكقوله في أخت ممدوحه الثانية من رثاء أيضا

وما رأيت عيون الإنس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب

وهل سمعت سلاماً لي ألم بها فقد أطلت وما سلمت عن كثب

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا ، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا ، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا ، فهل هو حسن النية في كل مايطلب منا ولأجلنا أم هو

يريد بنا شراً ؟ لاشك أنه أخطأ وأصاب في تقرير حقنا من قبل ، ولا شك أنه يخطئ ويصيب في تقرير حقوقنا الآن .

نحن لانأبى أن نتبع رأي العقلاء والمصلحين من الأمة ، ولكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة في موضوع المرأة من العقلاء المصلحين . ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها ولا يستبد في (تحريرنا) كما استبد في (استعبادنا) . إننا سئمنا استبداده . إننا لانخاف من الهواء ولا من الشمس وإنما نخاف عينيه ولسانه ، فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه وأن يكن لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا في أمرنا وأمره ، وإلا فكل منا حر يفعل مايشاء . والسلام عليك أيتها الفاضلة من المعجبة بك المثنية على أدبك الجم وعلمك الغزير .

باحثة البادية

القاهــرة

١- الفردوس : يونيو ١٨٩٦م (لويزة حابلين/ سورية).

٢- مرآة الحسناء : نصف شهرية ١نوفمبر ١٨٩٦م (سليم سركيس/ سورى).

٣- العائلة : نصف شهرية ١٨٩٩م (استرأزهرى مويال يهودية / بيروت).

٤- الهوانم : أسبوعية ١٩٠٠م (أحمد حلمى مصرى/ مسلم).

٥- المرأة في الإسلام: نصف شهرية مارس ١٩٠١م (إبراهيم رمزى مصرى/ مسلم)

٦- المرأة : نصف شهرية ٦ يوليو ١٩٠١م (أنيسة عطا الله / شامية مسلمة).

٧- السعادة : القاهرة ١ يوليو ١٩٠٢م (رجينا عواد).

٨- عروس النيل : ١ أغسطس ١٩٠٣ (سليم قبعين).

٩- العالم الإسلامى : القاهرة ١٠مارس ١٩٠٥ (مصطفى كامل).

١٠- فتاة الشرق : شهرية ١٥ أكتوبر ١٩٠٦ (لبيبة هاشم/ مارونية بيروت).

١١- الريحانة: حلوان القاهرة ٢٧ فبراير ١٩٠٧م (جميلة حافظ/ مصرية مسلمة).

١٢- ترقية المرأة : القاهرة ٣ مارس ١٩٠٨م (فاطمة راشد/ مصرية مسلمة).

١٣- الجنس اللطيف : القاهرة ٥ يوليو ١٩٠٨م (ملكة سعد/ مصرية مسيحية).

١٤- مرشد الأطفال : أسبوعية ١٤ نوفبر ١٩٠٩م (أنجيليكا أبو شاعر).

١٥ الأعمال اليدوية للسيدات : ١٩٠٩م (مدموازيل فاسيلا/ يونانية).

١٦- البرنسيسة : المنصورة ١٩٠٩م (فتنة هانم/ تركية مسلمة).

١٧- العفاف : نصف شهرية ثم أسبوعية ١٩١٠م (سليمان السليمى).

١٨- الجميلة : القاهرة ١٥ أغسطس ١٩١٢م (فاطمة توفيق / مصرية/ مسلمة).

١٩- فتاة النيل : شهرية ١٩١٣م (سارة الميهية/ مصرية مسلمة).

٢٠- المرأة المصرية : ١ يناير ١٩٢٠ (باسم عبد الملك).

٢١- فتاة مصر الفتاة : إبريل ١٩٢١ (املى عبد المسيح).

٢٢- روزاليوسف : ٢٦ أكتوبر ١٩٢٥ (روزاليوسف).

الإسكندرية

٢٣- مجلة الفتاة : شهرية ٢٠ نوفمبر ١٩٨٢م (هند نوفل/ سورية).

٢٤- أنيس الجليس : الإسكندرية ٢١ يناير ١٨٩٨م (ألسكندرا أفرينو يونانية/ بيروت).

٢٥- شجرة الدر : الإسكندرية ١ مايو ١٩٠١م (سعدية سعد الدين/ إسلامية).

٢٦- الزهرة : الإسكندرية ٨ مايو ١٩٠٢م (مريم سعد).

٢٧- السيدات والبنات: الإسكندرية ١٩٠٣م (روزا أنطون/ يونانية طرابلس).

٢٨- الموضة : الإسكندرية ١٩٠٣م (سليم خليل فرح).

٢٩- ترقية الفتاة : الإسكندرية ■ يونيو ١٩٢٣ (نبوية موسى).

الفيـوم

٣٠- آداب الفتاة : يناير ١٩٢٥ (فيكتوريا مجلى).

المراجع: "تاريخ الصحافة العربية" الفيكونت فيليب دى طرازى بيروت المطبعة الأدبية ١٩١٣م "النهضة النسائية فى مصر" الثقافة والمجتمع والصحافة تأليف بث بارون، ترجمة لميس النقاش - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩م (المشروع القومى للترجمة).

مصادر كتاب: صراع الطربوش والقبعة: فى حياة ملك: باحثة البادية

❊ "**آثار باحثة البادية**" مجد الدين حفنى ناصف. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. تقديم د. سهير القلماوى ٧ يوليو ١٩٦٢م .

❊ "**النسائيات**" بقلم باحثة البادية. الجزء الأول. مطبعة الجريدة. ١٩١٠م.

❊ "**عصر إسماعيل**" عبد الرحمن الرافعى ج١ وج٢. الطبعة الثالثة. دار المعارف .

❊ "**مصر..وكيف غرر بها**". ألبرت .أ.فارمن (قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر من إيريل ١٨٧٦م) .

❊ "**المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم** "إدوارد وليم لين، ترجمة عدلى طاهر نور. الطبعة الثانية ١٩٧٥م. دار النشر للجامعات المصرية.

❊ "**حفنى ناصف**" تأليف محمود غنيم. سلسلة أعلام العرب رقم ٤٧ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.

❊ "**مصطفى كامل**". عبد الرحمن الرافعى. الطبعة الخامسة. دار المعارف

❊ **"الثورة العرابية"** تأليف اللورد كرومر. ترجمة عبد العزيز عرابى. سلسلة الألف كتاب الثانى الهيئة المصرية العامة للكتاب.

❊ **"الرائدة المجهولة: زينب فواز"**. حلمى النمنم. دار النهر للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى .

❊ **الحركة النسائية فى مصر ما بين الثورتين ١٩١٩و ١٩٥٢م**. د. آمال السبكى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م .

❊ **"سعدزغلول. الزعامة والزعيم"** د. حسين فوزى النجار. مكتبة مدبولى.

❊ **"نبوية موسى"**. ودورها فى الحياة المصرية. د. محمد أبو الأسعاد. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م. سلسلة تاريخ المصريين (٦٩).

❊ **"أيام لها تاريخ"**. احمد بهاء الدين .دار الشروق ١٩٨٥م.

❊ **"باحثة البادية وعائشة التيمورية"** بقلم الآنسة مى. كتاب الهلال يونيو ١٩٩٩م .

❊ **"ديوان الحياة المعاصر"** د. يونان لبيب رزق. الجزء الأول والثانـــى (لقسم الأول).

❊ **"النهضة النسائية فى مصر. الثقافة والمجتمع والصحافة"** تأليف بث بارون، ترجمة لميس النقاش، المجلس الأعلى للثقافة ١١٨ .١٩٩٩م.

❊ **"هدى شعراوى. الزمن والريادة"** د. جورجيت عطية إبراهيم. دار عطية للنشر.

فهرس

نهاية قرن . . ونهاية عصر

إسماعيل . . الخديوى الأول ———— ٣١
توفيق . . صديق الإنجليز ———— ٤٦
إرهاصات الحركة النسائية المصرية ———— ٤٨
عرابى . . ثائر بلا ثورة ———— ٥٥
الاحتلال البريطانى ———— ٦٠
دوجلاس دنلوب . . ونكسة التعليم ———— ٦٨
مصطفى كامل . . شهيد الوطنية ———— ٧١
دنشواى . . الواقعة السوداء ———— ٧٧

بداية قرن . . وبداية عصر

الطهطاوى . . رائد التنوير ———— ٧٩
الأفغانى . . باعث الثورة ———— ٩٥
الشيخ محمد عبده . . إمام الإصلاح ———— ١٠١

أحمد لطفي السيد . . أستاذ الجيل ---------- ١٠٧

الشيخ علي يوسف . . وفضيحة زواجه ---------- ١١٠

حفني ناصف الأب المعلم ---------- ١١٥

الجامعة المصرية ---------- ١٢١

الحماية البريطانية ---------- ١٢٥

المرأة . . والصحوة الثقافية

لبية هاشم ---------- ١٤٧

حياة ملك ---------- ١٥٩

ملك . . والقضية الوطنية ---------- ١٩٣

ملك . . بين قاسم ومي ---------- ٢٠٣

رؤية عصرية ---------- ٢٣١

٢٠٠٠/٩٤٨٤

I S B N 977 – 01 – 6715 – 0

هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها: فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مهرجان القراءة للجميع
الطفل - الشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع